الباب السادس

كتاب الرسائل والعهود

obeikandl.com

obeikandl.com

١ – أبو الفضل بن العميد

١ — أبو الفضل بن العميد هو محمد بن الحسين سيد كتاب اللغة العربية فى القرن الرابع ، وأعرف الوزراء لعهده بسياسة الملك ، وبناية المجد ، وكان معاصروه يسمونه "الجاحظ الثانى" لتوسعه فى العلوم العقلية والنقلية ، واطلاعه على ما دوّن الأقدمون فى الأدب واللغة والفلسفة والتشريع . وما أحسبهم سموه الجاحظ الثانى فى الكتابة ، لأنه أكتب من الجاحظ وأعرف منه بأسرار الكلام البليغ .

٢ — وقد اهتم كثير من كتاب التراجم بالكلام عن أبى الفضل بن العميد : فتحدث عنه الثعالبى[(١)] و ياقوت[(٢)] وابن خلكان[(٣)] بشىء من التفصيل ، وعرض له التوحيدى فى غير موضع ، ولكن أجمل ما قرأنا فى ترجمته هو الفصل الممتع الذى عقده للكلام عنه أبو على بن مسكويه فى كتاب (تجارب الأمم[(٤)]) بعد أن لازمه ليل نهار فى صحبة دامت سبع سنين .

٣ — كان ابن العميد باتفاق من ترجموا له أكتب أهل عصره ، وأحفظهم للغة والغريب ، وأكثرهم توسعا فى النحو والعروض واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات ، وأعرفهم بشعراء الجاهلية والإسلام ، وأدراهم بتأويل القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه ، وأبصرهم باختلاف فقهاء الأمصار ، وأنفذهم سهما فى الهندسة والمنطق وعلوم الفلسفة والالهيات .

ولا يحسبنّ القارئ أن من الكثير أن يتصف رجل واحد بكل هذه المزايا . فقد كان ابن العميد خصب الذهن جدّا ، وكان يؤمن بأن المجد يفرض على طلابه وصل النهار بالليل فى الدرس والتحصيل وتدبير الأمور ، ولم تشغله الوزارة عن الاختلاف إلى مجالس العلماء والاستفادة ممن عرفوا بسعة العلم ودقة البحث ، وإنهم ليذكرون أنه كان يقرأ كتاب الطبائع

(١) يتيمة الدهر ص ٢ — ٢٥ ج ٣ (٢) فى مواطن كثيرة من (إرشاد الأريب) .
(٣) ج ٢ ص ٤٦٣ — ٤٦٦ (٤) ج ٢ ص ٢٧١ — ٢٨٢

للجاحظ على أبي بكر الخياط فاتفق أنه كان عنده في بعض الأيام وقد نزع نعله فأخذه كلب في الدار وأبعده عن موضعه، وأراد أبو بكر الطهارة فقام ولم يره، وطلبه فلم يجده، فرأى ابن العميد أن يقدّم اليه نعل نفسه، فعدّ ناس ذلك إسرافا من ابن العميد، فلما بلغته هذه المؤاخذة قال: كيف أُلام على تعظيم رجل ما قرأت عليه بيتا من (الطبائع) إلا عرف ديوان قائله وقرأ القصيدة من أوّلها حتى ينتهي اليه. ولقد كنت وغيري نتهم أبا عثمان الجاحظ فيما يستشهد به من غريب الشعر حتى دلنا على مواضعه ... أفما يستحق من هذه الصفة صفته هذه الكرامة اليسيرة في جنب هذه الفضيلة الكبيرة[1]؟

ولهذا الخبر قيمته الأدبية فضلا عن قيمته الخلقية، فهو من جهة الخلق دليل على تواضع ابن العميد وبره بالعلماء، ولكنه من الجهة الأدبية دليل على ميله إلى التعمق وشغفه بالاستقصاء، فكان من همه أن يحفظ دواوين القدماء وأن يستدرك على قاصديه من أهل الأدب والرواية ما يقع في كلامهم من لحن أو حذف أو تصحيف.

٤ — ولم تكن معارف ابن العميد على كثرتها من النوع الذي يقدّر بالمكيال، بل كانت في غاية من الدقه ولطف الجوهر: فقد حدّثنا الصاحب بن عباد أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه ابن العميد "فانه يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات، ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن" إلى أن قال: "وسمعته — أيده الله — يقول إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر، ويُبتدأ النسج، لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذي قصده، والمعنى الذي اعتمده، وينظر في أي الأوزان يكون أحسن استمرارا ومع أي القوافي يحصل أجمل اطراد[2]".

وهذا كما يرى القارئ فهم دقيق، وسموٌّ بالنقد إلى أبعد مما كان يتطلع إليه الناقدون من وزن المعاني والألفاظ، فالرجل يرى أن جودة الشعر تتصل بوزنه وقافيته ولفظه ومعناه

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ٩ و ١٠ (٢) أنظر رسالة الصاحب عن المتنبي ص ٨

وكلماته وحروفه ، ثم تختلف عنـده القوافى والأوزان باختلاف المعـانى والأغراض ، وتلك نظرة لا يدركها إلا الفحول .

وهناك خبر صغير يبدو قليل الأهمية ، ولكنى وقفت عنده طويلا : فقد ذكر يوما أبو بكر الخياط بحضرة ابن العميد فقال : أفادنى فى نقد الشعر ما لم يكن عندى : وذاك أنه جاءنى يوما باختيار له فكنت أرى المقطوعة بعد المقطوعة لا تدخل فى مرتضى الشعر فأعجب من إيراده لها واختياره إياها فسألته عنها فقال : لم يقل فى معناها غيرها فاخترتها لانفرادها فى بابها.[1]

فهل رأى القارئ أدق من هذه النظرة فى تعقب الأشعار والأحاديث ؟

٥ — وكان ابن العميد يجمع إلى سـعة العلم أدب النفس ، على قلة ما يتفق من ذلك فى طباع الناس ، فكان "قليل الكلام ، نزر الحديث ، إلا إذا سئل ووجد من يفهم عنـه : فانه حينئذ ينشط فيسمع منـه ما لا يوجد عنـد غيره ، مع عبارة فصيحة ، وألفاظ متخيَّرة ، ومعان دقيقة ، لا يتحبس فيهـا ولا يتلعثم ... وكان لحسن عشرته ، وطهارة أخلاقه ، ونزاهـة نفسـه ، إذا دخل إليـه أديب أو عالم متفرد بفن سكت له وأصغى إليـه ، واستحسن كل ما يسمعه منه استحسان من لا يعرف منـه إلا قدر ما يفهم به ما يورد عليه"[2] .

وهذا أدب لا يصبر عليه إلا كبار النفوس .

على أن أدب النفس فى صدر ابن العميد لم يقف عند هذه المعانى السلبية ، بل تعداه إلى الجرأة القاهرة والإقدام الغلاب " فاذا حضر المعارك وباشر الحروب فانما هو أسد فى الشجاعة لا يصطلى بناره ، ولا يدخل فى غباره ، ولا يناوئه قِرن ، ولا يبارزه بطل ، مع ثبات جأش ، وحصور رأى ، وعلم بمواضع الفرص ، وبصر بسياسة العساكر والجيوش ، ومكابدة الحروب" وكان الى هـذه الخلال حسن التدبير الى حد الاعجاز ، فقد تولى الوزارة لركن الدولة بعد أن تقدمه قوم علبهم الجنـد على أمرهم ، وصارت مملكة ركن الدولة تحت سلطانهم ملعبا للفتن والدسائس وميـدانا للفوضى والاضطراب ، فلما تولى ابن العميد الوزارة اسـتقام الأمر ،

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ١٠ (٢) راجع تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٧٧ و ٢٧٨

واستطاع بحزمه وقوة نفسه أن ينظم الأمور و بضبط الأعمال " و بسط عدله وأقام هيبته فى صدور الجند والرعية حتى كان يكفيه رفع الطرف الى أحدهم على طريق الإنكار فترتعد الفرائص وتضطرب الأعضاء، وتسترخى المفاصل" كما عبر ابن مسكويه، وهو عندنا صادق فيما وصف به ابن العميد .

٦ — وكان ابن العميد من الوزراء الممدّحين، فقصده الشعراء من كل صوب، وساقوا اليه جياد المدائح، وللمتنبي فيه قصيدة رائية يحفظها أكثر الناس .

ولنشر هنا إلى أن ابن نباتة السعدى ورد عليه وهو بالرى وآمتدحه بقصيدته التى أولها[(١)] :

برْحُ آشتياق وادكار ... ولهيب أنفاس حِرارِ
ومدامع عبراتها ... ترفضُّ عن نوم مُطار
لله قلبي ما يجنّ ... من الهموم وما يوارى
لقد آنقضى سكر الشبا ... ب وما انقضى وَصَب الخُمار
وكبرت عن وصل الصغا ... رِ وما سلوت عن الصغار
سَقيًا لتغليسى إلى ... باب الرصافة وابتكارى
أيام أخطر فى الصبا ... نشوان مسحوب الإزار
جمى الى حجر الصرا ... ةِ وفى حدائقها اعتمارى
ومواطن اللذات أوطا ... نى ودار اللهو دارى
لم يبق لى عيش يلذ ... سوى معاقرة العقار
أحيا بألحان قمر ... تُ بهن ألحان القمارى
واذا استهل ابن العميد ... تضاءلت ديم القطار
خرقٌ صفت أخلاقه ... صفو السبيك من النضار
فكأنما زفت موا ... هبهُ بأمواج البحار

(١) راجع ابن خلكان ج ٢ ص ٤٦٤ — ٤٦٦

وكأن نشر حديثه نشر الخزامى والعرار
وكأننا مما تفرق راحتاه فى نثار
كلف بحفظ السر تحسب صدره ليل السرار
إن الكبار من الأمور تنال بالهمم الكبار
وإلى أبى الفضل اتبعتُ هواجس النفس السوارى

ولكن صلة ابن العميد تأخرت عن هذا الشاعر فشفع هذه القصيدة بأخرى وأتبعها برقعة فلم يزده ابن العميد على الاهمال مع رقة حاله التى ورد عليها الى بابه فتوصل إلى أن أدخل عليه يوم خميس وهو فى مجلس حافل بأعيان الدولة وتعدّى أرباب الديوان فوقف بين يديه وأشار اليه بيده وقال :

"أيها الرئيس ! انى لزمتك لزوم الظل ، وذللت لك ذل النعل ، وأكلت النوى المحرق انتظارا لصلتك ، والله مابى من الحرمان ، ولكن شماتة الأعداء : وهم قوم نصحونى فأغششتهم ، وصدّقونى فاتهمتهم ، فبأى وجه أتقاهم ، وبأى حجة أقاومهم ، ولم أحصل من مديح بعد مديح ، ومن نثر بعد نظم ، إلا على ندم مؤلم ، ويأس مستقم . فان كان للنجاح علامة فأين هى وما هى ؟ إلا أن الذين تحسدهم على ما مدحوا به كانوا من طينتك ، وان الذين هجوا كانوا مثلك ، فزاحم بمناكبك أعظمهم شأنا ، وأنورهم شعاعا ، وأمدهم باعا ، وأشرفهم بقاعا" .

فحار رشد ابن العميد ولم يدر ما يقول ، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال : هذا وقت يضيق عن الإطالة منك فى الاستزادة ، وعن الاطالة منى فى المعذرة ، واذا تواهبنا ما دفعنا اليه استأنفنا ما نتحامد عليه . فقال ابن نباتة : أيها الرئيس ! هذه نفثة مصدور منذ زمان ، وفضلة لسان قد خرس منذ دهر . والغنىّ اذا مطل لئيم ! فاستشاط ابن العميد وقال : والله ما استوجبت هذا العتب من أحد من خلق الله تعالى ؟ ... ولست ولى نعمة فأحتملك ، ولا صنيعتى فأغضى عليك ، وان بعض ما أقررته فى مسامعى ينغص مرة الحلم ، ويبدد شمل

الصبر، هذا وما استقدمتك بكتاب، ولا استدعيتك برسول، ولا سألتك مدحى ولا كلفتك تقريظى

فقال ابن نباته : صدقت أيها الرئيس ! ما استقدمتنى بكتاب، ولا استدعيتنى برسول، ولا سألتنى مدحك، ولا كلفتنى تقريظك، ولكن جلست فى صدر ديوانك بأبهتك ، وقلت لا يخاطبنى أحد الا بالرياسة، ولا ينازعنى خلق فى أحكام السياسة، فأنى كاتب ركن الدولة، وزعيم الأولياء والحضرة، والقيِّم بمصالح المملكة ، فكأنك دعوتنى بلسان الحال ، ولم تدعنى بلسان المقال !

فثار ابن العميد مغضبا وأسرع فى صحن داره الى أن دخل حجرته، وتقوض المجلس، وماج الناس، وسمع ابن نباته وهو فى صحن الدار مارًّا يقول : والله إن سف التراب والمشى على الجمر أهون من هذا ! فلعن الله الأدب اذا كان بائعه مهينا له، ومشتريه مما كسا فيه !

فلما سكن غيظ ابن العميد وثاب إليه حلمه آلتمسه من الغد ليعتذر إليه ويزيل آثار ما كان منه : فكأنما غاص فى سمع الأرض وبصرها، فكانت حسرة فى قلب ابن العميد الى أن مات .

وقد نقلنا هذا الخبر على طوله لأهمية خاصة سيعرفها القارئ بعد لحظة، فان راويه وهو ابن خلكان عاد فحدثنا انه وجد هذه القصيدة وهذا المجلس منسوبين الى غير ابن نباته، وانه كشف ديوان ابن نباته فلم يرفيه هذه القصيدة وانه وجدها فى (مثالب الوزيرين) للتوحيدى منسوبة لأبى محمد عبد الرازق بن الحسن البغدادى وهذه المخاطبة لشاعر من أهل الكرخ .

ونحن نأسف مر الأسف على أن لم نتمكن من الاطلاع على كتاب (مثالب الوزيرين) ونخشى أن يكون ضاع أبد الآبدين، مع أنه كان موجودا بالآستانه منذ ثلاثين عاما ، ولو أتيح لنا الاطلاع على هذا الكتاب لآستطعنا تخطئة ابن خلكان ، فاننا نجزم جزما قاطعا **بأن هذا المجلس الذى نقلناه آنفا من صنع التوحيدى، ولا يضيرنا أن النسبة لم تصح بطريقة**

علميـة ، فانا نعرف التوحيـدى معرفة قوية لطول ما صاحبناه وعاشرناه ، ولو ألقيتْ جملة من كلامه فى أكداس من الأوراق لميزناها لأوّل نظرة . فليكن الشـاعر من يكون ، وليكن المخاطب من يكون ، فان واضع المجلس هو التوحيـدى على كل حال ، ولا يبقى إلا أن نرجح أنه أداره على ابن العميـد لا على غيره ، لأن هـذه الحفيظة من التوحيـدى ما كانت لتثور فى هذه القوة على رئيس غير ابن العميد الذى شغل بثلبه وتجريحه حينا من الزمان .

٧ — وكان لابن العميـد ولد ذكى القلب ، قوى الحس ، مشرق الذكاء ، فاهـتم بتأديبه وأحضر له كبار الأساتذة ، وجعل عليه فى صباه جماعة من ثقاته يشرفون عليه فى منزله ومكتبه وينهون إليه أنفاسه ، فرفع إليه بعضهم انه اشتغل ليلة بمـا يشتغل به الأحداث من عقـد مجلس مسرّة وإحضار الندماء فى خفية شديدة واحتياط من أبيه ، وأنه كتب إلى من سماه يستهديه شرابا فحمل إليه ما يصلحهم من الشراب والنقل والمشموم ، فدس ابن العميد الى ذلك الانسان من جاء بالرقعة الصادرة عن ابنه أبى الفتح فاذا فيها بخطه :

بسم الله الرحمن الرحيم

" قد اغتنمت الليـلة أطال الله بقاء سـيدى ومولاى رقدة من عين الدهر ، وانتهزت فيها فرصة من فرص العمـر ، وانتظمت مع أصحـابى فى سمط الثريا ، فان لم تحفظ علينـا النظام ، باهداء المدام ، عدنا كبنات نعش والسلام "[1] .

فاستطير ابن العميـد فرحا بهذه الرقعـة البديعة وقال : الآن ظهر أثر براعتـه ، ووثقت بجريه فى طريق ، ونيابته منابى . ووقع له بألفى دينار .

ولكن هذا الفرح لم يدم طويلا ، لأن ذلك الوليد أخذ يمعن فى أسباب الزهو والخيلاء فكان يحمـل رؤساء الجند وقوادهم على الخيول الفره بالمراكب الثقال ليسلموا له الرياسـة . "حتى لا يأنف أحد من تقبيـل الأرض بين يديه والمشى قدامه إذا ركب ، ممـا لا يؤثره

(١) اليتيمة ج ٣ ص ٢٦

الأستاذ الرئيس ولا يرضاه لسيرته ، وكان يعظه وينهاه عن هذه السيرة، ويعلمه أن ذلك لو كان مما يترخص فيه لكان هو بنفسه قد سبق اليه " .

قال ابن مسكويه : « ولقد سمعته فى كثير من خلواته يشرح له صورة الديلم فى الحسد والجشع، وأنه ما ملكهم أحد قط إلا بترك الزينة وبذل ما لا يبطرهم ولا يخرجهم الى التحاسد، ولا يتكبر عليهم، ولا يكون إلا فى مرتبة أوسطهم حالا، وان من دعاهم واحتشد لهم وحمل على حالة فوق طاقته لم يمنعهم ذلك من حسده على نعمته والسعى على إزالتها وترقب أوقات الغرة فى آمن ما يكون الانسان على نفسه منهم فيفتكون به فى ذلك الوقت[1]» .

ولكن تلك العظات لم تغن شيئا فى تقويم ذلك الفتى، فكان ابوه يأخذه معه فى أسفاره حتى لا تكون سيرته سببا فى تغير ركن الدولة على وزيره. واتفق أن خرج أبو الفضل فى إحدى سفراته واستصحب معه ابنه أبا الفتح، فلما كان فى بعض الطريق — وكان يركب العماريات ولا يستقل على ظهور الدواب لإفراط علة النقرس وغيرها عليه — التفت حوله فلم ير فى موكبه أحدا، وسأل عن الخبر فلم يجد حاجبا يخبره ولا من جرت العادة بمسايرته غير ابن مسكويه . فسأله فأخبره أن الجند بأسرهم مالوا مع أبى الفتح الى الصيد. قال ابن مسكويه : «فاستشاط من ذلك وساءه أن يجرى مثل هذا ولا يستأذن فيه . وقد كان أنكر خلو موكبه وهو فى وجه حرب، ولم يأمن أن يستمر هذا التشتت من المعسكر فتتم عليه حيلة. فدعا أكبر حجابه ووصاه بأن يحجب عنه ابنه أبا الفتح، وأن يوصى النقباء بمنع الديلم من مسايرته ومخالطته، وظن أن هذا المبلغ من الانكار سيغض منه وينهى العسكر من اتباعه على هواه فلم يؤثر كلامه هذا كبير أثر. وعاد الفتى الى عادته واتبعه العسكر ومالوا معه الى اللعب والصيد والأكل والشرب ، وكان لا يخليهم من الخلع والالطاف، فشق ذلك على الأستاذ الرئيس جدا، ولم يحب أن يخرق هيبة نفسه بإظهار ما فى قلبه ، ولا أن يبالغ فى الانكار وهو فى مثل ذلك الوجه فيفسد عسكره ويطمع فيه عدوه، فدارى أمره، وتجرع غيظه، وأداه ذلك الى زيادة فى مرضه حتى هلك

(١) تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٧٢

بهمذان وهو يقول فى مجلس خلواته : ما يهلك آل العميد ولا يمحو آثارهم من الأرض إلا هذا الصبي (يعنى ابنه) و يقول فى مرضه : ما قتلنى إلا جرع الغيظ التى تجرعتها منه[1] " .

وكانت وفاته رحمه الله بالرى سنة ٣٥٩ بعد أن عانى ما عانى من القولنج والنقرس يعاودانه صباح مساء . و يقال إنه رأى اكارا فى بستان يأكل خبزا ببصل ولبن وقد أمعن فيه فقال : وددت لو كنت كهذا الاكار آكل ما أشتهى ! وكذلك كانت العافية أنفع وأجمل من الملك والجاه والمال . وهل تبسم الدنيا لانسان عليل ؟

(١) تجارب الأمم ج ٢ ص٢٧٣٠

٢ - نثر ابن العميد

١ — كان رجال القرن الرابع يقولون : "بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد"[1] وهى مبالغه تذكر بما قيل فى ذلك العهد : " بدئ الشعر بملك، وختم بملك" يريدون أنه بدئ بامرئ القيس وختم بأبى فراس . وهذه وتلك من المبالغات التى تجرى على ألسنة المتزلفين من الحواشى والأتباع ، فقد كان لابن العميد أشياع يقولون بإمامته فى النثر كما كان لأبى فراس أشياع يقولون بإمامته فى الشعر . وكلتا الكلمتين على ما فيهما من مبالغة ظاهرة ترجعان الى أصل من الحق أصيل : فقد كان ابن العميد وأبو فراس من أفذاذ الرجال، ولكل منهما روح قوى قهار يعز على من رامه و يطول .

والقارئ يعرف أننا ننكر أن تكون الكتابة بدئت بعبد الحميد،ولكننا لا ننكر أن عبدالحميد كان إماما لأهل عصره ، وأنه أدخل فى الكتابة أساليب وتعابير وتقاليد لم يكن يعرفها الأولون ، وكذلك كان ابن العميد إماما لكتاب القرن الرابع . وما نظن أنه أدخل فى فنون الكتابة ما أدخله عبد الحميد، ولكنه يمتاز بميزة عجيبة : هى إعزاز القلم و رفعه الى أشرف الدرجات : فإننا حين نقرأ نثره نجد أنفسنا أمام عظمة عقلية يخر لها الجبابرة ساجدين . وهو حين يكتب لا يطالعك بفنه، كما كان يفعل معاصروه، وانما يطالعك بقلبه و روحه وعقله بحيث تبدو كل كلمة من كلماته وكأنها قلب يخفق أو روح يثور . فليست الكتابة عند ابن العميد زخرفا براقا يلهو به ولا ثروة لغوية يكاثر بها الكتاب، ولكن الكتابة عنده ثورة عقلية أو وجدانية يرمى بها كما يرمى البركان بأقباس الهلاك ، وقد يرق فتحسب نثره نجوى حبيبين فى هدأة الليل، وهو فى رقته وجزالته ، وغضبه وحنانه، عبقرى لا يعبث برجع الحديث المعاد، وانما يجد بابداع الرأى الصائب والقول الرصين .

(١) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٣

٢ — لم تصل إلينا مجموعة الرسائل التى حفظت عن ابن العميد ، ولكن بقيت منها شواهد تعطى عن نثره فكرة قريبة من الصواب . ونثره باعتبار موضوعاته يرجع الى فنين : الأول رسائله الرسمية التى كتبها بصفته وزيرا لركن الدولة ، والثانى رسائله الشخصية التى عبر فيها عن ذات نفسه وهو يراسل أصدقاءه وأحبابه . ولكل من الفنين فى نثره لون خاص . ولنسارع فنقرر أن الرسائل التى كتبها على لسان ركن الدولة ليست كالرسائل التى كتبها الصابى مثلا على لسان بعض الخلفاء والوزراء . لا ، فان ابن العميد حين يتكلم عن مليكه يتكلم بقوة وحرّية ، ويعبر عن إرادته الذاتية أكثر مما يعبر عمن يكتب باسمه . ويرجع ذلك الى أن ابن العميد كان كل شىء فى الملك الذى يسيطر عليه باسم ركن الدولة ، وكان الى جانب هذا مخلصا إخلاصا قويا يحوّل مشاكل الحكم عند أمثاله من الوزراء الى معضلات شخصية تثور لها نفس الوزير قبل أن يحس بها صاحب التاج . ولننظر كيف يخاطب بعض الخوارج على ركن الدولة فلا تدرى أيرمى عن غضب أم يصدر عن عقل :

"كتابى وأنا مترجح بين طمع فيك ، ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تدل بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة ، وتتبعهما بأنف خلاف ومعصية . وأدنى ذلك يحبط أعمالك ، ويمحق كل ما يرعى لك ، ولا جرم أنى وقفت بين ميل إليك ، وميل عليك ، أقدّم رجلا لصدمك ، وأخرى عن قصدك ، وأبسط يدا لاصطلامك واجتياحك ، وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، فقد يغرب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللب ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويضاع الرأى ثم يستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو" .

وفى هذه المقدّمة يرى القارئ كيف يتلطف ابن العميد فيستدرج ذلك العاصى ويقفه موقف المتردّد بين يومه وأمسه ، وحاضره وماضيه ، ثم يعرض عليه وجوه حاليه فى الطاعة والعصيان فيقول :

"وزعمت أنك فى طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها ، وإذا كنت كذلك فقد عرفت حاليها ، وحلبت شطريها ، فنشدتك الله إلا ما صدقتنى عما سألتك : كيف وجدت ما زُلت عنه ، وكيف تجد ما صرت إليه؟ ألم تكن من الأول فى ظل ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بليل ، وغذاء غذىّ ، وماء روىّ ، ومهاد وطىّ ، وكنّ كنين ، ومكان مكين ، وحصن حصين ، عززت به بعد الذلة ، وكثرت به بعد القلة ، وارتفعت بعد الضعة ، وأيسرت بعد المعسرة ، وأثريت بعد المتربة ؟ ففيم أنت الآن من الأمر؟ وما العوض عما عددت ، والخلف مما وصفت ، وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك ، ونفضت منها كفك ، وغمست فى خلافها يدك؟ وماالذى أظلك بعد انحسار ظلها عنك؟ أظلٌّ ذو ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغنى من اللهب ؟ قل نعم كذلك ! ".

وابن العميد يعرف قوة نفسه ، وبأس قلمه ، ولذلك يقول وقد بلغ هذه النقطة من الخطاب : "تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابى فستنكرها ، والمس جسدك وانظر هل يحس ؟ وتجسس عرقك هل ينبض؟ وفتش ما حنا عليك هل تجد فى عرضها قلبك ، وهل حل بصدرك أن تظفر بفوت سريح ، أو موت مريح[1] ؟ " .

٣ — وهذا النمط من الكتابة القوية يمثل قدر البلاغة فى أنفس الناس لذلك العهد : فهم يرون رسائل التهديد والوعيد طلائع من الأقلام تتقدم طلائع السيوف . وهذا فى الواقع متابعة موفّقة لذلك العرف الذى سنّه كتاب الدولة الأموية وأقره كتاب الدولة العباسية ، وهو أسلوب فى الدعاية كان يجرى عن طريق الرسائل كما تجرى الدعاية اليوم عن طريق الصحف السياسية . والدنيا هى الدنيا والناس هم الناس ، وإن تغيرت طرائق التخويف والترهيب وفقا لتغير وسائل النشر والتبليغ .

٤ — أما رسائله الشخصية فهى فن من الشعر الوجدانى البليغ ، هى قصائد منثورة فى موضوعات شعرية ما كان يصلح لها غير القصيد ، وأظهر ما كتب فيه ابن العميد من

(١) راجع بقية الرساله فى اليتيمة ج ٣ ص ١٢

الوجدانيات : هو العتاب . ولكن أى عتاب ! ان الرجل يتحدث اليوم عن مشاعرنا وعواطفنا وبيننا وبينه عشرة قرون . لقد كان هـذا الرجل يفهم الصداقة فهما دقيقا جدا ، والظاهر أنها كانت تتحول فى قلبه الى عشق ، لأنه فى عتابه يتنفس عن قلب العاشق أضعاف ما يتنفس عن روح الصـديق . وهو فى عتابه مختلف الأشجان والنوازع : فله أوقات يثور فيها ثورة جارفة فيرمى بإخاء من يعاتب فى جحيم النسيان ، كقوله وقد مزج بين العتب والهجاء :

"وقد ندمت ... ولكن أى ساعة مندم ! بعد إفناء الزمان فى ابتدائك ، وتصفحى حالات الدهر فى اختيارك ، وبعـد تضييع ما غرسـته ، ونقض ما أسسته ، فان الوداد غرس اذا لم يصادف ثرى ثريا ، وجوا غذيا ، وماء رويا ، لم يرج زكاؤه ، ولم يجر ماؤه ، ولم تتفتح أزهاره ولم تجن ثماره ، وليت شعرى كيف ملك الضلال قيادى حتى أشكل علىّ ما يحتاج اليه المزوجان ولا يستغنى عنه المتآلفان ، وهى ممازجة طبع ، وموافقة شكل وخلق ، ومطابقة خيم وخلق ، وما وصلتنا حال جمعتنا على ائتـلاف ، وحمتنا من اختلاف ، ونحن فى طرفى ضـدين ، وبين أمرين متباعدين . واذا حصلت الأمر وجدت ما بيننا من البعاد ، أكثر مما بين الوهاد والنجاد ، وأبعد مما بين البياض والسواد ، وأيسر ما بيننا من النفار ، وأقل ما بيننا من التضار ، أكثر مما بين الليل والنهار ، والإعلان والإسرار"[1] .

وهـذه قطعة من رسالة طويلة يعاتب بها أبا عبد الله الطبرى ، ولا يتوهمن القارئ أن هـذه العبارات الجافيـة تدل على أن ابن العميد خلص قلبه من علاقات ذلك الصـديق : هيهات ! فنحن نعرف ما تشـير اليه أمثال هـذه الثورات : فان المرء لا يغضب مثل هـذا الغضب الأسود إلا حين يهاجم من لا يستطيع الخلاص من أسر وداده ، ودليل ذلك أننا نراه يعاتبه فى الرسالة نفسها معاتبة المغلوب فيقول :

" ولو بقيت من الصـبر بقية لسلوت ، ولو وجدت فى أثناء وجدى مخرجا يتخلله تجـلد لأمسكت ، فقديما لبست الصديق على علاته ، وصفحت له عن هناته ، ولكنى مغلوب على العزاء

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ٢٣٨

مأخوذ على عاداتى فى الاغضاء، فقد سلّ من جفائك ما ترك احتمالى جفاء، وذهب فى نفسى من ظلمك ما أنزف حلمى فجعله هباء، وتولى علىّ قبح فعلك فى هجر يستمر على نسق، وصد مطرد متسق، ما لو فض على الورى وأفيض على البشر لامتلأت صدورهم ... الخ"[1].

وكان ابن العميد فيما يظهر موصول القلب بأبى عبد الله الطبرى هذا، وقد غالب نفسه فى وداده أعنف مغالبة، واستطاع أخيرا أن يتوهم أنه تعزى عنه فكتب اليه فى جواب خطاب:

"وصل كتابك فصادفنى قريب العهد بانطلاق، من عنت الفراق، ووافقنى مستريح الأعضاء والجوانح من جوى الاشتياق: فإن الدهر جرى على حكمه المألوف فى تحويل الأحوال، ومضى على رسمه المعروف فى تبديل الأشكال، وأعتقنى من مخالّتك عتقا لا تستحق به ولاء، وأبرأنى من عهدتك براءة لا تستوجب دركا ولا استثناء؛ ونزع من عنق ربقة الذل فى إخائك، بيدى جفائك، ورش على ما كان يضطرم فى ضميرى من نيران الشوق بالسلو وشن على ما كان يلتهب فى صدرى من الوجد ماء اليأس، ومسح أعشار قلبى فلأم فطورى بجميل الصبر، وشعب أفلاذ كبدى فلاحم صدوعها بحسن العزاء، وتغلغل فى مسالك أنفاسى فعوّض عن النزاع اليك نزوعا عنك، ومن الذهاب فيك رجوعا دونك، وكشف عن عينى ضبابات ما ألقاه الهوى على بصرى، ورفع عنى غيابات ما سدله الشك دون نظرى، حتى حدر النقاب عن صفحات شِيمك، وسفر عن وجوه خليقتِك، فلم أجد إلا منكرا، ولم ألق إلا مستنكرا، فوليت منها فرارا وملئت رعبا. فاذهب فقد ألقيت حبلك على غاربك، ورددت إليك ذمم عهدك[2]!».

أليست هذه قصيدة رثاء يسكب دمعها على جدث الود المفقود؟ إن الناقد ليرى ابن العميد اقتبس أكثر معانيه فى هذه الرسالة من روائع الشعر القديم، ولكن لينظر منصفا كيف اتصلت هذه المعانى بنفسه أشد اتصال، وكيف جرت على أسلة قلمه وكأنها فيض الفطرة وجود الطبع، حتى ليخفى ما طرزت به حواشيها من آثار الاقتباس.

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ٢٣٥ (٢) زهر الآداب ج ٣ ص ٢٣٤

٥ — ولكن ابن العميد لايستطيع فى كل مرة أن يلقى حبل من يود على غاربه و يرد اليــه ذمم عهده، فليس القلب فى كل لحظة بمطواع حتى يزهد فى كل نافر صدوف ، وكذلك نجد آبن العميد على قوة نفسه وسـعة ماله و رفعة جاهه يقف وقفــة الخاشع الذليل فيعاتب بعض إخوانه بمثل هذا الكلام :

"ما هذا التغالى بنفسك، والتعالى على صديقك؟ ولم نبذتنى نبذ النواة ، وطرحتنى طرح القَذاة، ولم تلفظنى من فيك، وتمجنى من حلقك، وأنا الحلال الحلو والبارد العذب ، وكيف لا تخطرنى ببالك خطرة ، وتصيرنى من أشغالك مرة : فترسل سلاما إن لم تجشم مكاتبة ، وتذكرنى فيمن تذكر إن لم تكن مخاطبــة . وأحسب كتابى سـيرد عليك فتنكره حتى تثبت ، ولا تجمع بين اسم كاتبه وتصوّر شخصه حتى تتذكر، فقد صرت عندك ممن محا النسيان صورته من صدرك، وآسمه من صحيفة حفظك . ولعلك أيضا تتعجب من طمعى فيك وقد توليت، وآستمالتى لك وقد تأبيت، ولا عجب فقد يتفجر الصخر بالمـاء الزلال، ويلين من هو أقسى منك قلبا فيعود الى الوصال . وآخر ما أقوله أن ودى وقفٌ عليك، وحبسٌ فى سبيلك، ومتى عدت اليه وجدته غضا طريا، فجربه فى المعاودة فإنه فى العود أحمد"[1] .

ولعل القارئ يسأل : أتصدر أمثال هذه المكاتبات الرقيقة عن وزير ؟ ونجيبه بأننا نرجح أنه كتب أمثال هذه الرسائل الغضة فى صباه . على أننا لا نستكثر أن تصدر عنه وهو وزير، فللوزراء كسائر الناس جوانب وجدانيــة تلقى على حياتهم ظلالا من الرفق والحنان، خصوصا إذا تذكرنا أن كلمة "وزير" كان يلحظ فيها دائمـا معنى "كاتب" وكان الإبداع فى الكتابة من المؤهلات الأساسية فى الوصول إلى مناصب الوزراء .

٦ — ومما يؤيد ما ذهبنا إليه أن ابن العميد كتب إلى عبد الله الطبرى كتاب نصح يدل على معرفة و بصر بالشؤون السياسية، كتبه حتما بعد أن آتصل بالملوك والرؤساء . والطبرى

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ٢٤٥

هـذا هو صديقه الذى حدّثناك آنفا عن معاتبته إياه فى نفحات وجدانية تنم عن ود رقيق ، وفى هذا ما يشعر بأنه ما كان يتورّع وهو فى أوج مجده عن بث نوازع القلب والوجدان .

وانه ليشرح لصديقه ما يحب أن يتحلى به فى الحياة الرسمية فيقول بعد تمهيد :

"وآركب فى الخدمة طريقة تبعدك من الملال ، وتوسطك فى الحضور بين الإكثار والإقلال ، ولا تسترسل إلى حسن القبول كل الاسترسال ، فلأن تدعى من بعيد خيرٌ من أن تُقصى من قريب . وليكن كلامك جوابا تتحرز فيه من الخطل والإسهاب ، ... ولا يستفزك طرب الكلام على ما يفسد تمييزك . والشفاعة لا تعرض لها فانها مخلقة للجاه ، فان آضطررت اليها فلا تهجم عليها حتى تعرف موقعها ، وتحصل وزنها ، وتطالع موضعها ، فان وجدت النفس بالإجابة سمحة ، وإلى الاسعاف هشة ، فأظهر ما فى نفسك غير محقق ، ولا توهم أن عليك فى الرد ما يوحشك ، ولا فى المنع ما يغيظك ، وليكن انطلاق وجهك إذا دُفعت عن حاجتك أكثر منه عند نجاحها على يدك ، ليخف كلامك ولا يثقل على سامعه منك[1] » .

وهـذا الصديق الذى يوصيه ابن العميد بالرفق فى مصاحبة الأمراء والرؤساء هو نفسه الذى وصفه بالبعد عن الأواصر الغريزية التى توجب المودة : من ممازجة الطبع ، وموافقة الشكل ، ومطابقة الخلق . وتلك كما قلنا علالة يوهم بها ابن العميد قلبه أنه خلا من ودّ ذلك الصديق ، وإلا فقد رأيناه فى كلمة ثانية يذكر أنه صنو نفسه فيقول :

" لكن ما بقى أن يصفو لى عيش مع بعدى عنك ، ويخلو ذرعى مع خلوى منك ، ويسوغ لى مطعم أو مشرب مع انفرادى دونك ، وكيف أطمع فى ذلك وأنت جزء من نفسى ، ناظم لشمل أنسى ، وقد عدمت رؤيتك ، وحرمت مشاهدتك . وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام ، وينفع أنس ميت بلا نظام[2] ؟ " .

٧ — ومما آمتاز به ابن العميد إجادة الرسائل الاخوانية ، وهو فن برع فيه كتّاب القرن الرابع وصيروه سنة يجرى عليها الأصفياء والأُلاف . وقد تأملت فرأيت معانى ابن العميد صارت

(١) زهر الآداب ج ٤ ص ١٣٠ (٢) ص ١٨٠ ج ٤

وردا سائغا لمعاصريه كالميكالى والببغا و بديع الزمان . وليس غريبا أن يصير قدوة فى هذا الباب : فقد كان له بين ضلوعه قلب وفىّ أمين ، وكان يتحدّث فى الصداقات والمودات عن ود صادق ووفاء صريح . وقد كنا نعجب لخيال ابن زيدون إذ يقول :

يُدنى مزارك حين شط به النوى وهــمٌ أكاد به أقبّــل فاكِ

حتى رأيناه ممثلا أوضح تمثيل فى قول ابن العميد :

" قد قرب — أيدك الله — محلك على تراخيه ، وتصاقب مستقرك على تنائيه ، لأن الشوق يمثلك ، والذكر يخيّلك ، فنحن فى الظاهر على افتراق ، وفى الباطن على تلاق ، وفى التسمية متباينون ، وفى المعنى متواصلون . ولئن تفارقت الأشباح ، لقد تعانقت الأرواح[1] " .

وهو معنى جيد انتهبه الببغا فى إحدى رسائله الاخوانية[2] .

ولا يقف ابن العميد فى ملاطفة إخوانه عند هذا الحدّ ، بل يتأنق فى وصف كتبهم اليه فيقرظها فى حنان هو أشبه بالنسيب ، كقوله فى وصف خطاب وصل اليه من أحد الأصدقاء :

" وصل كتابك الذى وصلت جناحه بفنون صِلاتك وتفقدك ، وضروب برك وتعهدك ، فارتحت لكل ما أوليت ، وابتهجت بجميع ما أهديت ، وأضفت إحسانك فى كل فصل الى نظائره التى وكلت بها ذكرى ، ووقفت عليها شكرى . وتأملت النظم فلكنى العجب به ، وبهرنى التعجب منه . وقد رمت أن أجرى على العادة : فى تشبيهه بمستحسن من زهر جنىّ ، وحلل وحلىّ ، وشذور الفرائد ، فى نحور الخرائد :

والعذارى غدون فى الحلل البيض وقــد رحن فى الخطوط الســودِ

فلم أره لشىء عدلًا ، ولا أرضى ماعددته له مِثلا ، والله يزيدك من فضله ، ولا يخليك من إحسانه ، ويلهمك من بر إخوانك ما تتم به صنيعك لديهم ، ويربّ معه إحسانك إليهم[3] "

---

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ١٨٧ (٢) أنظر صبح الأعشى ج ٩ ص ١٤٤ (٣) ص ١١٢ ج ١

وقد يُغلَب على أمره فيختم خطابه بكلمة نعرف منها صراحه أن إعجابه بالمكتوب صورة لإعزازه للكاتب، كقوله فى خاتمة خطاب :

" وقد قرأت كتابك — جعلنى الله فداءك — فامتلأت سرورا بملاحظة خطك، وتأمل تصرفك فى لفظك ، وما أقرظهما فكل خصالك مقرظ عندى، وما أمدحهما فكل أمرك ممدوح فى ضميرى وعقدى . وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديرى فيك، فإن كان كذلك وإلا فقد غطى هواك وما ألقى على بصرى "[1] .

هذا ولابن العميد رسائل فى الحب تضارع فى روعتها قصائد التشبيب وتتصل برسائله الإخوانية أوثق اتصال، وله فى التهانى رسائل تغلب عليها الصنعة، ولكنها كأكثر نثره قوية محكمة تدل على صاحبها وتذكر بأدبه البارع واطلاعه على ما أنشأ الأقدمون من أفانين البيان ، وما نحسب معاصريه أسرفوا فى مجاملته حين لقبوه بالأستاذ الرئيس .

---

(١) زهر الآداب ص ١٨٠ ج ٤

٣ - أبو حفص بن برد

١ — أبو حفص أحمد بن برد الأكبر كاتب أندلسى من أقطاب النثر الفنى فى القرن الرابع، توفى بسرقسطة سنة ٤١٨ كما فى الذخيرة[١] وإرشاد الأريب[٢]، لاسنة ٤٢٨ كما وقع خطأ فى كتاب الدكتور أحمد ضيف عن بلاغة العرب فى الأندلس. وقد عاش ابن برد نحو ثمانين سنة، ولكن أخباره ضاعت فلم يعرف منها إلا القليل، مع أنه كان من أشهر الوزراء فى الأيام العامرية.

٢ — ولم نجد على كثرة البحث مايعيّن مذاهب ابن برد الأدبية. وقد اكتفى أكثر من عرضوا لترجمته بالعبارات الفضفاضة التى لا تحدّد شيئا: فذكر ياقوت أنه كان "كاتبا بليغا"[٣] وذكر ابن بسام أنه كان فى زمانه "واسطة السلك، وقطب رحى الملك" وأنه "برز على نظرائه وأشكاله" وأنه "كتب عن عدّة من الأمراء فأسمع الصم بيانا، واستنزل العُصْم إبداعا وإحسانا[٤] "وذكر صاحب المطمح أنه" غذى بالأدب، وعلا الى أسمى الرتب" وأنه "بديع الإحسان، بليغ القلم واللسان" وأنه "مايح الكتابة، فصيح الخطابة[٥]" وفخر حفيده ابن برد الأصغر بالانتساب اليه فقال:

من شاء خُبْرى فأنا ابن برد ... حدّ حسامى قطعة من حدى
وأرفع الناس بناءً جدى ... مَن نظم الألفاظ نظم العقد
ونقد الكلام حق النقد ... وكف بالأقلام أيدى الأسد[٦]

وهذه كلها صفات تدل على عظمة ابن برد فى أنفس من قرأوا له، وكتبوا عنه، ولكنها لا تعيّن منحاه فى مذاهب البيان.

---

(١) ج ١ ص ٤٩ (٢) ج ٢ ص ١٠٦ (٣) ج ٢ ص ١٠٦ (٤) ج ١ ص ٤٩
(٥) أنظر نفح الطيب ج ٢ ص ٣٦٧ (٦) الذخيرة ج ١ ص ٢٥٧

٣ — وعذر من ترجموا لابن برد أن معظم رسائله كان ضاع ، حتى أن مواطنه بن بسام[1] على قرب عهده به صرّح بأنه لم يجد من رسائله إلا مالا يكاد يعرب عن فضائله ، وربما كان ذلك هو السبب فيما وقع لبعض كتاب التراجم من الخلط بين آثار ابن برد الأكبر وابن برد الأصغر[2] . فانا نجد صاحب المطمح ينسب رسالة السيف والقلم الى ابن برد الأكبر ، وينسبها ياقوت[3] الى ابن برد الأصغر — والأبيات الآتية :

لما بدا فى لازور ... دىّ الحرير وقد بهر
كبرت من فرط الجما ... ل وقلت ما هذا بشر
فأجابنى لا تنكرنْ ... ثوب السماء على القمر

نسبها صاحب المطمح الى ابن برد الأكبر[4] . ونسبها ياقوت[5] الى ابن برد الأصغر .

٤ — تولى ابن برد رياسة ديوان الإنشاء لمحمد بن عبد الرحمن المستكفى ، وكتب كذلك لعدد من الأمراء ، فكان لتوليه رياسة ديوان الإنشاء أثر قوىّ فى حرصه على أدوات الكتابة ، وكانت تلك الأدوات مما شغل كتاب القرن الثالث والرابع : فكتب فريق منهم كتبا خاصة فيما يجب أن يراعيه الكاتب ، كما فعل ابن المدبر حين ألف "الرسالة العذراء" و إنا لنجد ابن برد يكتب عن المظفر بن أبى عامر رقعة وجهها الى القوّاد والكتّاب فيقول :

"ومن أعجب العجب ما يجترئ عليه بعض خدمتنا من نبذ عهودنا . ولا أحسب الذى غرهم بنا إلا ما وهب الله تعالى لنا مع القدرة من الحلم والكظم ، وقد كانت سجية غالبة ، وخليقة لازمة ، فرب شبع تحت مخيل النعماء ، وكم غصص فى شهىّ الغذاء ، ومن شرق فى نمير الماء ... ونصب أعينكم عهد المنصور صدره التوبيخ باستكتاب الجهلة ممن قلتْ معرفته ، وتضعت همته ، ولم يبلغ أن يحكم الخط فيقوّم حروفه ، ويراعى المداد فيجيد صنعته ، ويميز الرق فيحسن اختياره ، وعزه العزم النافذ ، والحكم الصادع ، بأن تكون صدور كتب

---

(١) الذخيرة ج ١ ص ٤٩ (٢) راجع نفح الطيب ص ٣٦٧ ج ٢ (٣) ص ١٠٦ ج ٢
(٤) نفح الطيب ص ٣٦٨ ج ٢ (٥) ص ١٠٦ ج ٢

الاعتراضات وعنوانها وتواريخها والأعداد فى رؤوس غصونها بخطوط أيدى القوّاد والعمال ، من كان منهم كاتبا فليكتب بيـده ، ومن لم يكتب فبخط كاتب معروف بالخط عنـه ، وأن تكون تسـمية طبقات الأجناد فيها قائمة الخطوط ، بينة الحروف ... على أنه إن ورد لأحد منهم بعد وصول العهد اليه كتاب اعتراض عمل فى رق ردىء ، أو خط فيـه لحن ، أو كتاب على بشر فى عدد ، أو رسم مالم يخف أو يقع فى بشر الكتاب ... فيعاجل بعقوبة العزل"[1] .

ولم يكتف بذلك ، بل مضى يقول :

"وإن قوما منهم عادوا لمـا نُهُوا عنه : فكتبوا الخـط الرقيق فى دنىّ الرقوق ، رقة من همهم ودناءة فى اختيارهم ، وجهلا بأن الخط جاه الكتاب ، وسلك الكلام : به ينتظم منثوره وتفصل شذوره ، ونبله من نبل صاحبه ، وهجته لاحقة بكاتبه ، إلى ما اقترفوه من العصيان ، وأقدموا عليه من خلاف السلطان ، وأنا أعطى الله عهدا لئن ارتفع إلىّ بعد بلوغ عهدى هـذا أقصى حدود المملكة وانتهائه أبعد أقطار الطاعة كتاب على الصفات المذمومة : من رق أومداد أو خط لأفينّ لصاحبه بما قدّم اليه من الوعيد"[2] .

وهذه الفقرات تمثل رأى الكاتب قبل أن تمثل رأى من كتبت باسمه ، وهى مظهر من عناية ابن برد بأدوات الكتابة وأدب الكتاب .

٥ — وقد حفظت عن ابن برد رسائل تصوّر ما كان من النزاع بين العرب والبربر فى الأندلس . ودراسة ما كان بين هذين العنصرين من الفتن والمنازعات باب من أهم أبواب التاريخ الأندلسى ، ولهـا كذلك نفع فى تحديد الاتجاهات الأدبية فى تلك البـلاد . والبربر يسمون «العبيد» أحيانا فى لغة ابن برد ، ولا نستطيع أن نفترض غير ذلك : لأنا لا نعرف عصبة ناوأت العرب فى الأندلس غير عصـبة البربر ، وقد كتب ابن برد على لسان سليمان بن الحكم عدّة رسائل الى من سماهم ابن بسام "جماعة العبيد" جاء فى إحداها :

---

(١) الذخيرة ج ١ ص ٤٩ (٢) ص ٥٠

" ولم تزل الأئمة مقبلة على مواليها مختصة لعبيدها تقدمهم فى الثقة، وتقربهم بالمودّة، وتعدّهم لحوادث الأمور، وتقذف بهم فى معضلات الخطوب، فيتولون من اجتهادهم لهم ما أوجب لهم منهم المحبة، حتى شرف القوم ونبلوا، وسما ذكرهم، ونسبوا الى مشهور أنسابهم، ومذكور بيوتاتهم ... وقد أفضى الأمر اليكم معشر الموالى، وهذا اسمكم وقد رفع الله عنكم العبودية به، وأخرجكم عن رق الملك، وصيركم منا، وخلطكم بنا، وأفضى بأنسابكم الينا، والولاء لحمة، ومولى القوم منهم، ملعون من آنتمى لغير أبيه، أو ادّعى غير مواليه، هذا حكم الاسلام، على لسانه عليه السلام. وأما حكم الدنيا وسيرة أهل السداد والصلاح فيها فلا يجزئ أيضا، إلا أن يكون ضلعكم معنا، وميلكم إلينا وتعصبكم لنا، فنحن أحق الناس بكم، وأجدر أن نعمل عمل آبائنا فى أمثالكم من مواليهم، فان نقمتم حالا فرقت الشمل، أو لقيتم أمرا صدع الجمع، فتلك الفتنة التى يعق فيها الابن أباه، و يقتل لها المسلم أخاه... ولعلنا فيما ساءكم من تلك الهنات، ونالكم من الفجعات، أوجع قلوبا، وأشد غموما، فسبحان من لو شاء لأطلعكم على غيبنا وعرفكم إشفاقنا عليكم. وكيف لا يكون ذلك كذلك، وما زلتم الشعار والدثار: لا نؤثر عليكم، ولا نثق إلا بكم، فان يكن الشيطان قد نزغ بما نزغ به بين آبنى آدم فمن بعدهما من ذريته فقد آن أن تثوب الحلوم: فتعود السيوف فى أغمادها، والنبال فى كنائنها. ونحن نعاهد الله أن لا نؤاخذ أحدا بذنب، ولا ننا له بعقوبة، ولا نطوى على إحنة، بل نعفو ونصفح "[1].

ونجد فى رسالة أخرى حديثا عن كتاب وجهه زعماء البربر الى سليمان يصرحون فيه بأن خلافة الأمويين مادامت إلا بطبقتهم، ولا عزت إلا بدعوتهم، ونجد ابن برد يمنّ عليهم باسم سليمان فيذكر أن طبقتهم لم تظفر إلا حديثا، وأن عددهم لم يكثر إلا قريبا، وأنه أدخلهم فى الدين وآستنقذهم من الضلالة، وأخرجهم من الكفر، ثم اصطنعهم ونوه بهم بالتصرف فى الخدمة[2]، الى أن يقول:

---

(١) الذخيرة ج ١ ص ٥٠ — ٥٣ (٢) راجع ص ٥٣

" وأقسمتم على أن من حبسناه من رؤسائكم كان أولى بالسياسة ، فأنّى لكم ذلك ؟ وإنما أنتم مدبّرون مسوسون ، وأتباع مربوبون ، وبناء التدبير نازح عنكم ، والسياسة القويمة محجوبة دونكم ، ومتى بلغكم عن عبد ثرب على مولاه فأفلح ، أو سمعتم بجند شغب على مدبريه فأنجح ، والله تعالى ودينه وخلائفه فى غنى عمن عند عليه وحاده ، وأنجر فى الاسلام وشاقه ، وخرج عن الجماعة ، وشق عصا الإمامة ، وآستخف بحقوق الأئمة ، ونازع الأمر أهله . ولولا أن أمير المؤمنين يعلم أن ملأكم لم يجتمع على هذا الكتاب ، وأن أهل السداد منكم لم يرضوا هذا الخطاب ، لكان له فى ذلك نظر يقيم الأود ، ويعدل الميل... وآعلموا أن السداد والحلم والكظم من أخلاقه ، والرفق والأناة من شيمه ، فآقبلوا أدبه ، وانتفعوا بموعظته ، فلو كشف لكم الغطاء ، واجتلى عليكم الغيب ، لعلمتم أن أمير المؤمنين لا ينام عن مصالحكم ولا ينى فى منافعكم ، ولا يسعى إلا فيما يرد ألفتكم ، ويجمع كلمتكم "[1] .

وهذا كله كلام طيب ، ولكن أين دلالته على قوة ابن برد النفسية ؟ إنه كلام كسائر ما يسطر كتاب الدواوين ، فليس فيه اتجاهات فلسفية ولا اجتماعية أكثر مما كان يكتب عادة على ألسنة الأمراء والسلاطين ، وقد اتفق لابن برد أن يجهد نفسه فى الكلام عن معنى الرعية فلم يزد على أن قال :

" إن الرعية من السلطان بمكان الأشباح من الأرواح ، وصلاحها وفسادها متصلان ، ونماؤها ونقصانها منتظمان : إذ كانت الرعية عنصر المال ، ومادّة الجباية ، وفيهما قوام الملك وعز السلطان ، ورزق الأجناد التى بها يقاتل العدو ، وينصر الدين ، وتحمى الحرم "[2] .

وهذا أيضا كلام طيب ولكنه أقل مما سُبق اليه فى مثل هذه الشؤون .

٦ — وقد اقترن اسم ابن برد فى تاريخ الأندلس بكتابة العهد : عهد الخليفة المؤيد بالله هشام بن الحكم الأموى ، وكان لهذا العهد صدى فى كتب المتقدمين : فتحدث عنه ابن بسام والمقرى والقلقشندى وابن خلدون[3] . وليس لهذا العهد قيمة إلا من الوجهة التاريخية لما

(١) ج ١ ص ٥٣ (٢) ص ٥٤ (٣) يكفى ان تراجع نفح الطيب ص ٢٧٧ و ٢٧٨ ج ١

فيه من الدلالة على صولة العامريين وضعف الخلفاء ، ولكنه من الوجهة الأدبية والنفسية دليل على أن ابن برد كان من أتباع الغالب على أى حال . ألم يذكر على لسان هشام انه" بعد آطراح الهوى ، والتحرّى للحق ... وبعد أن قطع الأواصر ، وأسخط الأقارب ، لم يجد أحدا أجدر أن يوليه عهده ، ويفوّض اليه الخلافة بعده ، لفضل نفسه ، وكرم خيمه ، وشرف مرتبته ، وعلو منصبه ، مع تقاه وعفافه ومعرفته وحزمه ونقاوته : من المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، أبى المطرّف عبد الرحمن بن المنصور" .

ولم يقف ابن برد عند هذا ، بل استرسل فزعم ان ذلك القحطانى المتسلط هو الذى أشار اليه الحديث النبوى الذى يقول " لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه " فكان ابن برد على هذا من أنصار " التهريج " فى الوضع والتأويل !

٧ — ومن أسوأ ما وقع لابن برد كتابه عن المظفر حين قتل وزيره عيسى بن سعيد[1] وهو كتاب فاجر جاءت فيه هذه الكلمات :

" أيها الناس ! ان من علم منكم حالة الخائن عيسى بن سعيد بالمشاهدة ، ورأى النعمة عليه بالمحاضرة ، فقد اكتفى بما شاهد ، وأجتزأ بما حاضر ، ومن غاب عنه ذلك من عوامكم : لانتزاح منزل ، أو لاتصال شغل ، فليعلم أننا أخذناه من الحضيض الأوهد ، وانتشلناه من شظف العيش الأنكد ، فرفعنا خسيسته ، وتممنا نقيصته ، وخوّلناه صنوف الأموال ، وصيرنا حاله فوق الأحوال ، فلم يقم لله بحق ، ولاقابل إحسانه بصدق ، ولاعامل رعيتنا برفق ، ولاتناول خدمتنا بحق ، بل أعلن بالمعاصى ، واستذل الأعزة وذوى المروءة ، ونافرهم ، وأنس بأضدادهم ، ونبذ عهودنا ، وخالف سبُلنا ، وكدر على الناس صفونا ، حتى اذا ملكه الأشر ، وتمادى به البطر ، وعلت به الأمور ، وغره بالله الغرور ، حاول شق عصا الأمة ، وهد ركن الخلافة والأمانة ، بما احتجن من حرام المال ، واستمال من طغام الرجال ، فحجته نعمنا عنده ، وخصمته عوارفنا لديه ، وكشف لنا سر نيته حتى صرعه بغيه ، وأسلمه غدره ، وأخذه الله بما اجترم ، وأوبقه بما اكتسب ، فأعجلناه عن تدبيره ، وصار الى نار الله وسعيره " .

(١) راجع الذخيرة ج ١ ص ٥٥ — ٥٩

وإنما وصفنا هـذا الكتاب بالفجور لأن ذلك الوزير أُخذ للقتل من مجلس شرابه وكان فيه أبو حفص بن برد، ولو صدقنا ابن بسام لكان ذلك الوزير من صرعى التمائم والوشايات.

٨ — وخلاصة ما سلف أن ابن برد كان قوة أدبية ، وكان من كبار الكتاب فى دولة العامريين ولكن أدبه ضاع فى الدفاع عن الحق حينا ، والتزلف الى الباطل أحيانا . وكان لا يعرف ماياتى وما يدع : لأن ظروف السياسة لعهده لم تكن تمكن كاتبا ولا شاعرا من أن يكون أدبه صدى لخالص النية وطاهر الوجدان . وكان ابن برد كاتبا ووزيرا ، والكتابة والوزارة وسيلتان من وسائل الظلم والبغى عند من تغويهم منافع العيش ، وتضلهم أباطيل هـذه الدنيا الغَرور .

٩ — وهـذا الجانب النفعى هو الذى عرفناه أو عرفنا رسومه من ابن برد، لأن من ترجموا له لم يجدوا فيما يظهر غير بقايا من رسائله الرسمية، أما اللون الجميل من أدب الكتاب الذى يتحدث عن الاخوانيات وعن أنفس الكاتبين فى صدق وإخلاص فلم تبق منه بقية شافية، لأن الأدب السياسى كان طغى على ما سواه من ألوان الأدب فى تلك الأيام ، ولأن الشعر كان استبد أو كاد بالحديث عن سرائر النفوس ، ودقائق الأحاسيس، وما كان الناس ينتظرون أن يحدثهم النثر إلا عما يصدر عن الخلفاء والأمراء والوزراء من رقاع الإغراء والوعيد . وكذلك استذل الكتاب حينا لأهواء المسيطرين : فلم يكن أدبهم صورة لنفوسهم وقلوبهم وأذواقهم ، وإنما كان فى الأغلب صدى لجلجلة الاستبداد والطغيان . وآفة الأدب أن يكون صدى لغير ما يجيش فى صدور الكرام من نوازع الصدق واليقين .

٤ — أبو المغيرة بن حزم

١ — فى الأصل الفرنسى فصل عن أبى عامر بن شهيد. وكان لذلك الفصل أثر طيب فى تقويم الكتاب، لأن ابن شهيد من الأعلام التى لم يتنبه اليها المستشرقون الفرنسيون. أما الرجل الذى أتحدث عنه فى هذا الفصل فهو شخصية قوية جذابة لم يتنبه اليها أحد من الباحثين، ولم يُعرف عنها كثير ولا قليل، وهو ابن حزم! وهنا يلتفت القارئ باسما بسمة السخرية: لأن ابن حزم معروف، طبّق صيته الشرق والغرب، فلمسارع إذن بتقرير ما هدانا اليه البحث من أن "ابن حزم" يطلق على شخصين أحدهما معروف وهو أبو محمد على بن أبى عمر أحمد بن سعيد الفقيه الأديب، وثانيهما مجهول وهو أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم[(١)] الشاعر الكاتب، وهما من بيت واحد وابنا عم، ويمكن الحكم بأن أولهما أفقه وأعلم، وثانيهما أكتب وأشعر.

٢ — لم أجد من المصادر ما يغنى فى تحديد الزمن الذى عاشه أبو المغيرة بن حزم، ولكن من المؤكد أنه شهد سِرار القرن الرابع وفجر القرن الخامس، ومن أخباره أنه تولى الوزارة للمستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام[(٢)]، وربما كان السبب فى حموله أنه اعتبط[(٣)] شابا "ولو طال به مداه، لم يذكر معه سواه" كما قال ابن بسام، يضاف الى ذلك أن شخصية ابن عمه أبى محمد بن حزم طغت عليه فأغرقته فى لجج من النسيان. ومن عجيب المصادفات أن أبا محمد كان يتوقع له هذا الخمول، ذلك بأنه جرت بينهما مقارعات فكتب اليه أبو محمد يقول:

كفانى بذكرى الناس لى ومآثرى ومالك فيهم يا ابن عمىَ ذاكر

(١) أبو المغيرة بن حزم هو عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن (نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٨ طبع ليدن) وجاء فى النفح (ص ١٨٥ ج ١) أن أبا محمد بن حزم فارسى الأصل وليس من «بنى حزم» وهى أسرة عربية أندلسية.

(٢) قال المقرى فى الحديث عن المستظهر: "وكان قد رفع جماعة من الأتباع ذهب بهم العجب كل مذهب كأبى عامر ابن شهيد المنهمك فى بطالته، وأبى محمد بن حزم المشهور بالرد على العلماء فى مقالته، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم الغزل المترف فى حالته" نفح الطيب ج ١ ص ٣١٩ (٣) اعتبط بالبناء للمجهول: مات.

عدوى وأشياعى كثير كذاك من غدا وهو نفاع المساعى وضائر
ومالك فيهم من عدو فيتقى ولا لك فيهم من صديق يكاثر
وقولىَ مسموع له ومصدّق وقولك منبث مع الريح طائر
وانى وان آذيتنى وعققتنى لمحتمل ما جاءنى منك صابر

وقد أجابه أبو المغيرة بقصيدة لاذعة نكتفى منها بهذه الأبيات :

وغاصب حق أو بقته المقادر يذكرنى حاميم والرمح شاجر
غدا يستعير الفخر من خِيم خصمه ويجهل أن الحق أبلج ظاهر
ألم تتعلم يا أخا الظلم أننى برغمك ناه منذ عشر وآمر
تذلل لى الأملاك حر نفوسها وأركب ظهر النسر والنسر طائر
وأبعث فى أهل الزمان شواردا تؤلفهم وهى الصعاب النوافر
فان أثو فى أرض فإنىَ سائر وإن أنا عن قوم فانىَ حاضر

والذى يوازن بين هاتين القطعتين يتبين أن شعر أبى محمد يشبه شعر الفقهاء، وهو من رجال الفقه والأصول، وأن شعر أبى المغيرة يسمو به الى طبقات الفحول من الشعراء .

٣ — والواقع أن أبا المغيرة كان مفتونا بالدراسات الأدبية، ومصروفا عن الدراسات الفقهية، حتى لنجده يسخر من علوم ابن عمه فيقول :

" نسيت أبا محمد حاشيتك وشيعتك التى صرت رئيس مدارسهم ، وكبير أحراسهم ، تحدثهم عما كان فيهم من العبر ، وتخبرهم بما تعاقب عليهم من الصفاء والكدر ، فتارة عن السامرى والعجل ، وتارة عن القمل والنمل ، وطورا تبكيهم بحديث التيه ، وطورا تضحكهم بقوم جالوت وذويه ، حتى كأن التوراة مصحفك ، وبيت الحزان معتكفك " .

وهذا التعريض يذكرنا بما أخذ ابن شهيد على الجاحظ من الاهتمام بغرائب الزواحف والدواب[1] .

(١) راجع ص ٥٧ من هذا الجزء .

٤ — وليس هذا كل ما يميز ابنى حزم أحدهما عن الآخر فى اتجاه الأذواق، بل يحدّثنا ابن بسام بأن أبا المغيرة "كان أنبه من أبى محمد فى حضور شاهده، وذكاء خاطره، وحسن هيئته، وبراعة ظرفه، وجودة أدبه".

وتلك صفات كان يتميز بها الأديب على الفقيه فى أكثر الأحيان.

٥ — تدل أخبار أبى المغيرة ورسائله وقصائده على انه كان دقيق الحس فى اختيار أطايب الحياة، وفى كلامه فقرات فى الدعوة الى مجالس الأنس تذكر بأدباء الشرق كالميكالى وابن العميد، ولننظر كيف يقول:

"فالأرض قد نشرت ملاءها، وسحبت رداءها، ولبست جلبابها، وتقلدت سحابها، وبرز الورد من كمامه، واهتز الروض لتغريد حمامه، والأشجار قد نشرت شعورها، وهزت رؤوسها، والدنيا قد أبدت شموسها، وأماطت عبوسها، وكأنى بها قد أطلعت من كل ثمر ضروبا، وأبدت من جناها منظرا عجيبا، وان كنا لا نشارك فى تلك إلا باللسان لا بالعيان، وبالطرف لا بالكف، وللدهر قسم من أقسام اللذة، وصنف من أصناف الشهوة:

شهدنا إذ رأيناهم بأنا على اللذات فى الدنيا شهود"[1]

٦ — على أنه كان — كسائر من تغويهم شهوات الحواس — سيئ الظن بالناس، لأن الخلق لاتتكشف طبائعهم إلا لمن يأنس اليهم فى مجالس السلاف وملاعب الجمال، ومن أجل ذلك نراه ينظر الى العالم نظرة مُشرّبة بالتحفظ والكتمان، ويقرر أن فى الاحتماء حسم الداء، وأنْ لا عدو للانسان إلا نفسه، ولا حية ولا عقرب إلا جنسه، ثم يقول:

"وليس فى الحيوان أخبث من الانسان، فالاحتراس كل الاحتراس، والمعاشرة الجميلة للناس، لا تُلدَغنَّ من جحر مرتين، واذكر المثل السائر فى الملاعب بين وتدين، والعاقل من حمله كل بلد، ونفق عند كل أحد، وأعقل منه من عرف الناس، ولم يعرفوه، فاستراح من أجنبى متكلف، الى قريب غير منصف، ولم يفتقر إلا الى ربه، ولم يأنس إلا بنور لبه"[1].

(١) الذخيرة ج ١ ص ٧٤

وهـذه الفقرة تمثله كأحكم الحكماء لو كان الى السلامة من شر الناس سبيل . ولكنى ما أحسبه دعا تلك الدعوة الا بعد أن رأى وذاق كيف يكون الغدر والخيانة والعقوق ، لأن الحكماء لا يعظون إلا بعد أن تكوى أيديهم وتشتعل رؤوسهم وهم يقاسون ماتنطوى عليه صدور الأصحاب والألّاف والأصدقاء من مظلمات النيات ومنكرات الأغراض ، والطبيعة الانسانية لئيمة تبيح كل شر ، وتسـمح بكل بغيض من جنى اللؤم ممقوت ، ويكاد الرجل لا يلقى الشر إلا من أصفيائه ولا يجنى الشوك إلا حيث يغرس الأزهار والرياحين .

٧ — على أن له — مع سوء ظنه بالناس — كلمات تكشف عن تعلقه بأصدقائه ، وحنينه اليهم ، وعطفه عليهم ، فنراه يقول فى بعض رسائله :

"وما أعلم نائبة كفراقك أهدّ لمتن ، ولا نازلة كنأيك أجلب لحزن ، وما كنت أريم ربعك لو كان لى الخيار ، أو أبرح منزلك لو سامحتنى الأقدار[1]" .

ويقول من رسالة ثانية :

"وان رأيت تأنيسى بكتاب أجتلى منه وجوه البدور ، وجواهر النحور ، ودرر الثغور ، وأجتنى ثمر السرور ، وأرتع منه فى رياض العلوم ، مابين منثور ومنظوم ، نفّست خناق مشتاق ، وأنست من وحشة الفراق ، منفردا غريبا بحيث لا أخ كريم ، ولا صديق حميم ، فقد صرت ولا أحيل على الأثر بعد العين ، كما قال أحمد بن الحسين :

ما مقامى بدار نخـلة إلا كمقام المسيح بين اليهود"

وللقـارئ أن يلاحظ أن ما اخترناه من الرسالة الثانيـة يصرح بضجر أبى المغيرة وتبرمه بالوجود ، اذ يعيش منفردا غريبا بحيث لا أخ كريم ، ولا صديق حميم . وتلك غاية فى البؤس والشقاء لأديب لا غنى لروحه عن حلاوة المودة وعذوبة الوفاء .

٨ — وقد حمله ضجره على الاكثار من شكوى الزمان ، فتارة يشـكو غربة قومه فى الأندلس وانصراف أهل الشرق عن علومهم وفنونهم وآدابهم فيقول :

(١) الذخيرة ج ١ ص ٧٥

"لقد نادينا لو أسمعنا، وطرنا لو وقعنا، وما أشبهنا بالغريبة التي خيرها يدفن، وشرها يعلن، يتعب أحدنا نفسه، ويذهب حسه، ويعارض السيف بفهمه، والبحر بعلمه، والنار بذكائه، والزمان بمضائه، ونتائج فكره محجوبة، وبنات صدره غير مخطوبة، إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا، وان رأوا فضيلة وجموا لها ترحا"[1].

وتارة يتحدث عن بلائه بالناس فيقول :

«بانعكاس الزمان، انعكست أمثال البيان، كما روى عن الفتى المدعى للكتابة عند عمرو ابن مسعدة أنه عاياه بكتاب من صاحب البريد بخبر بقرة ولدت غلاما فأنشأ خطبة مفتتحها "الحمد لله خالق الأنام، فى بطون الأنعام" فجذب الرقعة من يده وبالغ فى إجزال صفده. واذا تأملت انقلاب الزمان، وما وقع لى مع فلان انقلبت الخطبة فصارت "الحمد لله خالق الأنعام، فى بطون الأنام" وكم قد كشفت عن عوراته، وما زالت مكشوفة، وعرفت بسوآته، وما زالت معروفة، إخبارا عنه، وتحذيرا منه، واعلاما بما يستره ذيله، ويشتمل عليه ليله، من قبائح يجلبها العار، ويكتبها الليل والنهار».

وأصرح من هذا قوله فى وصف غدرات الأيام :

"فحين شمخ بالظفر أنفى، واهتز لنيل الأمل عِطفى، والدهر يضحك سرا، ويتأبط شرا، وقد أذهلنى الجذل عن سوء ظنى به، وأوهمنى نزوعه عن ذميم مذهبه، أتت ألواه، وفسا ظَرِبانه، ونادى ليقم من قعد، ويتنبه من رقد، انما فترتُ تلك الفترة، ليكون ما رأيت عليك حسرة، وسمحت لك مرة، لتذوق عليها كأسا مرة، فرأيت وقد غطى على بصرى، وعقلت وكنت فى عمياء من ظفرى، وقلت هو الذى أعهده من لؤمه، وأعرفه من شؤمه : ما وهب الا سلب، ولا أعطى الا ساعة كابهام القطا، فياله من قادر ما ألأم قدرته، وذابح ما أحدّ شفرته".

---

(١) الذخيرة ج ١ ص ٦٥

٩ — وقد قاده هذا المزاج الى الإقذاع فى الهجاء. وله فى الذم فقرات مكشوفة يتقزز منها القارئ، وقد ختم إحدى أهاجيه بهذه العبارة "قبح الله زمانا يقرب الى اللئيم حصانا، والى الكريم أتانا" وربما كان أقبح أهاجيه ماقارع به ابن عمه أبا محمد بن حزم، كقوله يصف كتابا وصل اليه منه "معنى كصدأ الأسنان، ولفظ كنفحات الأكفان، وأعراض لا مدبّ فيها لسهم مقرطس، وأعلام لا وضح فيها لصبح متنفس، ورطانة تمجها الأسماع، وتخبو بها الطباع، فوقفت متبلدا، وعدت على نفسى وقريحتى مترددا، فقالتا أيها الانسان، لست بالنبى سليمان، متى وعدناك أن نفهمك كلام النحل، وسرار النمل؟ ألم نسلك بك شعاب الكلام فتغلغلت؟ ألم تسر فى صحرائه فأوغلت؟ ألم تجل فى ميدانه فسبقت؟ ألم تسر فى ظلمائه فأشرقت؟ هل أحسست بنكول جنان، أو قصور لسان، فيما نظمت كالعقود، على ترائب الفتاة الرُّود، ونثرت كالنجوم، فى صفحة الليل البهيم، فقلت: بلى! قالتا: فأعرض عن رطانة الزط، وصفير البط، ولا تعج على طلل بائد، ودار قد أتى الله بنيانها من القواعد! فقلت: لقد أسرفتما طاعنين، إن كاتب الصحيفة لندرة الزمان، ولعالم نوع الإحسان. إلا أنه ربما كذب العنوان. فأعدت النظر فاذا بك — أبا محمد — صاحبه! كتاب بنى على الظلم العبقرى، والبهتان الجلى، ومكابرة العيان، ومدافعة البرهان، قد طمس الله أنواره، وأظهر عواره، فجاء كالفلاة القوراء: لا ماء ولا شجر، والليلة الظلماء: لا نجم ولا قمر»[1].

وهذا التهاجى بين أبناء العم لا غرابة فيه، فان الأدب العربى يزخر بهذا النوع من تظالم الأقرباء: لأن ثائرة الحقد أشد ما تكون تأججا واضطراما بين الأقربين وهى عند العرب من أقوى بواعث الطموح الى المجد، ومن أشد الحوافز لإيقاد ما نحمد من جذوات النفوس والعقول. ومن هنا نرى أهاجى أبى المغيرة لابن عمه أمر وأقسى من أهاجيه لغيره، فانه يهجو ابن عمه بحفيظة وحقد على حين لا يخرج هجاؤه لغيره عن المزاح الثقيل، كقوله فى التهكم

(١) الذخيرة ج ١ ص ٧٨ وفى نفح الطيب ج ١ ص ٥١٣ فقرات من تهاجى هذين الكاتبين، فليرجع اليها القارئ إن شاء.

ببعض المتطببين : " وآشرح لى خبر فلان، وأين بلغ من تكسبه، وحيث آنتهى من تطببه، وكيف ظروفه وخزائنه، ولعوقاته ومعاجنه؟ وهل ينفذ طبه، وينفق حبه؟ وصف لى مايقوله على المـاء، ويبديه من الأدواء، وأهد الىّ ما ينقه من المقال، على الكبد والطحال، ويرقشه من الكلام، فى الفالج والزكام، فالحمد لمن قرن له ذلك الى القيام، بشريعة الاسلام، والتمهر فى الأحكام، ومعرفة الحلال والحرام، والفلج عند الخصام[1] " .

١٠ — ومع أن أبا المغيرة من الشـعراء الفحول فانا نراه يتخـذ النثر أداة للتعبـير عن الأبواب الخاصة بالشعر كالغزل والمديح وهو فى ذلك يحاكى بديع الزمان الذى يحرص أشـد الحرص على أن يؤدّى بالنثر كل ما يؤدّى بالقصـيد . وإنما خصصنا بديع الزمان بالذات لأنا نرى فى نثر أبى المغيرة نفحة همذانية . ويكاد الرجلان يتشابهان، لولا جزالة ابن حزم ورقـة بديع الزمان . والظاهر أن رسائل الهمذانى كانت وصلت مسرعة الى الأندلس، وآطلع عليها المتأدّبون هناك، والى القارئ رسالة لأبى المغيرة تمثل روح الهمذانى أصدق تمثيل :

" فكم ليث كان فى غابة سمعت صريف أنيابه، وقفر أنست فى ييابه، الى عواء ذئابه، لاأمر إلا بالنص المستلب، ولا ألقى غير الحارب المنتهب، والشعار عندالنائبه ألقاها فأتخطاها، والنازلة أراها فأتعداها، قول أبى الطيب :

فان أسلم فـا أبقى، ولكن سلمت من الحِمام الى الحِمام

وأنا أرقب من الزمان صنيعه، وأتوقع من الحمام وقوعه، وهو يذهب بى الى قبلة الآمال وأنا لا أصـدّق، ويسوقنى الى محط الرحال وأنا لا أحقق، ويؤم بى البحـر الذى لا تحصى فرائده، والغيث الذى لا يجدب رائده، حتى أدانى الى الحضرة العلياء، والمحلة الشماء، فكبرت إكبارا لمـا صرت اليـه، وهللت إعظاما لمـا سقطت عليـه، وعلمت أنى فى الحـرم الذى لا يضار جنابه، ولا يطار غرابه، ولا يخضد شجره، ولا يمنع ثمره، ولم ألبث ان نزلت باليفاع الخصيب، وتمكنت من الرشاء والقليب[1] " .

---

(١) الذخيرة ج ١ ص ٧٤ و ٧٥ والرشاء الحبل، والقليب البئر .

ولم يقف تأثره ببديع الزمان عند محاكاته فى المذهب والأسلوب ، بل تعدّاه الى معارضة ما اشتهر من رسائله ، فقد وضع الهمذانى رسالة شائقة فى إنسان جمع بين اللؤم والجمال ، ثم دالت دولة شبابه فعاد من الصاغرين ، وهى رسالة مشهورة اهتم بمعارضتها كثير من الكتاب آخرهم المرحوم الشيخ عبد العزيز شاويش ، والظاهر أنها بهرت أهل الأندلس فعارضها أبو المغيرة بن حزم برسالة طويلة نقتطف منها الفقرات الآتية :

" ورد كتابك ينشد ضالة ودّنا ، و يرقع خلَق عهدنا ، و يطلب ما أفاتته جريرتك الينا ، وذهبت به جنايتك علينا ، أيام غصنك ناضر ، وبدرك زاهر ، لا نجد رسولا اليك إلا نظرة تخرق حجاب الدموع ، ونفرة تقيم منآد الضلوع ، فان رمنا شكوى ينفث بها مصدورنا ، و يستريح اليها مهجورنا ، لقينا دونك أمنع سدّ ، وأقبح صدّ ، وأقدح زند ، وأبرح ردّ ، حتى إذا طفئت تلك النيران ، وآنتصف لنا منك الزمان ، بشعرات أعشت هلالك كسوفا ، وقلبت ديباجتك صوفا ، وأعادت نهارك ليلا ، وناحت عليك تلهفا وويلا ، وأطار حمامك غرابك ، وحجب ضياك ضبابك ، فصار عرسك مأتما ، وعاد وصلك محرّما :

وبت مداماً تسر النزيفا   فأصبحت تجرع خلا ثقيفا
وصرت مجازًا جديب المحل   وقد كنت للطالب الخصب ريفا

أقبلت تتسلل الينا لواذا ، وتطلب منا عواذا . قد أنساك ذل العزل عز الولاية ، وأولاك طمعا نسيانك تلك الجناية ، أيام ترشقنا بسهام لحاظك رشقا ، وتقتلنا بسيوف ألفاظك عشقا ، وتميس غصنا ، فتثير حزنا ، وتطلع شمسا ، وتغيب نفسا ، فالآن نلقاك بدمع قد جفّ ، ووجد قد كفّ . وعزاء قد أبّد ، وصبر قد غار وأنجد ، وننظر منك الى روض قد صوّح ، وسار قد أصبح ، وأعجم قد أفصح ، ومبهم قد صرح ... الخ[(١)] " .

١١ — نثر أبى المغيرة فى جملته متين رصين ، لولا ما يتطرق اليه أحيانا من قبح التعمل ، ودمامة التكلف ، وهو فى الأغلب مسجوع . وفى الذخيرة شواهد على تكلفه ، وهو تكلف ممضّ ، نكتفى بالاشارة إليه ، ولا نعرض له بتحليل ولا تلخيص . ومن المرجح أن تلك الرسائل المتكلفة كانت مما كتبه قبل أن ينضج ويسلس له البيان .

(١) الذخيرة ج ١ ص ٦٧

obeikandi.com

٥ - أبو الفرج الببغا

١ — الببغا هو عبد الواحد بن نصر المخزومى . وانما لقب بالببغا للثغة ظريفة كانت تزين لسانه ، نشأ فى نصيبين واتصل بسيف الدولة فى شبابه ، فلما مات صاحبه تنقلت به الأحوال بين الموصل وبغداد ، فنادم الملوك والرؤساء ، وقضى حياته مقسم الحظ بين النجاح والإخفاق : ينعم تارة ويشقى أخرى ، حتى وافاه حمامه لثلاث بقين من شعبان سنة ٣٩٨

قال الثعالبى : "وآخر ما بلغنى من خبره ما سمعت الأمير أبا الفضل عبد الله بن أحمد الميكالى يورده من ذكر التقائه معه عند صدره من الحج وحصوله ببغداد فى سنة تسعين وثلثمائة ورؤيته بها شيخا عالى السن ، متطاول الأمد ، نظيف اللبسة ، بهى الركبة ، مليح اللثغة ، ظريف الجملة ، قد أخذت الأيام من جسمه وقوته ، ولم تأخذ من ظرفه وأدبه ... ثم عرض علىّ القاضى أبو بشر الفضل بن محمد بجرجان سنة إحدى وتسعين كتاب أبى الفرج الوارد عليه من بغداد مشتملا من النظم والنثر على ما أثر فيه حال من بلغ ساحل الحياة ، ووقف على ثنية الوداع[1] " .

٢ — كان الببغا من أركان الحياة الأدبية فى زمانه ، ولكن المؤلفين لم يتحدثوا عنه إلا قليلا ، فكان من نتائج ذلك أن قلت المصادر التى تكفى لتعيين اتجاهاته الأدبية ، وإقلال المؤلفين من الحديث عنه يعيّن بعض صفاته ، لأن المؤلفين يهتمون فى الأغلب بتقييد مايصل اليهم من أخبار المشاغبين من الكتّاب والشعراء ، فأكثر من عرفت حالهم من رجال الأدب كانوا فى حياتهم رجال دسائس ومكائد وسفاهات : وأكثر ما يكونون من طبقات الوزراء أو أمناء الملوك والوزراء .

فإن ظفرت بكاتب خامل الذكر أو شاعر مجهول القدر فلا تنس أن تلاحظ أن هذا لم يكن إلا لأن ذلك المغبون كان فى حياته هادئ النفس قليل المطامع محدود الآمال . ومجموعة

(١) ص ١٤٧ ج ١ يتيمة الدهر .

ما وصل الينا من شعر الببغا و رسائله وقصصه تدلنا على أنه لم يتصل بملوك زمانه على نحو ما كان يتصل الصاحب بن عباد أو أبو الفضل بن العميد .

وانما كانت صلاته بالملوك والرؤساء عند الحدود الضيقة حدود السمر والأنس حول بساط السلاف .

٣ -- و إنا لنراه يدور حول شهواته وأغراضه النفسية فى أكثر ما أُثِرَ عنه من المقطوعات والرسائل والأقاصيص، بحيث نستطيع أن نقدر أنه كان لا يرجو من صلات الملوك والوزراء والرؤساء أكثر من أن ينضو عن نفسه ثوب الفاقه والإملاق ، وأن يكون فى يده من الذهب ما يقتنص به شوارد اللذات، وأوابد الأهواء :

وفى هذا الذى نقضى به تعليل لصفاء شعره الوجدانى، فقد كان شعر الببغا يُغَنَّى به وكان من مُتَع السامرين فى الشام والعراق، ولننظر كيف يقول فى محبوب رمدت عيناه :

بنفسىَ ما يشكوه من راح طرفه ... ونرجسه مما دهَى حسنه ورد

أراقت دمى ظلما محاسن وجهه ... فأضحى وفى عينيه آثاره تبدو

غدت عينه كالخد حتى كأنما ... سقى عينه من ماء توريده الخد

لئن أصبحت رمداء مقلة مالكى ... لقد طال ما استشفت بها مُقَلٌ رُمْد (١)

ولننظر كذلك كيف يقول فى محبوب فصده مبضع الطبيب :

بأبى الغائب الذى لم يغب عنى ... فأشكو اليه هم المغيب

باشرته كف الطبيب فلو نلـ ... ـت الأمانى قبلت كف الطبيب

فعلتْ فى ذراعه ظبة المبـ ... ـضع أفعال لحظه بالقلوب

فأسالت دما كأن جفونى ... عصفرته بدمعها المسكوب

طاب جدا فلو به سمح الدهـ ... ـر لأمسى عطرى وأصبح طيبى (١)

وهذه معان دقيقة لا يحسنها إلا من يفرغ لأمثالها من شعراء الوجدان .

---

(١) ص ١٩٥ ج ١ يتيمه .

وإنا لنتأمل فى شعره فنجده يرتقب فرص زمانه فيقول مثلا فى الورد والربيع والشراب :

زمن الـــورد أظرف الأزمان ... وأوان الربيـــع خير أوان
أدرك النرجس الجنىّ وفـــزنا ... منهما بالخـــدود والأجفان
أشرفُ الزهر زار فى أشرف الدهر ... فصِـــلْ فيـــه أشرف الاخوان
وآجلُ شمس العقار فى يد بدر ال ... ـحسن يخـــدمك منهما النيِّران
وأدرها عـــذراء وآنتهـــز الامـ ... ـكان من قبـــل عائق الإمكان
فى كئوس كأنهـا زهر الخشـ ... ـخاش ضمت شقائق النعمان
وآختدعها عنـــد البزال بألفـا ... ظ المثانى ومطربات الأغانى
فهى أولى من العـرائس إن زفَّـ ... ـت بعزف النايات والعيـــدان (١)

وللقارئ أن يتأمل آحتفاء الشاعر بالصهباء ودعوته الى آختداعها كما تختـدع العروس بالناى والعود .

٤ - ومما يؤكد أن أطماع الببغا من الاتصال بالملوك كانت طفيفة لا تعدو مطالب الرزق أن نراه يقول :

ما الذل إلا تحمـــل المنـ ... ـكن عزيزا إن شئت أو فهن
اذا اقتصرنا على اليسير فما العلـ ... ـة فى عتبنـا عـــلى الزمن (٢)

وفى هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

صحبت الدهر فى سهل وحَزن ... وجربت الأمور وجربتنى
فلم أر مذ عرفت محل نفسى ... بلوغ منًى يساوى حمل مَنّ
ولم تتضمن الدنيا لحظى ... منـال مســـرة إلا بحـزن
وليس علىّ غير الجـد فيما ... سعيت له لأستغنى وأغنى
فان أحرم فلم أحرم لعجـز ... وان أبلغ فنفسى بلغتنى (٢)

(١) ص ١٩٩ ج ١ يتيمه . (٢) ص ٢٠٠ ج ١ يتيمة .

وأدل من هذا على اهتمامه بالوجدانيات أن التنوخى يحدثنا أنه روى عنه قول سيف الدولة :

وقالوا يعود الماء فى النهر بعدما ... عفت منه أيات وسُدت مشارعُ
فقلت الى أن يرجع الماء جاريا ... وتعشب جنباه تموت الضفادع[1]

وحرص البيغا على رواية مثل هذين البيتين يمثل حسرته على أيامه السوالف ولياليه الخوالى .

٥ — وخلوص البيغا من مشاكل دنياه مكنه من أن ينظر الى أهل الأدب نظر العطف والإخاء . ومن شواهد ذلك شوقه الى رؤية أبى اسحاق الصابى ، وقد اتفق له أن زار بغداد والصابى معتقل منذ مدة طويلة فلم يصبر عنه فزاره فى محبسه ، ولكنه شغل عن معاودته فكتب اليه الصابى :

أبا الفرج آسلم وآبق وآنعم ولا تزل ... يزيدك صرف الدهر حظ اذا نقص
مضى زمن تستام وصلى غاليا ... فأرخصته والبيع غالٍ ومرتخص
وآنستنى فى محبسى بزيارة ... شفت كمدا من صاحب لك قد خلص
ولكنها كانت كحسوة طائر ... فواقا كما يستفرص السارق الفرص
وأحسبك آستوحشت من ضيق محبسى ... وأوجست خوفا من تذكرك القفص
كذا الكرز[2] اللماح ينجو بنفسه ... اذا عاين الأشراك تنصب للقنص
لخوشيت ياقس الطيور فصاحة ... اذا أنشد المنظوم أو درس القصص[3]

وقد أجابه البيغا بأبيات جاء فيها قوله :

فان كنت بالبيغاء قدما ملقبا ... فكم لقب بالجور لا العدل مخترص
وبعد فما أخشى تقنص جارح ... وقلبك لى وكر ورأيك لى قفص[4]

٦ — وما أحب أن تشغلنى الرغبة فى الايجاز عن إثارة بعض ما دار بين الصابى والبيغا من المراسلات ، ولأكتف بما كان بينهما من وصف "البيغاء" فإن صاحبنا أبا الفرج لما لقب

---

(١) ص ١٣٤ نشوار المحاضرة .
(٢) الكرز ، بضم الكاف ، الصقر .
(٣) ص ١٨٧ ج ١ يتيمة .
(٤) ص ١٨٨ ج ١ يتيمة .

بالببغا للثغته استطاع الصابى أن يحاوره محاورة طريفة فى وصف الببغاء فهو مثلا يعتذر عن إهماله الرجوع اليه لزيارته فى السجن بقوله :

وأحسبك آستوحشت من ضيق محبسى وأوجست خوفا من تذكرك القفص

وللنظر كيف يقول فى وصف الببغاء :

أنعتها صبيحةً مليحة ناطقةً باللغة الفصيحة
عُدَّتْ من الأطيار واللسانُ يوهمنى بأنها انسانُ
تُنهى الى صاحبها الأخبارا وتكشف الأسرار والأستارا
سكّاء إلا أنها سميعة تعيد ما تسمعه طبيعة
وربما لُقّنت العضيهة فتغتدى بديهةً سفيهة
زارتك من بلادها البعيدة وآستوطنت عندك كالقعيدة
ضيفٌ قِراه الجوز والأرزُّ والضيف فى أبياتنا يعز
تراه فى منقارها الخلوق كلؤلؤ يلقط بالعقيق
تنظر من عينين كالفصّين فى النور والظلمة بصّاصين
تميس فى حلتها الخضراء مثل الفتاة الغادة العذراء
خريدةً خدورها الاقفاص ليس لها من حبسها خلاصُ
تحبسها ومالها من ذنب وإنما تحبسها للحب
تلك التى قلبى بها مشغوفُ كنيت عنها وآسمها معروف
نشرك فيها شاعر الزمان والكاتب المعروف بالبيان
وذاك عبد الواحد بن نصر تقيه نفسى عاديات الدهر[1]

وقد أجاب الببغاء على هذه الأرجوزة البديعة بأرجوزة أطول ولكنها تافهة لم يعجبنا منها إلا قوله فى الببغاء :

---

(١) ص ١٨٨ ـ ١٧٩ ج ١ يتيمة .

تزهى بدوّاج(١) من الزمرد ... ومقـلة كسبج فى عسجد
وحسن منقار أشمّ قان ... كأنما صيغ من المرجان
صيّرها انفرادها فى الحبس ... بنطقها من فصحاء الانس
تميزت فى الطير بالبيان ... عن كل مخلوق سوى الانسان
تحكى الذى تسمعه بلا كذب ... من غير تغيير لجد أو لعب
غذاؤها أزكى طعام رغدا ... لاتشرب الماء ولا تخشى الصدى
ذات شُعًى(٢) تحسبه ياقوتا ... لا ترتضى غير الأرزّ قوتا
كأنما الحبة فى منقارها ... حبابة تطفو على عقارها
إقدامها بأسها الشديد ... أسكنها فى قفص الحديد(٣)

٧ — وهذا الوصف وصف الببغاء الذى أجاد فيه الشاعران أتاحته لنا اللثغة أبى الفرج التى أبدع فى وصفها الصابى حين قال :

وما هجنتْ منك المحاسن لثغةٌ ... وليس سوى الانسان تلقاه ألثغا
أتعرفها فيما تقدّم خاليا ... لعير اذا ما صاح أو جمل رغا
فيالك حرفا زدت فضلا بنقصه ... فأصبحت منه بالكمال مسوّغا(٤)

واللثغة تكون أحيانا أملح من النطق الصحيح : فيكون النقص بها فضلا كما أشار الصابى وان كنا لا نرتضى بقية التمثيل .

٨ — ولا يفوتنا أن نقيد هنا أن شعر أبى الفرج تغلب عليه النزعة الوصفية وذلك يتصل بمذهبه فى النثر أشد آتصال ، وهو وإن لم يستطع مصاولة فحول القرن الرابع كالرضى والمتنبى وأبى فراس يبدع أحيانا ويروع حتى لنعده فى طليعة الشعراء . ولننظر كيف تتدفق الحياة فى قوله يصف قتلى الحرب :

فتركتهم صرعى كأنك بالظُّبا ... عاطيتهم فى الروع كأس مُدام

(١) الدواج على وزن رمان وغراب اللحاف الذى يلبس (قاموس) . (٢) الشعى كهدى خصل الشعر المشعان ، والشعوانة الجمة منه (قاموس) . (٣) ص ١٩٠ ج ١ يتيمة . (٤) ١٩١ ج ١ يتيمة .

متهاجرين على الدنو كأنما أنفتْ رؤوسهمو عن الأجسام[1]

وقوله يخاطب سيف الدولة ويذكر وقعة كانت له مع بنى كلاب وعفوه عنهم :

اذا آستلّك الجانون أغمدك الحلم وان كفك الإبقاء أنهضك العزم

ومن مختار هذه القصيدة :

ومن لم يؤدبهُ لفرط عتوه — إذا ما جنى — الإنصافُ أدبه الظلم

إذا العرب لم تجز آصطناع ملوكها بشكر تعاوت فى سياستها العجم

اعدها الى عادات عفوك محسنا كما عودتْها قبل أباؤك الشُّم

فان ضاق عنها العذر عندك فى الذى جنته فما ضاق التفضل والحلم[2]

وله أوصاف حية جدا تكاد تنطق بمعانى الموصوف، من ذلك قوله فى وصف معصرة :

ومعصرةٍ أنختُ بها وقرن الشمس لم يغبِ

نخلت قزازها بالرا ح بعض معادن الذهب

وقد ذرفتْ لفقد الكر م فيها أعين العنب

وجاش عباب واديها بمنهلّ ومنسكب

ويا قوت العصير بها يلاعب لؤلؤ الحبب

فيا عجبا لعاصرها وما يفنى به عجبي

وكيف يعيش وهو يخو ض فى بحرٍ من اللهب[3]

وقوله فى وصف الخيل على صهواتها الفرسان :

وكل بعيد قرب الخين نحوه سلاهبك الجردَ الخفافَ قريبُ

تباشر أقطار البلاد كأنها رياح لها فى الخافقين هبوب

تماشى بفتيان كأن جسومهم لحفتها فوق السروج قلوب[4]

---

(١) ص ١٦١ نثوار المحاضرة (٢) ص ٥٦ نثوار . (٣) ص ١٩٥ ج ١ يتيمة .
(٤) ص ٢٠٣ ج ١ يتيمة .

٦ - نثر أبى الفرج الببغا

١ — يمتاز نثر الببغا بعدة ميزات : أظهرها أنه يمثل عصره من الوجهة الفنية، ويمثل الكاتب فى ميوله الذوقية والوجدانية . فهو من جهة الصورة نثر مسجوع تغلب عليه الفطرة حينا ويسوده التكلف أحيانا . وهو من جهة الموضوع يتصل فى أكثر نواحيه بما يمس الكاتب من حيث هو رجل مودات ومجاملات، وقلّ أن يمثل صاحبه رجل فكرة اجتماعية أو فلسفية، على نحو ما نجد عند بعض كتاب القرن الرابع . ولذلك نقرأ نثر الببغا فى طمأنينة وسكون تتراءى أمام خيالنا أشباح المشاكل الطريفة التى تشغل بال الرجل المهذب الذى يحرص على مجاملة الأودّاء والأصدقاء والرؤساء، بدون أن يعنى كثيرا بما تصطرع حوله الأفئدة وتتصاول فى حماه العقول .

٢ — وأول ما يطالعنا من نثر الببغا هو رسائله الإخوانية، كما كان يعبر القدماء، وهى الرسائل التى بث فيها شوقه الى أصحابه وألّافه وإخدانه ، بطريقة وجدانية تقرب فى روحها من قصائد النسيب، كأن يقول :

"شوق المملوك إليه شوق الظمآن الى القطر، والسارى الى غرة الفجر"[1] .

أو يقول :

" شوق إليه شوق من فقد بالكره سكنه ، وفارق بالضرورة وطنه "[1] .

وقد يحاول تعليل صبره على بعد مودوده فيقول :

"ولولا أن المملوك يخمد نار الاشتياق، ويبرد أُوار الفراق، بالتخيُّل الممثل لمن نأت محلته، والتفكر المصوّر لمن بعدت شقته، لأُلهبت أنفاسه، وأسعرت حواسه، وهَمَتْ دموعه ، وأنقضت ضلوعه . والله المحمود على ماوفق له من تمازج الأرواح، عند تباين الأشباح"[1] .

(١) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٤٣

وله فى هذا المعنى الطريف كلمة مستجادة تهش لها النفس ، وتسكن إليها الروح ، وآنظر كيف يقول فى رفق أشبه بتناجى المحبين :

"إن تزايلت الأشباح ، فقد تواصلت الأرواح ، وإن نزحت الأشخاص وبعدت ، فقد دنت الأنفس وتقاربت ؛ فلا تُمِضُّ الفرقة وتؤلم ، وتنغص النوى وتكلم . وقد ينال بتناجى الضمائر ، وتحاور السرائر ، مالا تصل إليه الإشارة ، ولا تدل عليه العبارة ، إذ الأنفس البسيطة أرق مسرى ، وأبعد من الألسنة مرمى"(١) .

ونحن نفهم هذا : فقد نعيش على صلة الأرواح مع أصدقاء أقصتهم الليالى عيشا لانجده فى وجوه من نساكنهم ونلاقيهم صباح مساء . والودّ ود القلوب .

٣ — وفى رسائل الببغا تفسيرٌ لبعض الجوانب الاجتماعية ، وتأكيدٌ لما عرف عن العرب من بعض الخلال ، من ذلك رسالته فى التهنئة بمولودة : فهى تأكيد لما درج عليه العرب والهنود من بغض البنات . ولهذا نراه فى هذه الرسالة يقف موقف الواعظ لا موقف المهنىء ، فيقول :

"لو كان الانسان متصرفا فى أمره بارادته ، قادرا على إدراك مشيئته ، لبطلت دلائل القدرة ، وآستحالت حقائق الصنعة ، ودرست معالم الآمال ، وتساوى الناس ببلوغ الأحوال ، غير أن الأمر لما كان بغير مشيئته مصنوعا ، وعلى ما عنه ظهر فى الابتداء مطبوعا ، كان المخرج له الى الوجود من العدم ، فيما آرتضاه له غير متهم . ومولانا — أيده الله ! — مع كمال فضله ، وتناهى عقله ، وحِدّة فطنته ، وثاقب معرفته ، أجل من أن يجهل مواقع النعم الواردة من الله تعالى عليه ، أو يتسخط مواهبه الصادرة اليه ، فيرمقها بنواظر الكفر ، ويسلك بها غير مذاهب الشكر . وقد آتصل بى خبر المولودة ، كرم الله غرتها وأطال مدّتها ، وعرّف مولانا البركة بها ، وبلغه أمله فيها ، وما كان من تغيره عند آتضاح الخبر ، وإنكار ما اختاره له سابق القدر ، فعجب المملوك من ذلك وآستنكره ، من مولانا وأنكره : لضيق العذر فى مثله عليه . وقد علم

(١) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٤٤

مولانا أنهن أقرب الى القلوب، وأن الله تعالى بدأ بهن بالترتيب فقال جلّ من قائل ﴿يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور﴾ وما سماه الله هبة فهو بالشكر أولى، وبحسن التقبل أحرى، ولكم نسب أفدن، وشرف آستحدثن، من طرق الأصهار، والآتصال بالأخيار، والملتمس من الذكر نجابته، لا صورته وولادته، ولكم ذكرِ الأنثى أكرمُ منه طبعا، وأظهرُ منه نفعا، فمولانا يصوّر الحال بصورتها، ويجدّد الشكر على ما وهب منها، ويستأنف الآعتراف له تعالى بما هو الأشبه ببصيرته، والأولى بمثله، ان شاء الله تعالى[١] ".

ويظهر أن هذا النوع من التهانى كان من الموضوعات الملحوظة فى القرن الرابع، فقد عقد له الحصرى فصلا فى زهر الآداب. ومن طريف ما جاء فيه تفضيلا للأنثى على الذكر قول بعض الكتّاب:

" الدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها، والنار مؤنثة والذكور يعبدونها، والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية، وفيها كثرت الذرية، والسماء مؤنثة وقد حليت بالكواكب، وزينت بالنجوم الثواقب، والنفس مؤنثة وهى قوام الأبدان، وملاك الحيوان، والحياة مؤنثة ولولاها لم تُتصرف الأجسام، ولا عرف الأنام، والجنة مؤنثة وبها وُعِدَ المتقون، وفيها ينعم المرسلون[٢] ".

ويتصل بهذا المعنى ما آقترحه سيف الدولة على الببغا من الكتابة الى من تزوجت أمه وكان العرب يكرهون أن تتزوج أمهاتهم كرها شديدا. وقد آتفق لعمرو بن مسعدة أن سأله سائل: كيف تكتب لمن تزوجت أمه[٣]! وهذا دليل على أن كتّاب القرن الثانى كانوا يعدّون ذلك من فنون الانشاء. أما فى القرن الرابع فكان ذلك الفن ظاهرا أشد الظهور، وفصّل الكلام عنه مؤلف زهر الآداب: فذكر أن من الحق ما يستحسن تركه، ويستهجن عمله، وأشار الى أنه رأى من لا يحضر تزويج كريمته ويولى أمرها غير نفسه، وأنه عرف من تزوجت أمه

---

(١) صبح الأعشى ص ٦١ و ٦٢ ج ٩
(٢) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٥ الطبعة الثانية.
(٣) صبح الأعشى ص ١٤٥ ج ١

فعظم لذلك همه، وآنفرد عن أوِدّائه، وتوارى عن أصفيائه . حياءً من لقائهم، وكرها لتهنئتهم أو عزائهم . ثم بيّن نماذج ما يكتب فى مثل هذه الحال.(١) وإلى القارىء نص رسالة الببغا التى اقترحها سيف الدولة بن حمدان :

"من سلك اليك — أعزك الله ! — سبيل الآنبساط، لم يستوعر مسلكا من المخاطبة فيما يحسن الآنقباض عن ذكر مثله . وآتصل بى ما كان من خبر الواجبة الحق عليك، المنسوبة بعد نسبك اليها اليك — وفّر الله صيانتها — فى آختيارها ما لولا أن الأنفس تتناكره، وشرع المروءة يحظره، لكنت فى مثله بالرضا أولى، وبالآعتداد بما جدده الله فى صيانتها أحرى، فلا يسخطنك من ذلك مارضيه وجوب الشرع، وحسّنه أدب الديانة، ومباح الله أحق أن يتبع وإياك أن تكون ممن لما عدم آختياره تسخط آختيار القدر له، والسلام"(٢) .

ولايفوتنا أن نذكر أن الببغا تأثر فى رسالته هذه خطوات ابن العميد فى نفس الغرض، ولكن رسالة آبن العميد أكثر وحشيةً وأدل على كره العرب لتزوج الأمهات . وأى وحشية أخشن وأغلظ من أن يخاطب من تزوجت أمه بمثل هذه اللهجة فيقول :

"وهَنالك الله الذى شرح للتقوى صدرك، ووسّع فى البلوى صبرك، ما ألهمك من التسليم بمشيئته، والرضا بقضيته ... وجعل الله تعالى حده ما بجزعته من أَنَف، وكظمته من أسف معدوداً يعظم الله عليه أجرك، ويجزل به ذخرك، وقرن بالحاضر من آمتعاضك لفعلها، المنتظر من آرتماضك(٣) لدفنها، وعوضك من أسرّة فرشها، أعواد نعشها، وجعل ما ينعم عليك بعدها من نعمة، معرّى من نقمة، وما يوليك بعد قبضها من منحة، مبرأ من محنة"(٤) .

ونحن حين نصف ذلك بالوحشية متأثرون بروح العصر الذى نعيش فيه، ولو خلونا الى فطرتنا لرأينا ابن العميد يعبر عن نوازع إنسانية، ولا نقول شرقية، لأن الغيرة على الأمهات غيرة فطرية لا يسلم منها انسان ولا حيوان، فلنقف عند تدوين ما يدل عليه الأدب من مظاهر

(١) زهر الآداب ص ٦٢ و ٦٣ ج ٢ الطبعة الثانية . (٢) صبح الأعشى ج ٩ ص ٧٩
(٣) الارتماض : الحزن . (٤) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٣

الاجتماع والأخلاق وقفة النزاهة والحياد . وما خصصنا العرب والهنود بكره البنات إلا لظهور ذلك فى أدبهم ظهورا قويا[١] ، و إلا فقد استجوبنا الناس من جميع الأجناس فرأيناهم يؤثرون البنين على البنات . وما نحن على الفطرة الانسانية بمسيطرين .

٤ — ومن النواحى الطريفة فى نثر الببغا رسائله فى آستهداء الشراب . وكان هذا الفن من الكتابة مما يؤثره كتاب القرن الرابع ، ولهم فيه فقرات حسان تدل على فتوة القلوب ،وشباب الأرواح . وفى طى ذلك الآستهداء معنى لطيف : فقد كان المستهدى يشير غالبا إلى أن لديه "زائرين أعزاء" يسره أن يجمع شملهم حول بساط السلاف ، وقد يومىء إلى أن لديه (محبوبا) أسعده بزيارته وأنه يحب أن لايكون المجلس محروما من نفحة الصهباء . وآنظر ماذا يقول أبو الفرج سامحه الله :

"من كان للفضل نسبا ، ولفلك الفتوة قطبا ، لم تفزع القلوب من الهم إلا إليه ، ولم تعوّل الأنفس فى آستماحة المسارّ إلا عليه . وقد طرقنى من إخوانى من كان الدهر يماطلنى بزيارته ، وينفس[٢] علىّ بقربه ومشاهدته ، فصادفنى من المشروب معسرا ، و وجدت الانبساط فى التماسه من غيرك علىّ متعذرا ، والى تفضلك تفزع مروءتى فى الاسعاف منه بمـا يلم شعث الألفة ، ويجمع شمل المسرة . ويجعلنا لك فى رق الآعتداد بالمنة ، و يقضى عنى بتفضلك حقوق المودة[٣]".

وفى المعنى نفسه يقول من كلمة ثانية :

" ألطف المنن موضعا ، وأجلها من الأنفس موقعا ، ماعمر أوطان المسرة ، وطرد عوارض الهم والفكرة ، وجمع شمل المودّة والألفـة ، وأدّى الى آجتناء ثمرة اللذة . وبذخائرك من المشروب مع هذه الأوصاف مايسترقّ حُر الشكر ، و يحرز قصب السبق الى الثناء وجميل الذكر ، فإن رأيت أن تجد بالممكن منه مروءتى ، على قضاء حق مَن أوجب علىّ المنة بزيارتى ،فعلت[٤]".

---

(١) بغض العرب للبنات معروف وقد سجله القرآن ، أما بغض الهنود للبنات فيكفى فى بيانه قول مؤلف كليلة ودمنة "وكان يقال : إن العاقل يعد أبويه أصدقاء ، والأخوة رفقاء ، والأزواج ألفـاء ، والبنين ذكرا ، والبنات خصماء ، والأقارب غرماء ، و يعد نفسه فريدا" . (٢) ينفس : يحسد . (٣) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢٣

(٤) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢٣

obeikandi.com

وعلام يدل هذا النوع من الاستهداء ؟ يدل أولا على أن الشراب كان إذ ذاك مما تفرضه المروءة — كما يعبر أبو الفرج — فى السهرات الاخوانية ، ويدل ثانيا على أن الشراب لم يكن من الكثرة بحيث يجده الراغب حيث شاء، كما يقع ذلك اليوم فى أكثر الحواضر الشرقية ، وانما كان مما يدخره المترفون، حتى استطعنا أن نرى أكثر الأدباء يستهدونه ويمقون فى طلبه الرسائل الملاح . والاستهداء والاستجداء كلمتان متقاربتان فى الرسم والنطق المدلول[1] .

٥ — وهناك استهداء أظرف وأشرف : وهو استهداء الدواة والمداد، ونحن نعلم قيمة ذلك فى أنفس الكتاب . وقد استهدى الببغا دواة فقال :

" أنفس الذخائر وأشرف الآمال ما كان للفضل نسبا ، وللصناعة والحظوة سببا ، وبالدُّوىّ تجتنى ثمرة الصناعة، ويُجتلب دَرُّ الكتابة، وقد أوحش المملوكَ الدهر مما كنت أقتنيه من نفائسها، وضايقه فى وجود الرضىّ على الحقيقة منها، فان رأى مولانا أن يميط ببعض ما يستخدمه من حاليها أو عاطلها سمة عطلة المملوك، ويسمح بإهدائها الى أهل تصريفه، ويقابل بالنجح والتقبل رغبته، فعل، إن شاء الله تعالى[2] " .

واستهدى مدادا فقال :

"التنافس — أيدك الله ! — فى أدوات الكتابة وآلات الصناعة بحسب التفاخر فى ظهور النعمة، والتخير لبيان الإمكان والقدرة . وإلا فسائر الدوىّ سواء فيما تصدره الأقلام عنها، وتستمده بطون الكتب منها . وأولى آلاتها بأن تتوفر العناية عليه، وينصرف التخير بالضرورة اليه ، المدادُ الذى هو ينبوع الآداب، وعتاد الكتاب، ومادة الافهام، وشرب الأقلام ... ولا معدل بى عن استماحة خزائنك — عمرها الله ! — الممكن من جيده، فان رأيت أن تستنقذ دواتى من خمول العطلة، وتنزه قلمى عن ظمأ الغلة، وتكشف عنها سمة النقصان والخلة ، فعلت إن شاء الله تعالى[2] " .

---

(١) فى هذه اللفتة شىء من الحق ، وكل ما بين الكلمتين من الفرق أن الاستجداء يكون فيما يحتاج اليه المعوزون كالطعام وأن الاستهداء يكون فيما يحتاج اليه المترفون فى أذواقهم وان كانوا فقراء . (٢) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢١

ولنلاحظ أن الببغا لا يستهدى دواة كيف وقعت، ولا مدادا كيف كان، وانما يستهدى دواة (نفيسة) ولو كانت عاطلة، و يستهدى مدادا (جيدا) ينزه قلمه عن ظمأ الغلة، وهذا تعبير يتنفس عن شعر بليغ . وآختيار الدواة والمداد كان ولا يزال من أوضح الدلائل على أذواق الكتاب . وللدواة النفيسة والمداد الجيد تأثير قوى جدا فى بعث نشاط الكاتب . وكذلك تفعل الأقلام الجيدة . وهذا كلام فصلناه فى المقدّمة الفرنسية التى صدرنا بها (الرسالة العذراء) فليرجع اليه القارئ هنالك[1] .

٦ — وقد لاحظنا أن الببغا يكتب فى الموضوع الواحد غير مرة، وفقا للظروف . من ذلك رسائله فى التهنئة بالزواج[2] والتهنئة بولاية عمل[3] والتهنئة بالقدوم من سفر[4] والتهنئة بالمواسم والاعياد .

وهذا كله طبيعى ومقبول، ولكن الطريف أن يتكرر كلامه فى التهنئة بالصرف عن الولاية، فقد نفهم أن يهنأ المرء بولاية عمل، ولكنا لا نفهم كيف يهنأ بالعزل، وما ننكر أن يقع ذلك، ولكنه فى رأينا من التكلف المحجوج، و إن كان يدل على لباقة وذكاء . ولننظر كيف يحتال الببغا فى مثل هذه الحال :

" من حل محله — أيده الله تعالى! — من رتب الرياسة والنبل، كان معظما فى حالتى الولاية والعزل . لا يقدح فى قدره تغير الأحوال، ولا ينقله عن موضعه من الفضل تنقل الأعمال، إذ كان استيحاشها للفائت من بركات نظره، بحسب أنسها — كان — بما أفادته من محمود أثره[5] " .

" لو كان لمستحدث الأعمال ومستجد الولايات زيادة على ما آختصك به من كمال الفضل، ومأثور النبل، لحاذرنا انتقال ذلك بانتقال ما كنت تتولاه بمحمود كفايتك، وتحوطه

(١) وللقارئ أن يراجع كذلك ما أثبتـه صاحب زهر الآداب من (أوصاف آلات الكتابة والدوى والأقلام) ص ٢٢٩ و ٢٣٠ الطبعة الثانية .

(٢) أثبت له صاحب الصبح أربع رسائل ص ٥٤ و ٥٥ ج ٩

(٣) أثبت له مؤلف الصبح ثلاث رسائل ص ٢٢ و ٢٣ ج ٩ (٤) أثبت له أربع رسائل ٣٤ و ٣٥ ج ٩

(٥) الصبح ج ٩ ص ٧٧

بنواظر نزاهتك وصيانتك، ... فالأسف فيما تنظر فيه عليك لا منك، والفائدة فيما تتقلده بك لا لك : ولذلك كنت بالصرف مهنأ مسرورا، كما كنت فى الولاية محمودا مشكورا[1] " .

٧ — وهـذا الاستطراف لا يفارق الببغا : فقد كتب عدّة رسائل فى التهنئة بالشفاء من المرض، يدور أكثرها حول معنى واحد : هو أنه يشارك صـديقه فى العلة والشكوى . ويعجبنا من ذلك قوله :

" ما كنت أعلم أن عافيتى مقرونة بعافيتـك، ولا سلامتى مضافة لسـلامتك، الى أن تحققت ذلك من مشاركتى إياك فى حالتى الألم والصحة، والمرض والمحنة، فالحمـد لله الذى شرف طبعى بمناسبتك، وجمل خلقى بملاءمتك، فيما ساء وسر، وإياه تعالى أشكر على ماخصنى به من كمال عافيتك، وسبوغ سلامتك، وسرعة إقالتك[2] " .

ولكنا نبتسم حين نراه يهنئ صديقا بالمرض فيقول :

" فى ذكر الله سيدى بهذا العارض — أماطه الله وصرفه، وجعل صحة الأبد خلفه — ما دل على ملاحظته إياه بالعناية، إيقاظًا له من سـنة الغفلة، إذ كان تعالى لا يذكّر بطروق الآلام، وتنبيـه العظات، غير الصفوة من عباده، الخـيرة من أوليائه، فهنأه الله الفوز بأجر ما يعانيه، وحمل عنه بألطافه ثقل ما هو فيه[3] " .

ولكن لا عجب فالمرض والعزل من الطوارئ التى تحتـاج الى التلطف فى المواساة، وإخراجها مخرج التهنئة فيه طرافة تغرى بالعزاء .

٨ — وقد يتفق للببغا أن يكرر العبارات والألفاظ حين يعاود الكتابة فى موضـوع واحد كقوله فى التعزية :

" اتصـل بى خبر المصيبة : فجدد الحسرة، وسكب العبرة، وأضرم الحرقة، وضاعف اللوعـة[4] "

---

(١) الصبح، ج ٩ ص ٧٧ (٢) ص ٦٥ (٣) ص ٧٦ (٤) ٩٦

فنراه يعيد هذه التعابير فى كلمة ثانية فيقول :

" اتصل بى خبر المصيبة : فأضرم الحسرة ، وسكب العبرة ، وقدح اللوعة ، وامترى الدمعة[١] " .

وله فى هذا عذره : فان اللغة محدودة ، و بعض المعانى يعسر الافتنان فى تلوينها أحيانا . على أنه استطاع أن يخفى فقره قليلا حين قال (أضرم الحسرة) مقابل (جدد الحسرة) وقال (قدح اللوعة) مقابل (أضرم الحرقة) وان كان كرر (سكب العبرة) بلفظها فى الرسالتين .

وكذلك كرر المعنى والعبارة فى قوله تعزيةً لصديق :

" أحسن الله فى العزاء هدايته ، وحرس من فتن المصائب بصيرته[٢] " .

وقوله :

" وحرس يقينك من اعتراض الشبهة ، وأحسن الى جميل الصبر هدايتك ، وتولى من فتن المحن رعايتك[٣] " .

و يلاحظ مثل ذلك فيما كتب من رسائل الاعتذار[٤] والتهنئة بالمنزل الجديد[٥] ، وان كان فى هذا يكرر المعانى أكثر مما يكرر الألفاظ .

٩ — لقد ضاعت رسائل الببغا ولم يبق منها إلا القليل ، وما حفظه منها القلقشندى غير موشح بالشعر ، ولكن ما حفظه الثعالبى رصّع بالمستجاد من أبياته الحسان ، حتى نجده يترجم لرسائله فيقول :

" فصل فى بيان غرر من رسائله الموصولة بمحاسن شعره "

لهذا نرجح أن يكون القلقشندى اختصر ما اختار من رسائله فأسقط ما وصلت به من الشعر البليغ ، ونرجح أن يكون الغالب على نثره أن يرصع بالشعر على عادة بعض الكتاب من الشعراء . والى القارئ نموذجا من رسالة له فى مدح سيف الدولة[٦] .

(١) ٩٧ (٢) ٩٦ (٣) ص ٩٧ (٤) ١٧٠ ، ١٧١ (٥) ٧٢ ، ٧٣ صبح الأعشى ج ٩ (٦) راجع ما اختار صاحب اليتيمة من رسائله ص ١٨٢ — ١٩٢ ج ١

"الشجاعة أقل أدواته ، والبلاغة أصغر صفاته ، يُطرق الدهرُ اذا نطق ، وينطق المجد اذا افتخر ، فالآمال موقوفة عليه ، والثناء أجمع مصروف اليه ، نهض بما قعدت الملوك عن ثقله ، وضعف الدهر عن معاناة مثله ، بهمم سيفية ، وعزائم علوية ، فرد شمل الدين جديدا ، وذميم الأيام حميدا ، بحق أوضحه ، وخلل أصلحه ، وهدى أعاده ، وضلال أباده .

فلا آنتزع الله الهدى عز بأسه ولا آنتزع الله الوغى عز نصرهِ
وأحسن عن حفظ النبي وآله ورعْيِ سوام الدين توفير شكره
فما تدرك المدّاح أدنى حقوقه باغراق منظوم الكلام ونثره

لأن أدنى نعمة تستغرق جميع الشكر ، وأيسر منة تفوت المبالغة فى جميل الذكر ... الخ .

١٠ — هذا ولا ننس أن نذكّر القارئ بأن فضل الببغا فى رسائله لا يقاس الى فضله و براعته فى نثره المرسل الذى دبج به قصصه الغرامية ، وقد حُفِظ له منها شاهد يعزّ على من رامه من أندى الكتاب قلما وأسماهم بيانا[١] .

(١) تجد هذا الشاهد فى باب «الأخبار والأقاصيص» بالجزء الأول من هذا الكتاب .

٧ - الصاحب بن عباد

١ — فى ذى القعدة سنة ٣٢٦[١] للهجرة ولد إسماعيل بن عباد فى الطالقان — وهى ولاية بين قزوين وأبهر — فى بيت معروف بالعلم والفضل، فهو آبن عباد بن العباس أحد المتفوقين فى عصره فى علوم اللغة والدين . وكانت الطالقان فيما يظهر من كلام ياقوت فى معجم البلدان من البقاع التى غلب على أهلها العلم وعرفت بالسبق فى فنون الآداب . ولسنا نعرف من بداية ابن عباد شيئا كثيرا[٢] ، ولكن يظهر من المصير الذى انتهى إليه أنه كان شابا ذكيا أعدّ نفسه لمنازل العظمة والجبروت . حدّث عن نفسه قال: حضرت مجلس ابن العميد عشية من عشايا شهر رمضان وقد حضره الفقهاء والمتكلمون للمناظرة، وأنا إذ ذاك فى ريعان شبابى ، فلما تقوّض المجلس وانصرف القوم وقد حلّ الإفطار نكرت ذلك فيما بينى وبين نفسى وآستقبحت إغفاله الأمر بتفطير الحاضرين مع وفور رياسته واتساع حاله ، واعتقدت أن لا أخلّ به إذا قمت يوما مقامه . وقد تم له ذلك فكان لا يدخل عليه فى شهر رمضان بعد العصر أحد كائنا من كان فيخرج من داره إلا بعد الإفطار عنده، وكانت داره لا تخلو فى كل ليلة من ليالى شهر رمضان من ألف نفس مفطرة فيها، وكانت صِلاته وصدقاته وقرباته فى هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها فى جميع شهور السنة[٣] .

٢ — وأوّل ماعرف من نباهة شأنه هو آتصاله بأبى الفضل بن العميد، فقد كان يخدمه خاصة، ثم ترقت به الحال إلى أن كتب لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه، ومؤيد الدولة

(١) هكذا ذكر ياقوت فى معجم الأدباء، وفى بغية الوعاة سنة ٣٢٤ (ص ١٥٦). (٢) فى بغية الوعاة انه كان فى الصغر اذا أراد المضىّ الى المسجد ليقرأ تعطيه والدته دينارا فى كل يوم ودرهما وتقول له تصدّق بهذا على أول فقير تلقاه فكان هذا دأبه فى شبابه الى أن كبر وصار يقول للفراش كل ليلة : اطرح تحت المطرح دينارا ودرهما لئلا ننساه .

(٣) ص ٣٦ ج ٣ يتيمة الدهر .

يومئذ أمير ، فلما مات ركن الدولة وولى مؤيد الدولة بلاده بالرى وأصبهان آستوزر ابن عباد وحكَّمه فى أمواله ، وكان لقبه الصاحب فى حياة أبيه أنساً به . فلما مات مؤيد الدولة أحضر الصاحب فخر الدولة أخا مؤيد الدولة — وقد كان هرب من أخيه عضد الدولة والتجأ الى الساسانية بخراسان — وملكه البلاد ، فأقرّ الصاحب بن عباد على أمره ، فبقى الصاحب نافذ الحكم تقدّم كلمته على كلمة فخر الدولة الى أن مات فى ٢٤ صفر سنة ٣٨٥

قال السيوطى فى بغية الوعاة[1] : ولى الصاحب الوزارة ثمانى عشرة سنة وشهرا لمؤيد الدولة بن ركن الدولة ابن بويه وأخيه فخر الدولة ، وهو أوّل من سمى الصاحب من الوزراء لأنه صحب مؤيد الدولة من الصبا وسماه الصاحب فغلب عليه هذا اللقب ، ولم يعظم وزيراً مخدومُه ما عظمه فخر الدولة .

ويظهر من كلام السيوطى أن فخر الدولة كان يعظم ابن عباد لفضله ، ونحن نرجح أنه كان يوقره آتقاء لشره !

٣ — كان تكوين الصاحب من الوجهة العلمية تكوينا جيدا ، فقد أخذ الأدب عن ابن فارس وابن العميد وسمع من أبيه ، وحدّث وقعد للإملاء ، وآزدحم الناس على درسه ، بحيث كان له ستة من المستملين[2] . أرسل إليه فى السر نوح بن منصور ملك خراسان يدعوه ليلق إليه مقاليد مملكته ويعتمده لوزارته ويحكمه فى ثمرات بلاده ، فكان فيما آعتذر به الصاحب أنّ نقل كتبه خاصة يحتاج الى أربعمائة جمل[3] . وأشعاره ورسائله تدل على أنه كان أعجوبة من أعاجيب زمانه وأنه كان من أوفى الناس حظا فى دقة الفهم وبراعة القول وسعة الآطلاع .

٤ — أما أخلاق الصاحب فكانت مذبذبة بين الحسن والقبح : كان كريما ولكن كرمه كان فخا ينصب لشياطين الشعراء والكتّاب . قال التوحيدى : قلت لأبى السلم نجبة بن على

---

(١) ص ١٩٦ (٢) بغية الوعاة ١٩٦ (٣) ص ٢٥ ج ٣ من يتيمة الدهر .

القوطانى الشاعر : أين ابن العميد من ابن عباد ؟ فقال : زرتهما جميعا وكان ابن العميد أعقل وكان يدّعى الكرم، وابن عباد أكرم ويدّعى العقل، وهما فى دعواهما كاذبان[1] .

وكان الصاحب مفتونا بنفسه لا يرضيه أن يعترف لغيره بفضل أو يوفّق سواه الى حق . قال يوما لجلسائه : ما صدر قول الشاعر :

* والمورد العذب كثير الزحام *

فسكتت الجماعة، فقال ابن الدارى :

* يزدحم الناس على بابه *

فأقبل عليه بغيظ وقال : ما عرفتك إلا متعجرفا جاهلا، أما كان لك بالجماعة أسوة[2] ! .

وورد إلى الصاحب رجل من أهل الشام فكان فيما استخبره عنه : رسائل من تُقرأ عندكم ؟ فقال : رسائل ابن عبد كان . قال : ومن ؟ قال : رسائل الصابى . وغمزه أحد جلسائه ليقول رسائل الصاحب فلم يفطن، ورآه الصاحب فقال : تغمز حمارا لا يحس[3] ! .

وكان الصاحب يحب الفخر وانتحال الفضائل التى ربما قصرعنها، كذلك يقول ياقوت، ويذكر فى تأييد ذلك أن الصاحب حدّث أنه عند دخوله الى بغداد قصد القاضى أبا السائب عتبة بن عبيد لقضاء حقه فتثاقل فى القيام له ، وتحفز تحفزا أراه به ضعف حركته وقصور نهضته، فأخذ الصاحب بضبُعه وأقامه وقال : نعين القاضى على قضاء حقوق إخوانه ! فخجل أبو السائب واعتذر إليه . والقصة وقعت لغير الصاحب ولكنه انتحلها لنفسه وحكاها فى مجلس أنسه فشاعت عنه[4] .

وسُمع الصاحب يقول : ما بقى من أوطارى وأغراضى إلا أن أملك العراق وأتصدّر ببغداد وأستكتب أبا إسحاق الصابى ويكتب عنى وأغيّر عليه[5] . وهى شهوة قاهرة أن يسيطر على الصابى أحد أعلام ذلك الزمان . والشواهد على ضعف عقل الصاحب وخلقه كثيرة جدا

(١) ٣٠١ ج ٢ ياقوت . (٢) ص ٣٠٠ ج ٢ ياقوت . (٣) ص ٣١٥ ج ٢ ياقوت .
(٤) ص ٣٣٨ و ٣٣٩ ج ٢ ياقوت . (٥) ص ٣٣٧ ج ٢ ياقوت .

يراها القارئ مبثوثة فى معجم الأدباء ، ولكن أكثر ما أخذ عليه مكتوب بقلم أبى حيان التوحيدى ، والتوحيدى غير عدل فى هذا الباب لأن كلامه على الصاحب كلام موتور يحمله حقده على الكذب والأفتراء، ومع هذا فقد قال التوحيدى عند ما قارب الفراغ من كتابه أخلاق الوزيرين الذى وضعه للحط من قدر ابن العميد وابن عباد : « ولولا أن هذين الرجلين كانا كبرى زمانهما ، وإليهما انتهت الأمور، وعليهما طلعت شمس الفضل، وبهما ازدانت الدنيا ، وكانا بحيث ينشر الحسن منهما نشرا ، والقبيح يؤثر عنهما أثرا ، لكنت لا أتسكع فى حديثهما هذا التسكع ، ولا أنحى عليهما بهذا الحدّ، ولكن النقص ممن يدعى التمام أشنع، والحرمان من السيد المأمول فاقرة، والجهل من العالم منكر، والكبيرة ممن يدعى العصمة جائحة، والبخل ممن يتبرأ منه بدعواه عجيب . ولو أردت مع هذا كله أن تجد لها ثالثا فى جميع من كتب للجبل والديلم الى وقتك هذا المؤرخ فى الكتاب لم تجد»[1] .

٥ — وما اختلقه التوحيدى على ابن عباد يدل على أمرين : الأول أن ابن عباد كان شخصية بارزة جدّا ، شطرت الناس شطرين فشطر عدو وشطر صديق ، فاستطاع ابن عباد لذلك أن يذكر وهو مفتون انه مدح بمائة ألف قصيدة عربية وفارسية[2] .

واستطاع التوحيدى وأضرابه من الطامعين الحاسدين أن يفتنّوا فى ذمه وثلبه وأن يجدوا آذانا تستطيب ما يقال فيه من الاثم والبهتان. الأمر الثانى تفوق أهل ذلك الزمان فى الهجاء. ففى ما كتبه التوحيدى شواهد كثيرة تدل على أنهم كانوا يعرفون كيف تكون السخرية وكيف يكون التعريض اللذاع . فمن ذلك ماعرضه التوحيدى فى التدليل على غرام الصاحب بالمدح وتهافت أصحابه فى إرضاء شهوته الى الثناء . قال : ولقد بلغ من ركاكته أنه كان عنده أبو طالب العلوى فكان اذا سمع منه كلاما يسجع فيه وخبرا يخفه يبلق عينيه وينشر منخريه ويرى أنه قد لحقه غشى حتى يرش على وجهه ماء الورد، فاذا أفاق قيل : ما أصابك؟ ما عراك ؟ ما الذى نالك وتغشاك ؟ فيقول : ما زال كلام مولاى يروقنى ويؤنقنى حتى

---

(١) ص ٣٠٢ و ٣٠٣ ج ٢ ياقوت . (٢) بغية الوعاة ١٩٦

فارقنى لبى، وزايلنى عقلى، وانشرحت مفاصلى، وتخاذلت عرى قلبى، وذهل ذهنى، وحيل بينى وبين رشدى . فيتهلل وجه ابن عباد عند ذلك ويتنفس ويضحك عُجبا وجهلا . ثم يأمر له بالحباء والتكرمة ويقدمه على جميع بنى أبيه وعمه[1] .

والتوحيدى بعد أن يقص هذا يقول : "ومن يخدع هكذا فهو بالنساء الرعن أشبه . وبالصبيان الضعاف أمثل" ونحن لانستبعد أن يقع ابن عباد فى مثل هذا الضعف الخلق، فان الرؤساء كثيرا مايؤخذ عليهم انحلال الخلق من هذه الناحية، وهم يغارون غيرة شديدة على نفوذهم ومكانتهم الاجتماعية، ويعملون خبثا أو جهلا على التحدث بمواهبهم والإشادة بما يزعمون أنهم انفردوا به من قوة البأس وفصاحة المنطق وذكاء الجنان . ولكن العجيب حقا هو هذه الصورة التى وضعها التوحيدى للتملق السخيف المرذول الذى يقع فيه المفلسون من الأتباع السخفاء .

٦ — ومن الصور التى وضعها التوحيدى لغرور ابن عباد القصة الآتية :

"ناظر ابن عباد بالرى اليهودىَّ رأس الجالوت فى إعجاز القرآن، فراجعه اليهودى فيه طويلا حتى احتد وكاد يتقد، فاحتال اليهودى فى مخاتلته وقال :

أيها الصاحب ! لم تنقد وتستشيط وتلتهب وتختلط ؟ كيف يكون القرآن عندى آية ودلالة ومعجزة من جهة نظمه وتأليفه . فان كان النظم والتأليف بديعين وكان البلغاء فيما تدعى عنه عاجزين وله مذعنين فهأنا أصدق عن نفسى وأقول ما عندى : إن رسائلك وكلامك وفقرك وما تؤلفه وتباده به نظما ونثرا هو فوق ذلك، أو مثل ذلك وقريب منه، وعلى كل حال فليس يظهر لى أنه دونه، وأن ذلك يستعلى عليه بوجه من وجوه الكلام أو بمرتبة من مراتب البلاغة .

فلما سمع ابن عباد هذا فتر وحمد وسكن عن حركته وقال : ولا هكذا يا شيخ ! كلامنا حسن وبليغ وقد أخذ من الجزالة حظا وافرا، ومن البيان نصيبا ظاهرا، ولكن القرآن له

(١) ٣٠٤ ج ٢ ياقوت

المزية التى لا تجهل، والشرف الذى لا يخل ، وأين ماخلقه الله على أتم حسن وبهاء مما يخلقه العبد بطلب وتكلف .

وهـذا كله يقوله وقد خبا حميه وتراجع مزاجه وصارت ناره رمادا مع إعجاب شديد قد شاع فى أعطافه ، وفرح غالب قد دب فى أسارير وجهه لأنه رأى كلامه يبدو لليهود وأهـل الملل شبيها بالقرآن[1] .

فهذه أيضا صورة جميـلة من صور التوحيدى، وليس يضـيرها أن تكون مختلقة . فقد تكون صور الواقع أفظع من صور الأختلاق ، والمهم أن التوحيدى أعطانا على حساب ابن عباد صورة متقنة من صور الضعف واللؤم التى نراها غالبا فى الرؤساء المفتونين ، وربما كان الصاحب أقرب من غيره الى طهارة القلب لأنه يخدع ، وقد يخدع الكريم ، على حين نرى من الرؤساء من يطرب ويرقص لثناء أتباعه عليه، وفنائهم فيـه، ولكنه لا يزال يتشبث بأذيال التعقل فيدرك أنهـم يثنون عليـه راغبين أو راهبين، ويبيِّت لهم من الحقد والضغينة والكيد ماقد ينكشف عن قاصمة الظهر أو مُنـدية الجبين . وأمثال هؤلاء صغار فى أنفسهم، إذ يحدث أحيانا أن يمدحهم الناس صادقين، فيظنون لهوانهـم على سرائرهم أن مايوجه اليهم من المديح ليس إلا ضربا من ضروب الختل والخداع .

٧ — وللتوحيدى مفتريات كثيرة على ابن عباد تدل على حذق بالغ وخيال عجيب، وقد أراد التوحيـدى أن يدارى تحامله فأضاف الى ابن عباد بعض الأجوبة المفحمة، فى شـؤون كثيرة، بعضها مما لاتصلح روايته، ومنها الفكاهة الآتية :

" قال قوم من أصبهان لابن عبـاد : لو كان القرآن مخلوقا لجـاز أن يموت ، ولو مات القرآن فى آخر شعبان بماذا كنا نصلى التراويح فى رمضان ؟ فقال ، لو مات القرآن كان رمضان يموت أيضا، ويقول : لا حياة لى بعدك، ولا نصلى التراويح ونستريح[2] ! " .

---

(١) ص ٢٩٧ بتصرف قليل . (٢) ص ٣٩٦ ج ٢ ياقوت .

وهـذه الفكاهة تمثـل روح الارتياب الذى كان يدب فى صـدور أهل ذلك العصر والتوحيدى هنا متسامح مع الصاحب لأنه يريد أن يصـل عن طريقه الى نشر هـذه النكتة برفق ولطف ، ولا ينس القارئ دقة الخيـال فى كلمة : لو مات القرآن فى آخر شعبان بماذا كنا نصـلى التراويح فى رمضان ! مع أن التراويح ليست كل شىء فى الاسـلام ، وانمـا أراد الكاتب أن يصل الى أن رمضان كان يموت ! ورمضان عند كتّاب القرن الرابع شىء ثقيل ، هجاه من بينهم بديع الزمان وأبو الفضل بن العميد .

٨ — ومن دلائل عظمة الصاحب أن المؤرخين أطالوا الخلاف فى تقرير فضله ، فبينما التوحيدى يلح فى ثلبـه وتنقصه والزراية به ، والإنحاء عليـه ، يقوم الثعالبى من جانب آخر فيقول فيه :

" ليست تحضرنى عبارة أرضاها للافصاح عن علو محله فى العـلم والأدب ، وجلال شأنه فى الجود والكرم ، وتفرده بغايات المحاسن ، وجمعه أشـتات المفاخر ، لأن همة قولى تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليـه ، وجهد وصفى يقصر عن أيسر فواضله ومساعيه ، ولكنى أقول هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد وغرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان ، ومن لا حرج فى مدحه بكل مايمدح به مخـلوق ، ولولاه ماقامت للفضـل فى دهرنا سوق ، وكانت أيامه للعلوية والعلماء ، والأدباء والشعراء ، وحضرته محط رحالهم ، وموسم فضلائهم ، ومترع آمالهم ، وأمواله مصروفة اليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، وهمته فى مجد يشيّده ، وإنعام يجدّده ، وفاضل يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه . ولمـا كان نادرة عطارد فى البلاغة ، وواسـطة عقد الدهر فى السماحة ، جلب إليـه من الآفاق وأقاصى البـلاد كل خطاب جزل ، وقول فصـل ، وصارت حضرته مشرعا لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، وثمـار الخواطر ، ومجلسه مجمعا لصوب العقول ، وذوب العلوم ، ودرر القرائح ، فبلغ من البلاغة ما يعـد فى السحر ، ويكاد يدخل فى حدّ الإعجاز ، وسار كلامه مسير الشمس ، ونظم ناحيتى الشرق والغرب ، واحتف به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يربى عددهم

على شعراء الرشيد، ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى، وملك رق المعانى، فانه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء المذكورين. الخ"[١].

وهنا مضى الثعالبى يسرد أسماء الشعراء والكتاب والخطباء الذين قدموا على الصاحب أو كاتبوه: كأبى الحسن السلامى، وأبى بكر الخوارزمى، وأبى طالب المأمونى، وأبى الحسن البديهى، وأبى سعيد الرستمى، وأبى القاسم الزعفرانى، وأبى العباس الضبى. الخ. الخ[٢].

٩ — ونحن لو تعقبنا من آتصلوا بالصاحب ممن ورد ذكرهم فى كتب الأدب لرأيناهم نحو المائة أو يزيدون من مشاهير الرجال الذين أثروا فى عصرهم وفيما تلاه من العصور أبلغ تأثير، ولهؤلاء الذين عرفوا الصاحب فرضوا عنه، أو غضبوا عليه، أثر كبير فيما نسب إليه من المناقب، أو حمل عليه من المثالب. ولهم كذلك أثر فيما عرف من طيشه، وغروره، وصلفه، وتحامله، أو بره، وجوده، وفضله، وتطوله، فان إقبال الرجال المشاهير على الرجل العبقرى يرهف حواسه ومشاعره، ويوقظ ما غفا فيه من كريم الشمائل، وسيئ الطباع. والانسان فى جملته مجموعة مختلفة من الحسن والقبح، والتسامى والإسفاف، وإقبال الدهر وإدباره يكشفان عن أسرار الغرائز والميول، وقلما تظهر محاسن الناس ومساويهم إلا حين يرتفعون، أو حين ينخفضون، أما الرجل الذى يعيش عيشة وسطا لا مجال فيها للزهو أو الحقد فانه يظل مستور النحائز والخلال، وكذلك تأثر الصاحب بحاشيته فاولع بالاغراب، وكلف بالظهور على معاصريه من الكتاب والشعراء، وجرت له مع قاصديه من أرباب الحاجات نكت سارت مسير الأمثال. فقد ذكروا أن بعض أصحابه كتب إليه رقعة فى حاجة، فوقع فيها، ولما وردت إليه لم يرفيها توقيعا، وقد تواترت الأخبار بوقوع التوقيع فيها. فعرضها على أبى العباس الضبى فما زال يتصفحها حتى عثر بالتوقيع وهو ألف واحدة، وكان فى الرقعة: "فان رأى مولانا أن ينعم بكذا فعل" فأثبت الصاحب أمام «فعل» ألفا، يعنى «أفعل»[٣].

---

(١) ص ٣١ و ٣٢ ج ٣ يتيمة. (٢) انظر ص ٣٢ ج ٣ (٣) ص ٣٨ ج ٣ يتيمة

وكتب بعض العمال رقعة اليه فى التماس شغل ، وفى الرقعة : "إن رأى مولانا أن يأمر بإشغالى ببعض أشغاله" فوقع تحتها : "من كتب إشغالى لا يصلح لأشغالى"[1] .

ورفع الضرّابون من دار الضرب قصة الى الصاحب فى ظلامة لهم مترجمة بالضرابين فوقع تحتها : "فى حديد بارد"[1] .

١٠ — وقد وصل به الإغراب الى أن يكتب فى معان بعيدة عما ألف الكتابة فيه من شئون العقل والوجدان . قال الثعالبى : "سمعت أبا جعفر الطبيب المعروف بالبلاذرى يقول إن للصاحب رسالة فى الطب لو علمها ابن قرة وابن زكريا لما زاد عليها ، فسألته أن يعيرنيها إن كانت عنده ، فذكر أنها فى جملة ما غاب عنه من كتبه ، فاستغربت واستبعدت ما حكاه من تطبب الصاحب ، ونسبته فى نفسى الى التزيد والتكثر الى أن ظفرت فى نسخة الرسائل المؤلفة المبوبة للصاحب برسالة قدّرتها تلك التى ذكرها أبو جعفر ووجدتها تجمع الى ملاحة البلاغة ، ورشاقة العبارة ، حسنَ التصرف فى لطائف الطب وخصائصه ، وتدل على التبحر فى علمه وقوة المعرفة بدقائقه"[2] .

والمهم فى هذا هو ارتياب الثعالبى فيما نسب الى الصاحب من التطبب وظنه أن ذلك قد يكون من التزيد والتكثر . ففى هذا اشارة الى أن الصاحب كان مبتلى بحاشيته يتقولون عليه الأقاويل . أما أنا فأرجح أن رسالة الصاحب فى التطبب لم تكتب الا معارضة للخوارزمى فى رسالة كتبها الى أحد تلامذته فى نفس المعنى ، وفى هذا دليل على أن الصاحب تأثر بمن اتصل به من الكتاب كما أثر فيهم .

١١ — وهنا ملاحظة لا بد منها : ذلك أن الخوارزمى والصاحب حين كتبا فى الطب استطاعا أن يقيما البرهان على أن الكاتب القدير يستطيع أن يضع المسائل الجافة فى لغة جميلة تفيض بالعذوبة واللين ، مع أن فى بعض الموضوعات خشونة طبيعية لا تألف لغة السجع والتورية والجناس ، واليك نموذجا من رسالة الصاحب الى صديق شكا اليه علة ألمت به :

---

(١) ص ٣٨ ج ٣ يتيمة . (٢) ص ٤٢ ج ٣ يتيمة .

"قد عرفت ماشرحه مولاى من أمره، وأنبأ عنه من أحوال جسمه، فدلتنى جملته على بقايا فى البدن يحتاج معها الى الصبر على التنقية، والرفق بالتصفية . فأما الذى يشكوه من ضعف معدته، وقلة شهوته، فلأمرين : أحدهما أن الجسم كما قلت آنفا لم ينق فتنفتق الشهوة الصادقة، وترجع العادة السابقة، والآخر أن المعدة اذا دامت عليها المطفيات، ولزّت بها المبردات، قلت الشهوة، وضعف الهضم، ومع ذلك فلا بد مما يطفى ويغذى، ثم يمكن من بعد أن يتدارك ضعف المعدة بما يقوى منها، ويزيل العارض المكتسب عنها ... والأقراص فى آخر الحميات خير ما نقيت به المعدة، وأصلحت به العروق، وقوى به الطحال، ليتمكن من جذب العكر، لا سيما والذى وجده مولاى ليس الذنب فيه للحميات التى وجدها، والبلدة التى وردها، فلو صادف الهواء المتغير جسدا نقيًّا من الفضول لما أثر هذا التأثير، ولا طوّل هذا التطويل ... الخ . وهى رسالة طويلة"[1] .

واليك قطعة من رسالة الخوارزمى الى تلميذ له وقد ظهر عليه الجدرى :

"هذه العلة وان كانت موجعة، وفى رأى العين فظيعة شنعة، فإنها الى السلامة أقرب، وطريقها الى الحياة أقصد، لأن عين الطبيب تقع عليها، ويد الممرض والمعالج تصل اليها، وإنما هى قرح نبهته الطبيعة، ودم أثارته الحرارة، وظاهر الداء أسلم من باطنه، وبارز الجرح أهون من كامنه، وهذه بعد علة تعم الأبدان، وتشمل الصبيان، واذا كانت العلة عامة كانت أكثر طبا ودواء، وأخف على القلوب أعباء، لأن النفس تستريح الى المشاركة وتأنس بالجماعة كما تستوحش من الوحدة . ولعمرى إنها تورث سواد اللون، وتذهب من الوجه بديباجة الحسن، ولكن ذلك يسير فى جنب السلامة للروح اللطيفة، والنفس الشريفة، وفى الشر خيار، ومن المحنة الى المحنة صروف وأقدار ... الخ"[2] .

وللخوارزمى رسالة أخرى طويلة كتبها الى بعض الأمراء وقد ورد عليه كتابه يشكو فيه الجرب، نقتبس منها الفقرات الاتية :

---

(١) أنظر الصفحات ٤٢ — ٤٤ ج ٣ يتيمة . (٢) ص ١٥٣ من رسائل الخوارزمى .

"... الجرب حكة مادتها يبوسة وحرارة ووقود والتهاب، زندهما الذى يقتبسان منه طعامٌ وشراب، وفضلة قذفتها الطبيعة الى ظاهر البدن، ودفع الله تعالى شرها عن الباطن، وعسكر من عساكر البلاء تمدّه القذارة، وتهزمه الطهارة، وتنقص منه البرودة والرطوبة، كما تزيد فيه اليبوسة والحرارة. ومن داوى ظاهره وترك باطنه، فانما يبل حائطا وراءه النار الموقدة، ويرش على سطح بيت فيه الشرر المبثوثة، ويقعد تحت قول الأول:

خليلىّ داويتما ظاهرا فمن ذا يداوى جوى باطنا

وكيف تقطع مادة نار تطفأ عن ظاهر الجسد، وهى تتوقد فى باطن الكبد ... أرى لسيدى أن يصبر على الجوع مع مرارته، وعلى العطش مع حرارته، وأن يقتصر من الطعام على مايكون فى أوسط طبقات الرطوبة، وفى أعدل موازين البرودة، ولابد من هجر اللحم والفاكهة ولا سبيل الى الحرافة. فأما البقول فيجب أن لا ترى ولو فى المنام، ولا تمس ولو بالأوهام، والسمك وما ناسبه بلية، واللبن وما خرج منه منية، ... وهذه علة تكسب صاحبها خزاية وحياء، وتورثه خجلا واسترخاء، ينظر الى الناس بعين المريب، ويتستر عنهم كتستر المعيب، تنفر عنه الطباع، وتستقذره النفوس، وتنبو عن مؤاكلته العيون، ...ولولم يكن من دقائق آفاتها، ومن عجيب هناتها، إلا أنها تشيخ الفتيان، وتمسخ الانسان، وتجعله أميا بعد أن كان غير أمى، وأعجميا وليس بأعجمى، تنفر من نفسه نفسه، وتهرب من فراشه عرسه، ويتباعد عنه أقرب الناس منه، لقد كانت جديرة أن يحتشد لدوائها، وتبذل الرغائب فى فنائها، ثم هى ربع من أرباع الخذلان، وقسم من أقسام الحرمان. قال الشاعر:

أعاذك الله من أشياء أربعة الموت والعشق والافلاس والجرب (١)

١٢ — ولو أن تلك الرسائل أُرّخت لاستطعنا أن نعرف أى الكاتبين أسبق الى الكتابة فى المعانى الطبية التى ظنها الثعالبى بعيدة عن متناول الكتاب. والصلة بين الصاحب والخوارزمى

(١) ص ١١٠ — ١١٢ رسائل الخوارزمى.

كانت قوية تسمح لأحدهما بأن يقف على ما يكتب الآخر ، وان كانت ضعفت بعد ذلك ، حتى كتب الخوارزمى الى الصاحب يعاتبه :

"...ولقد كانت أيامى بحضرة الوزير قصارا ، وكان ليلى بها نهارا ، وساعاتى فيها أسحارا ، كما أن أيام فراقه أيام طوال ، وليلة فراقه تعدّ بليال ، وانى بعد صبرى على فراقه لجلد على وقع سهام الهجر ، واسع المجال فى ميدان الصبر..." (١) الخ .

١٣ — ولم يقف الصاحب فى الإغراب عند حد معقول ، وانما مضى يغرب فى الصنعة شعراً ونثرًا ، فوضع قصيدة تبلغ سبعين بيتا خالية من الألف ، وهى أكثر الحروف دخولا فى المنظوم والمنثور ، مطلعها :

قد ظل يجرح صدرى من ليس يعدوه فكرى

وقد سارت هذه القصيدة ، واستمر الصاحب فعمل عدّة قصائد كل واحدة خالية من حرف من حروف الهجاء ، و بقيت عليه واحدة تكون معراة من الواو ، فأنبرى أبو الحسين الهمذانى وقال قصيدة ليس فيها واو ، ومدح الصاحب فى أثنائها . وأولها :

برق ذكرت به الحبائب لما بدا فالدمع ساكب
أمدامعى منهلة هاتيك أم غزر السحائب
نثرت لآلئ أدمع (٢) لم يفترعها كف ثاقب

وقد أخطأ المسيو ميتس (Mez) حين ظن أن الهمذانى الذى صنع هذه القصيدة هو الهمذانى صاحب المقامات (٣) . كلا ، فهذا على بن الحسين ، وذاك بديع الزمان أحمد بن الحسين .

والصاحب مسبوق فى هذا النوع من الانشاء ، سبقه واصل بن عطاء الذى تجنب حرف الراء فى خطبه وأحاديثه مع كثرة دوران ذلك الحرف فى الكلام . لكن ابن عطاء كان مضطرا لذلك ، إذ كان ألثغ ، أما الصاحب فيمضى فى هذا الفن صنعة وتكلفا ليكاثر معاصريه من

(١) ص ١٥٢ رسائل . (٢) ص ٢٢٣ ج ٣ يتيمة .
(٣) ترجمة المسيو روش الفرنسية التى تفضل فأعطانا نسخة منها قبل أن تطبع .

الكتّاب والشعراء . ومن المحتمل أن يكون الصاحب هو الذى أثار فى أبى العلاء فكرة التزام مالا يلزم، وهو نوع من التكلف أثقل به ديوان اللزوميات .

١٤ — قلت إن الصاحب كان شديد الرغبة فى آستعباد الكتّاب والشعراء، وقد نال من ذلك مبتغاه . ولكن المتنبي استعصى عليه وترفع عن مدحه والانتساب اليه . فأسرها الصاحب فى نفسه وأخذ يؤلب النقاد والكتّاب ضده ويحملهم على مهماجمته والنيـل من قدره . ويمكن الحكم بان الحملات التى هوجم بهـا المتنبي وهو حى كان أكثرها بتحريض الصاحب والمهلبي، وكلاهما كان يطمع فى انحياز المتنبي اليـه . وقد اشترك الصاحب بنفسـه فى مهاجمة المتنبي فكتب رسالة نقد بها شعره . وهى رسالة يغلب فيها التحامل، ولكنها مع ذلك رسالة قيمة، تدل على فهمه للشعر وبصره بالنقد . ذكر فى مقـدّمتها أنه كان يذاكر بعض المتأدبين فسأله عن المتنبي، فأجاب الصاحب : انه بعيـد المرمى فى شعره، كثير الإصابة فى نظمه، إلا أنه ربمـا يأتى بالفقرة الغراء ، مشفوعة بالكلمة العوراء . فهاج محادثه وانزعج ، وآدعى أن شعر المتنبي مُمَـتر النظام، متناسب الأقسام، ولم يرض حتى تحداه فقال : ان كان الأمر كما زعمت فأثبت فى ورقة ما تنكره، وقيد بالخطبة ما تذكره، لتتصفحه العيون، وتسبكه العقول .

قال الصاحب : ففعلت، وإن لم يكن تطلّب العثرات من شيمتى ، ولا تتبع الزلات من طريقتى . وقد قيـل : أى عالم لا يهفو، وأى صارم لا ينبو ، وأى جواد لا يكبو ، وانمـا فعلت ما فعلت لئلا يقدر هذا المعترض انى ممن يروى قبل أن يرَوِى، ويخبِر قبل أن يخبُر ، فآسمع وأنصت، وآعدل وأنصف، فما أوردت فيه إلا قليـلا ، ولا ذكرت من عظيم عيوبه إلا يسـيرا . وقد بلينا بزمن يكاد المنسم فيـه يعلو الغارب ، ومنينا بأعيار أغمار اغتروا بمادح الجهال، لايضرعون لمن حلب الأدب أفاويقه، والعلم أشطره، لا سيما على الشعر فهو فويق الثريا وهم دون الثرى ، وقـد يوهمون أنهم يعرفون فاذا حكموا رأيت بهـائم مرسنة، وانعاما مجفـلة .(١)

(١) ص ٢٢١ «الكشف عن مساوى المتنبي» .

وهـذه الفقرة تدل على أن الصاحب كان ضيق الصدر يؤذيه أن يذكر المتنبي بخير . فالمتنبي عنده رجل رفعه الزمن الجائر وأنصار المتنبي عنده أنعام لا يسمعون ولا يعقلون !

١٥ — وقد رأى الصاحب بعد ذلك أن يخبرنا أنه أعدّ للنقد عدّته : فجالس الشعراء، وكاثر الأدباء، وباحث الفضلاء، عشرين سنة، وأخذ عن رواة المبرد وكتب عن أصحاب ثعلب عشرين سنة أخرى . وذكر لنا بهذه المناسبة أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه أبو الفضـل بن العميد "فانه يتجاوز نقـد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات ، ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن " ثم مضى فى سرد الأحاديث التى وقعت بينه وبين ابن العميد فى نقد الشعر، الى أن قال : "وسمعته أيده الله يقول : إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ، ويبتدأ النسج، لأن حق الشاعر أن يتأمل الغـرض الذى قصده، والمعنى الذى آعتمده، وينظر فى أى الأوزان يكون أحسن استمرارا، ومع أى القوافى يحصل أجمل آطراد، فيركب مركبا لا يخشى انقطاعه والتياثه عليه"(١) .

ونحن نستجيد رأى ابن العميد فى تجاوز نقد الأبيات الى نقـد الحروف والكلمات ، ونرجح أن ابن شُهيد الأندلسى تأثر بهذا الرأى حين قال : " إن للحروف أنسابا وقرابات تبدو فى الكلام، فاذا جاور النسيب النسيب، ومازج القريب القريب، طابت الألفة، وحسنت الصحبة"(٢) .

١٦ — وليس يهمنا أن نلخص ذلك الكتاب ، فلنكتف بما قاله فى نقد قصيدة المتنبي فى رثاء أم سيف الدولة ليكون نموذجا لبقية المآخذ . قال الصاحب :

" ولقد مررت على مرثية له فى أم سيف الدولة تدل مع فساد الحس ، على سوء أدب النفس، وما ظنك بمن يخاطب ملكا فى أمه بقوله :

* رواقُ العز فوقك مسـبطرٌّ *

---

(١) ص ٨ (٢) ص ١١٨ ج ١ من الذخيرة لابن بسام . مخطوط .

ولعل لفظة الأسبطرار فى مراثى النساء من الخذلان الصفيق الدقيق . نعم هذه القصيدة يظن المتعصبون له أنها من شعره بمثابة «وقيل يا أرض ابلعى ماءك» من القرآن و «أصدع بما تؤمر» من الفرقان . وفيها يقول :

وهذا أول الناعين طرًا لأول ميتة فى ذا الجلال

ومن سمع باسم الشعر، عرف تردده فى انتهاك الستر .

ولما أبدع فى هذه المرثية واخترع قال :

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال

وقد قال بعض من يغلو فيه : هذه استعارة . فقلت : صدقت؟ ولكنها استعارة حداد فى عرس!

ولما أحب تقريظ المتوفاة والإفصاح عن أنها من الكريمات أعمل دقائق فكره ، واستخرج زبد شعره، فقال :

ولا من فى جنازتها تجار يكون وداعهم خفق النعال

ولعل هذا البيت عنده وعند كثير ممن يقول بإمامته احسن من قول الشاعر :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطِيبُ تراب القبر دل على القبر

وكان الناس يستبشعون قول مسلم :

* شلت وشلت ثم شل شليلها *

حتى جاء هذا المبدع بقوله :

وأفجع من فقدنا من وجدنا قبيل الفقد مفقود المثال

فالمصيبة فى الراثى أعظم منها فى المرثى[1] .

١٧ — وخلاصة القول أن الصاحب بن عباد كان من أعاجيب دهره، وأكتب أهل زمانه. وقد بقى من رسائله جزء فى المكتبة الأهلية بباريس[2] . وفى زهر الآداب ونهاية الأرب

(١) ص ١٢ (٢) فى دار الكتب المصرية نسخة فتوغرافية من هذا الكتاب .

و يتيمة الدهر ومعجم الأدباء قطع مختارة من رسائله . وهو يلتزم السجع أو يكاد ، وفى أكثر الأحيان يبدو نثره دون شهرته : لأن غرامه بالصنعة والزخرف يستهلك معانيه و يهوى به فى حضيض الغموض والتعقيد . وشعره وسط بين الجيد والردىء . ومهما احتال خصومه فى الحط من عقله وأدبه فلا يمكن نكران أنه كان من أظهر الشخصيات فى القرن الرابع ، وأنه رفع بجاهه ونفوذه وعبقريته طوائف كثيرة من المتأدبين كانت تمضى طعمة الفقر والخمول لولم يمسها يمنه و إقباله ولم تعتمد على بره الوافر وساعده المتين[1] .

(١) هذا الفصل أقصر من أن يحيط بأدب الصاحب بن عباد . وقارئ كتابنا يجد فى غير هذا الفصل جوانب أخرى من الصاحب تتم شخصيته التاريخية التى كانت من أظهر الشخصيات فى القرن الرابع .

obeikandl.com

٨ – أبو بكر الخوارزمى

١ — وهذه أيضا شخصية عظيمة من الشخصيات التى نهضت بالأدب العربى وشغلت الناس عدّة أجيال . والكاتب صاحب الشخصية فيما نريد هو الكاتب الذى يمتاز أسلوبه وتفكيره بخصائص ومميزات لا يمثلها كاتب سواه . وكذلك كان الخوارزمى فهو فى نثره عقل قوى يمتاز من العقول التى سبقته أو عاصرته . وليس معنى ذلك انه يفوقها جميعا . فهو دون ابن العميد فى سمو الغرض ، ودون بديع الزمان فى حلاوة التعبير ، ودون التوحيدى فى وفرة المحصول ، ولكننا نريد أن نقول إن له بلاغة خاصة تضمن له التفرد والاستقلال — والنبوغ الأدبى هو ذلك : فليس يطلب من الكاتب أو الشاعر أن يفوق جميع معاصريه ليوصف بالنبوغ . ولكن يكفيه أن يكون ينبوعا مستقلا يشعر الناس بوجوده الخاص ويحسون فقده إن حجب عنهم فيضه النمير . وقد كان الخوارزمى شاعرا ، ولكن ديوانه ضاع . ولم يبق من شعره إلا القليل ، فمن الصعب أن نعطى القارىء فكرة عن حياته الشعرية ، وان كان من السهل أن نجزم بأن نحوله فى الشعر كان أمرا مقضيا ، لأنه عاصر جماعة من الشعراء الذين لا يشق لهم غبار ، منهم الشريف الرضى والمتنبى والمعرى وأبو فراس . على أن ما أثر عنه من الشعر يدل على أن كتابته خير من شعره ، وأن شعره ليس بجيد وان لم يكن بردىء ، من ذلك قوله فى بعض الأصدقاء :

رأيتك إن أيسرت خيمت عندنا ... مقيما وان أعسرت زرت لماما

فما أنت إلا البدر إن قل ضوءه ... أغبّ وان زاد الضياء أقاما

وقوله فيمن يطلب الصهباء وهو بخيل :

يامن يحاول صرف الراح يشربها ... ولا يفك لما يلقاه قرطاسا

الكاس والكيس لم يقض امتلاؤهما ... ففرّغ الكيس حتى تملأ الكاسا (١)

(١) أنظر بقية شعره فى اليتيمة ج ٤ ص ١٢٧ — ١٤٨

فليس لدينا إذن ما يمثل شخصية الخوارزمى غير رسائله فلنكتف بها فى درس ماله من قوة التفكير ودقة الأسلوب .

٢ — لا نعرف بالضبط متى ولد محمد بن العباس الخوارزمى، أما موته ففيه خلاف، فمن قائل انه توفى سنة ٣٨٣ ومن قائل انه توفى سنة ٣٩٣[١] وسمى الخوارزمى لأن أباه من خوارزم. وقد أقام بالشام مدة وسكن بنواحى حلب ثم انتقل الى نيسابور فأقام بها الى أن مات. وكان الخوارزمى معروفا بقوة الحفظ . يشهد له بذلك أصدقاؤه وأعداؤه معا ، وانهم ليذكرون انه قصد الصاحب بن عباد وهو بأرجان فلما وصل الى بابه قال لأحد حجابه قل للصاحب : على الباب أحد الأدباء وهو يستأذن فى الدخول، فدخل الحاجب فأعلمه فقال الصاحب قل له : قد ألزمت نفسى أن لا يدخل علىّ أحد من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب، فخرج اليه الحاجب وأعلمه بذلك . فقال له أبو بكر: ارجع اليه وقل له : هذا القدر من شعر الرجال، أم من شعر النساء ؟ فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قال : فقال الصاحب : هذا يكون أبا بكر الخوارزمى[٢] .

٣ — ومن الواجب أن نقف قليلا عند هذه الكلمة إذ كانت تحتاج الى نقد : أفكان ممكنا حقا أن يجد الخوارزمى عشرين ألف بيت من شعر النساء ؟ أم هو غلو وإغراق من رجل عُرف بكثرة المحفوظ ؟ الظاهر ان فى هذه الكلمة شيئا من المبالغة فقد وجه نظرنا أستاذنا المرحوم محمد بك المهدى فى محاضراته بالجامعة المصرية (سنة ١٩١٦) الى أن علماء اللغة ورواتها لم يهتموا بأشعار النساء ، حتى ان الذين تخيروا الشعر الجيد منهم وجمعوه فى ديوان ليحفظ لم يريدوا أن يختاروا قصيدة لأمرأة لتكون بجانب قصائد الرجال ، وهذا أبو زيد القرشى قد اختار تسعا وأربعين قصيدة من القصائد الطوال ولم يجئ فيها بواحدة لأمرأة، لا من الجاهلية ولا من الاسلام ، وهذه المفضليات مائة وعشرون قصيدة وقطعة ليس فيها إلا خمسة أبيات لأمرأة مجهولة من بنى حنيفة . غير أن أستاذنا رحمه الله أشار فى الوقت نفسه الى أن

(١) ابن خلكان ص ٣٥٦ ج ٢ (٢) ابن خلكان ص ٣٥٥ ج ٢

المرزبانى جمع أشعار النساء فى كتاب حافل يوجد منه الجزء الثالث فى دار الكتب المصرية بخط أندلسى قديم مضى عليه نحو ثمانمائة سنة . وفى هذا دليل على أن الرواة شُغلوا أيضا بجمع أشعار النساء ، وان كان لا ينكر ان حظ المرأة فى الشعر العربى ضئيل ، حتى ليمكن القول بأن المرأة العربية لم تسم يوما الى منافسة الرجل فى الشعر ، وها نحن أولاء نعيش فى عصر من عصور النهضة فى اللغة وفى الأدب ، فأين الشواعر المجيدات ، وكم عددهن فى هذا الجيل ؟

ومهما يكن من شيء فقد كان لما حفظه الخوارزمى أثر كبير فى أدبه فقوى أسلوبه وتلون خياله وصار من أقدر الكتاب على الوصف ، ومن أعرفهم بضرب الأمثال .

٤ — أما حياته فأظهر مافيها حادثان : أولها اتصاله بالصاحب بن عباد وثانيهما مناظرته بديع الزمان .

واتصاله بالصاحب بن عباد يفسر لنا غرامه بالنيل من المتنبى والغض من شعره ، فهجومه على المتنبى لم يكن إذن صادرا عن نزعة فنية تحدوه الى كشف عيوب المتنبى ومساويه . ولكنه اندفع فى ذلك ترضية للصاحب ابن عباد الذى كان يحقد على المتنبى لترفُّعه عن مدحه ولإشادته بابن العميد . وأشد ما عرف من هجاء الخوارزمى للمتنبى قوله فى الرسالة التى كتبها الى الحاجب أبى إسحق لما نكبه الوزير ابن عباد :

"ونظرت الى أبى الطيب والى تناقض حكمته ، وتفاوت طرقَىْ فعلته ، حيث قال فى سيف الدولة :

لا تطلبنَّ كريما بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يدا ختموا

ثم قال فى كافور الإخشيدى :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

فلقد باع من الوفاء عِلقا خطيرا ، واعتاض من الطمع ثمنا يسيرا ، وحال ضباب الحرص والرجاء ، بينه وبين العهد والوفاء ، وكان يضايق نفسه فى اختيار المتاع ، ويسامحها فى اختيار

المبتاع، ويخلع خلعة من نظمه تساوى بدرة، على عرض من لا يساوى بعرة، ويزن كريمة من كرائم شعره، الى من لم تقم عنده كريمة، ولم تعرف له قيمة، لو رأى الطمع فى جحر فأر لدخله، ولو أتاه الدرهم من آست كلب لما غسله، فلا جرم أن الناس كما استحسنوا قوله، استقبحوا فعله، وكما أعجبوا بشعره، تعجبوا من غدره، يشكر ثم يشكو، ويمدح ثم يهجو، ويشهد ثم يجرح شهادته، ويعطى ثم يسترجع عطيته. وكم من حر فضّله ثم ثلبه؟ وكم من عرض كساه ثم سلبه؟ وكم من صحفة أكل منها ثم بصق فيها[1].

٥ — وهذه الكلمة نص فى أن الخوارزمى كان يعجب بشعر المتنبى ولا يعيب عليه إلا أخلاقه وتنقله من حال الى حال، وقد جرّه ذلك الى التغنى بخلقه هو، واحتفاظه بالود، ووفائه بالعهد، فقال " ولكن فى قميص أبى بكر رجلا اذا أعطى لم يرتجع، واذا طلق لم يراجع، واذا بنى لم يعد على بنائه بالهدم، واذا مدح لم يطأ على عقب مديحه بالذم، وإذا طيب فكيه بالمدح لكريم، لم يلطخهما بمدح للئيم، واذا زوج كرائمه كفؤا حجبهن أن يتبرّجن إلا لديه، ويجتليهن غير عينيه، وإنما الغدر من أخلاق النساء، فمن تعلق بطرف منه فقد رغب بنفسه عن كمال الذكران، وجذبها الى شق النسوان[2].

فالمتنبى مؤنث الخلق لأنه غادر، والخوارزمى مذكر الطبع لأنه وفىّ!

هكذا حكم الخوارزمى لنفسه بالنبل، وحكم على المتنبى بالخساسة، لأن المتنبى يتغير ويتبدّل، أما الخوارزمى فلا يتلون ولا يحول.

ولكن القدر شاء أن يعاقب الخوارزمى على بغيه الأثيم: فساءت الصلات بينه وبين آبن عباد فتحوّل عنه وشغل بذمه وقدحه بعد أن شغل بتمجيده والثناء عليه، وآستطاع أن يرمى ممدوحه بمثل هذا السهم المسموم:

لاتحمدنّ آبن عباد وإن هطلت ... يداه بالجود حتى أنجل الديما

فإنها خطرات من وساوسه ... يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما

---

(١) ص ٦ رسائل. (٢) ص ٧

وجرى فى الناس ذكر الخوارزمى بالتقلب والتحول حتى قال فيه أحمد بن شهيب :

أبو بكر له أدب وفضل ولكن لا يدوم على الوفاء
مودته اذا دامت لخل فمن وقت الصباح الى المساء

وأنشد الصاحب حين بلغه خبر موته :

أقول لركب من خراسان قافل أمات خوارزميكم قيل لى نعم
فقلت اكتبوا بالجص من فوق قبره ألا لعن الرحمن من كفر النعم!

وقد اتصل الخوارزمى بكثير من الرؤساء، ولكنا لا نعرف تفاصيل ما وقع بينه وبينهم ، وإن كانت طبيعة ذلك العصر تشير الى أن استقامة الخلق كانت نادرة ، وأن تبادل الضغائن والأحقاد كان من الظواهر الكثيرة الوقوع .

٦ — أما الحادث الثانى فهو مناظرته لبديع الزمان ، وهو حادث مشئوم قضى عليه ، ويرجع السر فيه الى دسيسة بعض الرؤساء المستوحشين منه ، والراغبين فى إسقاطه[1] والى مكر بديع الزمان ودهائه مع أنه كان لا يزال فى غرارة الصبا ، وغفلة الحداثة ، وذلك أنه فطن الى جانب الضعف فيمن يقودون الجماهير فى ذلك الحين ، وهو غلوهم فى التشيع فانطلق يبكى القتلى من أهل البيت ، ويستمطر الغضب والسخط على أعداء آل الرسول ، وكذلك اجتمع على الخوارزمى كيد أعدائه فى نيسابور ولؤم مناظره ومكره ، فعاد وهو مقهور "واتخذل اتخذالا شديدا وانكسف باله وانخفض طرفه ولم يحل عليه الحول حتى خانه عمره" كما قال ياقوت[2] .

وقد سُبقت تلك المناظرة بطائفة من الرسائل جرت بين الكاتبين مجرى العتاب ، وهى رسائل جيده تستحق الدرس ، كان بديع الزمان فيها يعد الحملة ويتأهب للنزال ، وكان الخوارزمى يقابل عتبه بأرق من النسيم فى بعض الأحيان ، وربما راجعه فذكر أن عتابه قبيح ولكنه حسن ، وكلامه لين ولكنه خشن "أما قبحه فلأنه عاتب بريئا ، ونسب الى الإساءة

(١) ياقوت ص ١٠٤ ج ١ . (٢) ١٠٦ ج ١

من لم يكن مسيئا، وأما حسنه فلألفاظه الغرر، ومعانيه التى هى كالدرر، فهى كالدنيا ظاهرها يغر، وباطنها يضر، وكالمرعى على دمن الثرى، منظره بهى، ومخبره وبى" وربما أنشده :

يابديع القول حاشا لك من هجو بديع
وبحسن القول عوذ تك من سوء الصنيع
لا يعبْ بعضك بعضا كن مليحا فى الجميع

وقد مضى الخوارزمى يلاين بديع الزمان فيذكر أن شريعة وده اذا وردها صافية، وأن ثياب بره اذا قبلها ضافية «هذا ما لم يكدر الشريعة بتعنته وتعصبه، ولم يخترق الثياب بتجنبه وتسحبه» وهنالك يذكر الخوارزمى أنه لا يقول :

وانى لمشتاق الى ظل صاحب يرق ويصفو إن كدرت عليه

فان قائل هذا البيت قاله والزمان زمان، والاخوان اخوان، وحسن العشرة سلطان، ولكنه يقول : وانى لمشتاق الى ظل :

رجل يوازنك المودة جاهدا يعطى ويأخذ منك بالميزان
فاذا رأى رجحان حبة خردل مالت مودته مع الرجحان

٧ — على أننا اذا تجاوزنا هذين الحادثين وأخذنا نتلمس شعور ذلك الرجل باعباء الحياة وجدناه يمشى مثقل الظهر بطائفة من التكاليف تذل لها نفسه ويجرح بها كبرياءه، ألسنا نراه يزور أبا الحسن عبد العزيز صاحب ديوان الرسائل طمعا فى بره، فيكون هذا عند ظنه، فيكتب اليه رسالة تجئ فيها هذه الفقرة التى تمثل بؤسه أبشع تمثيل :

"ومن أنقذ انسانا من الفقر، وآنتشله من مخالب الدهر، وفكه من إسار العسر، فقد أعتقه من الرق الأكبر، ونجاه من الموت الأحمر، والرق رقان : رق الملك و رق الهوان، والأسر أسران : أسر العدو وأسر الزمان[1]".

(١) ص ١٠٢ رسائل .

وقد ورد عليه كتاب من أحد تلاميذه ينبئه فيه بأنه عليل، فكتب الخوارزمى كتابا جاء فيه :

"وأظن أنى لو لقيتك عليلا لانصرفت عنك ، وأنا أعلّ منك ، فانى بحمد الله تعالى جلد على أوجاع أعضائى، غير جلد على أوجاع أصدقائى، ينبو عنى سهم الدهر اذا رمانى، وينفذ فىّ اذا رمى اخوانى، فأقرب سهامه منى، أبعد سهامه عنى، كما أن أبعدها عنى، أقربها منى"[1]

وهذه الفقرة تمثله جَلْدا صبورا ، ولكن الصبر والجلد لا يطلبان الا حين تشتد الكوارث وتقسو الخطوب .

وهذا الشعور باعباء الحياة أنطقه بالحكمة فى تعليل الحزن ، فهو من أسبق الكتاب الى الإفصاح عن علل العواطف والشهوات ، وانه ليحدثنا بأن الانسان حين يحزن للمصيبة تحل بغيره ، انما يحزن لأنه يرى بعينة أن سيكون له مثل ذلك المصير ، اذ كانت المآسى الانسانية كأسا تدور على الجميع . ولننظر كيف يقول وهو يعزى بعض الرؤساء فى شقيق له :

"ورد علىّ خبر وفاة فلان فدارت بى الأرض حيرة، وأظلمت فى عينى الدنيا حسرة، وملأ الوله والوهل قلبى وسواسا وفكرة، وتذكرت ما كان يجمعنى واياه من سكرى الشباب والشراب، فعلمت أنه شرب بكاس انا شارب من شرابها ، ورمى بقوس سوف ارمى بها، فبكيت عليه بكاء لى نصفه، وحزنت له حزنا لنفسى شطره"[2] .

٨ — وهذه الحيرة المطبقة التى كان يعانيها الخوارزمى بين احداث زمانه جعلته يتشاءم من صحبة من يقاسون إدبار الأيام ، ويتفاءل بالتعرف الى من ينعمون باقبال الزمان ، وهو يرى "أن من تعلق بذيل المقبل أقبل"[3] ويرى كذلك أن "أيام المحنة موج من تطاطا له تخطاه ، ومن وقف على طريقه أرداه، ومن قابل أيام الإدبار بوجهه صدمته ، ومن قاتل عساكر الإقبال فى أيام كرها هزمته"[4] وعنده أن " الاقبال يستر العيوب، والدولة تجعل البعيد قريبا ، والجد يرى المخطئ مصيبا، والمجدود يمس بيديه ، ما لا يراه المحدود بعينيه" وكلمتا الإقبال والإدبار

(١) ١٠٥ رسائل . (٢) ص ١٥ (٣) ص ١٠٣ (٤) ص ٩٨

يجدهما القارئ فى رسائله هنا وهناك : بحيث يمكن الحكم بأنه كان موسوسا من هذه الناحية . وفى هذا الوسواس شيء من الحق والصدق ، فكم من عقل ضاع ، وكم من عبقرية أخمدت وأفلت ، بانصراف المفكر العبقرى الى مناصرة فئة تحتضر ، أو الدفاع عن فكرة تهم بالأفول . وفهم الخوارزمى للحياة على هذا النحو الدقيق أملى عليه الحرص على الحكمة يسديها الى أصدقائه من حين الى حين ، من ذلك قوله فى سياسة النفس : " ومن غلبت شهوته على رأيه شهد على نفسه بالبهيمية ، وانخلع عن ربقة الانسانية ، وحق على العاقل أن يأكل ليعيش ، لا أن يعيش ليأكل ، وكفى بالمرء عارا أن يكون صريع مآكله ، وقتيل آماله ، وأن يحنى ببعضه على كله ، و يعين فرعه على أصله ، فكم من لقمة أتلفت نفس حر ، وكم من أكلة منعت أكلات دهر ، ولم من حلاوة تحتها مرارة الموت ، وكم من عذوبة خلفها بشاعة الفوت . وكم من شهوة ذهبت بنفس لا تقوى لها العساكر ، وقطعت جسدا كانت تنبو عنه السيوف البواتر ، وهدمت عمرا هدمت به أعمار ، وخربت بخرابه بيوت بل أمصار ... والمشتهى غاش لنفسه ، قليل البقيا على روحه ، وكيف يحفظ اصدقاءه ، من لا يحفظ اعضاءه ، وكيف يبقى على غيره ، من لا يبقى على نفسه ، وكيف يؤتمن على من لا يتمايز عنه ، من لا يؤتمن على بعض منه "[1] .

٩ — ولننتقل بعد أن ألممنا بشيء من حياة الخوارزمى ووقفنا على شيء من مطوى صدره ومكنون سره ، الى فنه الذى عرف به فى اجادة الانشاء ، ولنذكر أولا أنه دلنا على فهمه لسر البيان ، اذ قال فى احدى رسائله فى هجاء بعض معاصريه :

"واذا أردت أن تعلم أنى فى ذمك جادّ ، وفى مدحك لاعب ، وأنى فى الشهادة عليك صادق ، وفى الشهادة لك كاذب ، فانظر الى تهافت قولى اذ لاينتك وجاملتك ، والى اصابتى الغرض وحزّى المفصل اذ كاشفتك وصدقتك ، وذلك أن الصادق مُعانٌ ومأخوذ بيديه ، والكاذب مخذول مغضوب عليه"[2] .

---

(١) ١١١ ر ١١٢ (٢) ص ١٩٢

فسر البلاغة عند الخوارزمى يرجع الى الصدق، وهذا دليل على أنه كان مأخوذا بفنه مفتونا به، فلن يكون للشاعر أو الكاتب وصول الى سحر البلاغة وسر البيان الا اذا صدق، وفى الصدق وحده سر العبقريه والنبوغ، ومن هنا سقطت آثار المتكلفين من الكتاب والشعراء الذين سخروا أقلامهم وعقولهم، و باعوا ضمائرهم ونفوسهم، و رضوا بأن يكونوا أبواقا تردد أصوات الآمرين والناهين من أر باب الملك وأصحاب الجاه . وحين يصدق القلب والحس والعقل يصبح الأدب جذوة خالدة تلهب ما تمس من أوتار المشاعر والعو اطف والأحاسيس على مر القرون وتتابع الأجيال، واذ ذاك لا يقوّم الأدب بالأحجام والأو زان والمقادير كما يتوهم من يقيسون القصائد والرسائل والمؤلفات بالعرض والطول من أهل هذا الجيل، وانما يقاس نبوغ الكاتب وتوزن عبقرية الشاعر بما فيها من نار ونور، وما تحمل من عناصر القوة الخالدة التى تجعل ربها أبا وأخا وأستاذا و زميلا لكل من يمرون بعده بهذه الأرض مهما باعدت بينه و بينهم ظروف الزمان والمكان . فالصدق هو الهادى الأمين الذى يسير بنا فى اودية الغرائز الانسانية، فلا نعرف شر الزيغ ولا نقاسى ضر الضلال، وحين نصدق ونفنى فى الصدق نتغنى وادعين بأحلام الانسانية المبثوثه فى ضمير الوجود، فلا يغلق عنا سمع، ولا يعزف عن أغانينا أحد من الموفّقين، وانما تفتح لنا صدور الناس وقلوبهم وأرواحهم فنسكب فيها ما صدقنا فى الإيمان به من أصول الشر والخير، والظلمات والنور، والبر والفجور . فان الحياة كما تعلم، مجموعة من حلم الانسان وجهله ، وضلاله وهداه، والكاتب الانسانى هو الذى يصدق و يفنى فى صدقه حين يواجه ما فى الانسانية من مشا كل عقلية، وأزمات روحية، وثورات نفسية، ثم يتغنى بما فى الطبيعة الانسانية من نبل وسماحة و رفق و جمال، أو يصرخ مما فيها من شح ولؤم وجور وطغيان .

فانا لا أريد إذن بصدق الكاتب أن يكون مشغولا بالخير وحده لا يتغنى إلا به ، ولا يتحدث إلا عنه ، و إنما أريد أن لا يتكلم الكاتب أو الشاعر إلا صادقا ، يتغنى بالخير حين يؤخذ به ، ويتغنى بالشر حين يفتن به ، وفى صدقه السر كل السر فى فتح ما أُغلق من

سرائر النفوس وضمائر القلوب ، فليصدق الفنان : إن خيرا فخير، و إن شرا فشر، فإن الصدق أساس النبوغ . أما الكاتب المنافق فمصيره الى فناء، لأن النفاق أكبر مظهر من مظاهر الإخفاق، ولا ينافق إلا الضعيف المخبول الذى لا يشعر لنفسه بوجود خاص، ومن فقد شخصيته وآطمأن إلى الاعتماد على سواه فجدير به أن ييأس من أن يروى له قول، أو يوزن له رأى، أو يرجى لبهرجه بقاء .

١٠ — ونعود فنذكر أن الخوارزمى يضعف حينا و يقوى أحيانا ، يسمو و يحلّق حين يصدق، و يهوى و يسفّ حين يمين . وليس ضعفه بمحتمل ولا مقبول، لأنه يلتزم الصنعة والزخرف والسجع، فيبدو نثره الضعيف ثقيلا ممجوجا كالمرأة الفانية حين تتزين وتختال . ومن ذا الذى يسيغ قوله فى وصف رجل :

"إذا ناظره العربى صار أعجميا، و إذا ناظره الأعجمى صار عربيا ، و إذا رآه المعجب بنفسه طلق كبره، وفارق فخره، فهو رفيق الجود وخليله ، و زميل الكرم ونزيله ، وغرة الدهر وتحجيله ، حضرته حضرة الآجال والأموال ، لا بل حضرة الاقوال والأفعال ، لا بل حضرة الرجال، تنصب إليها موارد الرغبات، وتنشد فيها خيول الطلبات[1]" .

وأثقل من هذا و رود الجناس فى قوله من كتاب إلى محمد العلوى :

" أذكره و إن كنت لا أنساه، وألقاه بقلبى و إن كنت لا ألقاه، وأسأل الله تعالى أن يرينا سلامته سليمة ، وآستقامة أحواله مستقيمة ، فلا شئ أحوج من السلامة إلى السلامة، ولا إلى الاستقامة من الاستقامة[2]" .

والحرص على السجع فى مثل قوله : "لاتؤخر عمل اليوم إلى غد، ولا تمهل نفسك فى شغل السبت إلى الاحد[3]" فان كلمتى السبت والأحد لم تقعا هنا إلا آبتغاء السجع .

والقارئ يجد أمثال هذه الفقرات الضعيفة فى مواضع كثيرة من رسائله . وعذر الخوارزمى أنه حمل نفسه ما لا يطيق من التزام الصنعة والسجع فى جميع رسائله ، حتى فى الموضوعات التى لا تحتمل التكلف، فكان من الحتم أن يقع فى مهاوى الضعف والإسفاف .

(١) ص ١٠٠ (٢) ص ٩ (٣) ص ٤٤

١١ — والخوارزمى حين يجيد يسمو سموا عظيما، ويقدم من صور الجد والهزل ما يمتع النفس ويطرب الروح . وقد نراه يمزح فيستخفنا الطرب ونقبل عليه بنفس لعوب . وله كلمة ما قرأتها إلا تذكرت الصديق القديم الشيخ محمد عبد المطلب حين كان يخترق شوارع القاهرة على ظهر حمار، فقد اتفق للخوارزمى أن شكا وروده إلى بعض النواحى بعد ماقاس السير والسرى وخاض غمار المهالك والردى ونظر الى الآخرة وهو فى الدنيا. قال "وأول مامر بى سوء الدخول على ظهر الحمار، ومعاشرة الحمّار، على أن الحمّار أيضا حمار، إلا أنه قصير الأذنين، يمشى على رجلين، وكأنى كنت بين حمارين، إلا أنى كنت بين جنسين"[1] .

وله رسالة عن بستان ذكر أنه مرتع ناظره، ومتنفس خاطره، ومجال بصره، ومدار فكره، إذ ليست فيه زاوية إلا وقد صب عليه فيها كأس، ونام فى حافتها وجه صبيح، وتقلب فى أطرافها قدٌّ مليح . الى هنا يمضى الكلام فنتذكر به بعض ما قصه فرانك هاريس عن أوسكار ويلد، ولكن الخوارزمى يفاجئنا بأن بستانه ليس بذاك، ثم يقول "وإنما أذكر بُقَيعةً طولها باع، وعرضها ذراع، أعنى باع البقة، وذراع الذرة[2]، وأقل من لا، وأصغر من الجزء الذى لا يتجزأ، لو طارت عليها ذبابة لغطتها، أو دخلتها نملة لسدتها، تسقى بالمسعط صباحا، وتنكت بالخلال مساء، أشجارها مائة إلا تسعة وتسعين، وأنهارها خمسون إلا تسعة وأربعين"[3] .

١٢ — ولكن أمثال هذه الفكاهات تمرّ كالطيف فيما ترك ذلك الكاتب المجيد، فتلك فقرات تصيدناها من رسائله، وهيهات أن يكون لمثله طبع مرح وهو الذى قضى حياته يتعثر بين أحداث البؤس والهوان، فالفكاهة حين تقع تحت سنّ قلمه لا تزيد عن عبث الالفاظ، وتظل نفسه خامدة لا تطرب ولا تجذل ولا تعرف سرّ الدعابة ولا روح المزاح . ألسنا

---

(١) ص ١٠٣ (٢) ورد ما يشبه هذا فى كلام أبى الفتح بن العميد إذ قال : « وردت رقعة الشيخ أصغر من عنفقة بقه، وأقصر من أنملة نملة» (ص ٣٣٥ ج ٥ ياقوت و ٣٤٦ ثمار القلوب) . وقال الميكالى : كتابك أقصر من نبقة، وأصغر من بقة، وأخون من درة، وأخفى من ذرة (ص ٢٥٥ ج ٤ يتيمة). (٣) ص ١١

نستق أدبنا مما نرد من موارد الحياة ونقدم لقرائنا صورا من أنفسنا وعواطفنا ومشاعرنا وأشجاننا وأحزاننا؟ وهذا لا يمنع أن لبعض المحزونين فكاهة ودعابة ، غير أن الخوارزمى لم يكن من هؤلاء، فقد وقع بين قوتين تحولان دون حلاوة المزاح : الأولى عيشه الضيّق، والثانية مهنة التعليم . أما ضيق عيشه فقد عرفناه من تقلبه وحيرته بين أبواب الوزراء والرؤساء، وأما مهنة التعليم التى احترفها واكتوى بنارها وكابد ما تقضى به من التجمل والتوقر والاستحياء فقد عرفنا أخبارها من رسائله الكثيرة التى جرت بينه و بين تلاميذه . ومن عسى أن يكون أولئك التلاميذ ؟ إنهم فى الأغلب قوم ممن بسط الله لهم فى الرزق، واستطاعوا أن يغلّوا عنق ذلك الرجل بشىء من المال يقدمونه اليه ثمنا لعلمه وفضله . وتلك محنة نتصورها خطرة بشعة ونكاد نحكم بأن لأوزارها وأثقالها أثرا فى كبت ذلك الروح وحبسه فى حدود الجد والرزانة، وحرمانه من نسمات اللهو المباح .

١٣ — فاذا تركنا تلك الصور الفكاهية القليلة وانتقلنا الى جد الخوارزمى وجدناه جدا رصينا ينبئ عن نفس سامتها الأيام سوء العذاب ، وأول ما يطالعنا منه غيرته على الأدب وتوجعه لأن يراه مما ينال اللئام، وإنه ليذكر أن "البخل بالعلم على غير أهله قضاء لحقه ، ومعرفة لفضله" وأنه يغار على الأدب الكريم، من المتأدب اللئيم، وينشد فى ذلك :

وأرثى له من موقف السوء عنده كمرثيتى للطرف والعلج راكبه

و يود أن يكون الأدب فى جبهة الأسد ولو أصبحت الدفاتر فى أنياب الأسود، و يتمنى لو بيعت الورقة بدينار، أو كتب الدفتر بقنطار، فلا يتأدب إلا شجاع كمى، ولا يحرز الدفاتر إلا جواد سخىّ[1] .

وفى مثل هذه الصرخة دليل على أن الرجل كان يعانى آلاما كثيرة من معاصريه ، و يستكثر على فريق منهم أن يوسم بالأدب أو تصل يده الى كتاب نفيس ، وفيها كذلك إشارة الى قلقه من بعض الطبائع الدنيئة التى يورثها العلم والأدب ألوانا من العظمة البغيضة والكبرياء الممقوت،

(١) ص ١٠١

وهذا الصنف من المخلوقات هو الذى حمل بعض الناس على أن ينسب الى الرسول هذا الحديث الذى نراه يدور على ألسنة الجماهير «لا تعلموا أولاد السفلة العلم» وكذلك كان طلاب الشهرة فى عصر الخوارزمى يلجأون الى التحرش بالشخصيات الكبيرة ليتم لهم ما يبتغون من الظهور كما يفعل الخاملون فى عصرنا هذا حين يهاجمون النابغين والعبقريين طمعا فى أن تذيع أسماؤهم ويعرفوا بصحة الفهم، وقوة النقد، وسعة الاطلاع .

١٤ — ويظهر أن الخوارزمى ما زال يهاجم حتى وقع فى رُوعه أنه مغلوب . فله فقرات تشعر بجذله وجنونه من إقبال بعض الناس عليه، فقد طلب منه أحد معاصريه نسخة من رسائله فكتب اليه فى الجواب :

"طلب الشيخ نسخة من رسائلى فمرحبا بأنجح طالب، وأكرم خاطب، ومن سعادة الصهر كرم أختانه، ومن إقبال الكاتب والشاعر شرف من نظر فى ديوانه . ولو قدرت لجعلت الورق من جلدى، بل من صحن خدّى، والقلم من بنانى، والمداد من ماء أجفانى، ولأمليت هذه النسخة على السفرة البررة، ليكتبوه بيد العصمة، ويخلدوه فى بيت الحكمة، بل لو علمت أن مثل الشيخ يطلبه، وأن مثل يد الشيخ بسطها الله بالخيرات تكتبه، لحاسبت عليه بقلبى ولسانى أدق حساب، وطالبت شيطانى بتهذيبه وتنقيحه أشدّ طلاب، ولقلت لخاطرى دقق طرزك، وجود بزك، فان المبتاع كريم، والثمن عظيم، وقد قيل : الراوية أحد الشاعرين، وأنا أقول الراوية أحد الشعرين"[1] .

ويمكن أن يقال إن التواضع فى مثل هذه الفقرة مقصود لأنه أرسل ذلك الجواب الى رجل يرجو بره وهو أبو العباس كاتب محمد بن ابراهيم، ولأنه فى مواطن أخرى يتعالى فيقول فى عتاب أبى محمد العلوى : "إن قوما أنا أصغرهم لكبار، وإن أمة أبو ذرّ شرّها لخيار"[2] . ولكننا مهما قلبنا وجوه الرأى انتهينا الى أن الخوارزمى كان مضطرب القول فى تقدير أدبه

(١) ص ١٠٢ (٢) ص ٩٩

ووزن فضله، وهو فى ذلك معـذور لأنه كان يعيش من فيض قلمـه وهى حالة جعلتنا نرى المتنبى فى عظمته وكبريائه يبدو فى بعض الأحيـان وكأنه تابع ذليل .

١٥ — وللخوارزمى صور فنية يعرض بها الظالمين من أهل زمانه عرضا بشـعا رهيبا، مثال ذلك قوله فى وصف بعض الولاة :

"ورد علينا فلان ونحن نيام نوم الأمنة، وسكارى سكر الثروة، ومتكئون على فراش العدل والنصفة، فما زال يفتح علينا أبواب المظالم، ويحتاب فينا ضرعى الدنانير والدراهم، ويسير فى بلادنا سـيرة لا يسيرها السّنور فى الفار، ولا يستخيرها المسلمون فى الكفار، حتى افتقر الأغنياء، وانكشف الفقراء، وحتى ترك الدهقان ضيعته، وجحد صاحب الغلة غلته، وحتى نشف الزرع والضرع، وأهلك الحرث والنسـل، وحتى أخرب البـلاد، بل أخرب العباد، وحتى شوّق الى الآخرة أهل الدنيا، وحبب الفقر الى أهل الغنى، وحتى لقب بالجراد، وكنى أبا الفساد، وحتى صار الدرهم فى أيامه، أقل من الصدق فى كلامه، وصار الأمن فى أعماله أعز من السداد فى أفعاله . فليته إذ أوحش الرجال، حصّل المـال، وليته إذ ضيع المـال، أرضى الرجال، ولكنه حرم الاثنين، فأفلس من الجهتين . ووالله ما الذئب فى الغنم بالقياس اليه إلا من المصلحين، ولا السوس فى الخز فى الصيف عنده إلا من المحسنين، ولا الحجاج بن يوسف الثقفى فى أهل العراق إلا أوّل العادلين، ولا يزدجرد الأثيم فى أهل فارس بالإضافة اليـه إلا من النبيين والصدّيقين، ولا فرعون فى بنى إسرائيـل إذا قابلته به إلا من الملائكة المقربين[1]" .

١٦ — وفن الخوارزمى يظهر جيدا فى هذه الصورة، فقد وازن بين الحالين : حال الأمن وحال الخوف، وقابل بين الخطتين : خطة العـدل وخطة العسف، فأشار الى أنهم كانوا قبـل ورود ذلك الوالى فى سكر الغنى وغفوة الأمان، وأنهم كانوا على فراش العدل متكئين، فلما قدم ذلك الوالى أذلهم وأذاقهم لباس الجوع والخوف . وفى قول الخوارزمى "حتى افتقر

(١) ص ١٠٧ و ١٠٨

الأغنياء، وانكشف الفقراء" دقة بالغة، فان انكشاف الفقراء غاية ما تصل اليه البأساء والضراء، إذ كان الفقر المحتمل يداوى بالتجمل والتستر، وتسدل عليه أثواب الحياء. وحين تصبح الهيئة الاجتماعية مقسمة الى غنيّ افتقر، وإلى فقير ذل وخنع، فهنالك البؤس الجائر، والهول المبين. وكلمات السوس والجراد والسنور والفأر تذكر بقول بديع الزمان فى الشكوى من قاض ظالم "وما رأيك فى سوس لا يقع إلا فى صوف الأيتام، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود"[1]. وفى مثل هـذا التوافق دليل على أن كتاب ذلك العصر يبالغون فى بعض التعابير، وأنهم كانوا يميلون الى التمثيل بعوالم الحشرات والنبات والحيوان. وقوله "حتى صار الدرهم فى أيامه أقل من الصدق فى كلامه، وصار الأمن فى أعماله أعز من السداد فى أفعاله" من العبارات الجميلة لولا أنه ترديد لما وقع من مثل هـذه المقابلة فى شعر الهجاء. وذكر الحجاج و يزدجرد وفرعون فى الحـديث عن الظالمين ليس بجديد، ولكنه ورد فى صورة مقبولة تشعر بأنه كان يحسن استغلال ما ورد على ألسنة الأقدمين.

١٧ — وللخوارزمى رسائل نحس فيها طيب النفس وخفة الروح، ولكنا نجـد فيها كلمات قلقة نابية هى أثر الصنعة والتكلف والتزام السجع، كقوله فى خطاب تلميذ له:

"كتابى هـذا ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت، وقدمت من رأيى ما أخرت، لما أمضى فينا الفراق حكمه، ولا أنفذ فينا سهمه، ولأقمنا جميعا أو رحلنا معا. وانى لأظلم الفراق اذا شكوته، وأتعنف الدهر اذا هجوته، و بيدىّ ضربانى، ومن سهمىّ رميانى. فأنا كالقاطع يده بيده، والفاجع نفسه بنفسه، ومطرق الفراق الى قلبه، ومتجرع غصص البين وكربه"[2]

والفقرتان الأخيرتان تكرار ثقيـل. والمعنى كله مأخوذ من أبيات حوّرها الخوارزمى. وهى فى الأصل الذى أثبته القالى:

تطوى المراحل عن حبيبك دائبا وتظـل تبكيه بدمع ساجم
كذبتك نفسك لست من أهل الهوى تشكو الفراق وأنت عين الظالم

(١) ١٦٩ رسائل بديع الزمان. (٢) ص ١٠ رسائل الخوارزمى.

ألّا أقمت ولو على جمر الغضا قلّبت أو حد الحسام الصارم

ويقول الخوارزمى فى هذه الرسالة يصف الأيام الماضية : " كانت أرق من حاشية البرد، وأحسن من طلوع السعد، وأحلى من إنجاز الوعد، وأعذب من القَنْد[1]، بل من النقد، وأعبق من الورد ، وما أردت إلا ورد الخد، بل من المسك والند ، وأطيب من القرب بعد البعد، ومن الوصل فى أثر الصدّ، بل كانت أرق من نسيم الزهَر، فى السحَر ، ومن قضاء الوطر، على الخطر، بل كانت أقصر من ليل السكارى، أو نهار الحيارى[2] " .

وهذه تعابير كانت تجمل وتظفر بالقبول لو لم يرم بها كاتبها على هذا النحو من الإسراف .

١٨ — بقى أن نسأل هذا السؤال : هل للخوارزمى فى جدّه وهزله فلسفة خاصة يقف عندها الباحثون ؟ .

الظاهر أن فهم الخوارزمى للحياة كان واقفا عند حدود أغراضه ومآربه ومطالبه الشخصية . وكان فنه وقفا على حسن السفارة بينه وبين أولى الأمر من معاصريه ، فليست رسائله فى جملتها إلا شذرات من المديح والعتاب والاستعطاف والهجاء . وهذا أخطر مقتل فى تلك الرسائل التى تعدّ من ذخائر الأدب العربى ، وهو من أجل ذلك لا يصلح أستاذا لكثير من المتأدّبين ، فانه لم يهب شطرا من منثوره فى الدفاع عن فكرة فلسفية ، أو نزعة وجدانية ، ولم يرفع الأدب الى أفق من آفاق الحب والمجد والإخلاص ، ولم يسم به الى سماء من سموات الفن الخالص الذى ينسينا آصار المادة وينقلنا الى عالم الأرواح . وكل ما نجح فيه الخوارزمى أنه أشعرنا بوجوده ، ووقفنا بجدّه أمام شخصية قوية لها فى الحياة مطامع وأهواء ، ولها فى عصرها وجود ظاهر يحسب له حساب . ونحن لا نستقل هذا ، ولكننا لا نكتفى به . فان الزعامة الأدبية مهما دلت على أخطار الزعماء لا ترضى وحدها عشاق الخير والحق والجمال .

---

(١) القند : عسل قصب السكر . (٢) ص ١١

١٩ — ولقد آنحاز الخوارزمى الى مذهب الشيعة، وهو مذهب له خصائصه ومزاياه. وفى صفّ هذا المذهب وقف وقفة مخيفة دلتنا على أنه رجل جِلاد ونضال، ولكنه لم يشعرنا بحب ذلك المذهب، ولم يسكب فى روحنا قطرة من الحنان نحو من بكاهم من الشهداء : لأنه كان يشوب تشيعه بالحقد الأسود على بنى أمية و بنى العباس . ونستطيع أن نقول إنه فى هذا الموضوع كان داعيا صادقا الى فكرة لها قيمتها فى الحياة الاسلامية، وأنه استطاع بالدفاع عنها أن يحشَر فى زمرة المجاهدين فى الحياة السياسية، لولا أنه بسط لسانه بطائفة من العورات والهنات حين عرض للخلفاء فى ألفاظ منكرة أخفها الحكم بأنهم جاءوا من نطف السكارى فى أرحام القيان[1] .

ومن الحق أن نقرّر أن الرسالة المطوّلة التى بعث بها الى الشيعة فى نيسابور تبدو لمن يقرؤها وكأنها صاعقة تصب على رءوس من عادى من الرؤساء، وفى هذه الرسالة يبدو الخوارزمى وهو أزرق الناب مسموم اللعاب، كالحية النضناض . وفيها كذلك يبدو طيبه وخبثه، وكرمه ولؤمه، وشهده وصابه، فهو تارة مؤمن متبتل خاشع صبور حين يقول : " فان أصابتنا نكبة فذلك ما قد تعوّدناه، وان رجعت لنا دولة فذلك ما قد آنتظرناه، وعندنا بحمد الله تعالى لكل حالة آلة، ولكل مقامة مقالة : فعند المحن الصبر، وعند النعم الشكر[2] " . وهو تارة متحزب حقود يعدّد آثام الخلفاء من بنى أمية و بنى العباس ويذكر ما آقترفوا من الجرائم فى تقريب المغنين، و إقصاء الفاطميين، وله فى ذلك لذعات مسمومة يعف قلمنا عن تفصيل ما آنطوت عليه من خبيث الذم وفاحش الهجاء .

٢٠ — ولا يفوتنا أن نشير الى أن فى تلك الرسالة إشارات الى نواح من الأدب لها أهمية عظيمة : فقد لوّح الى إن هناك أشعارا وضعت بعد الاسلام على ألسنة الجاهلية معارضة لأشعار المسلمين، و رواها مثل الواقدى و وهب بن منبه التيمى ومثل الكلبى والشرقى بن القطامى والهيثم بن عدىّ، وهو بهذا ينص على أن أشعارا وضعت للحط من علىّ بن أبى طالب، وعرفنا

(١) ص ١٣٣ من رسائل الخوارزمى . (٢) ص ١٣٠

منه كذلك أن من شعراء الشيعة مَن قُطع لسانه ومُزق ديوانه فضاع شعره وهو عبد الله بن عمار البرقى فصار لذلك من الشخصيات المجهولة فى تاريخ الآداب . وعرفنا منه أيضا أن عبد الله بن مصعب ووهب بن وهب البخترى ومروان بن أبى حفصة الأموىّ وعبد الملك ابن قُرَيب الأصمعى وبكار بن عبد الله الزبيرى وأبا السمط بن أبى الجون الأموى وابن أبى الشوارب العبشمى؛ هؤلاء جميعا كانوا متهمين بالتحامل على آل أبى طالب[1] .

وهذا كلام ليس جديدا فى ذاته فقد أشار الى مثله كتاب التراجم، ولكن وروده على لسان الخوارزمىّ مضافا الى ما أفاض فيه من عيوب الخلفاء يوضح أشياء كثيرة لها أهميتها فى تحديد الاتجاهات الفكرية والأدبية عند الكتاب والشعراء والمؤلفين، ويدعو الى الاحتراس مما نسب الى كثير من المتقدمين .

---

(١) ص ١٢٩ و ١٣٠

٩ – قابوس بن وشمكير

١ – فى سنة ١٣٤١ هـ، نشرت المطبعة السلفية كتابا صغيرا اسمه كمال البلاغة على نفقة المكتبة العربية ببغداد، فمن الواجب فى رأس هذا البحث أن نسدى الشكر لحضرتى الفاضلين نعمان الأعظمى ومحب الدين الخطيب على عنايتهما بإحياء هذا السفر النفيس .

وكمال البلاغة هذا مجموعة صغيرة من رسائل شمس المعالى قابوس بن وشمكير المتوفى سنة ٤٠٣ – أما قابوس بن وشمكير فشخصية جذابة شغلت أرفع مكان بين كتاب القرن الرابع، وسار ذكرها بين أدباء الأندلس حتى عدّه ابن شهيد ضريعا لبديع الزمان . وهو ملك من ملوك الديلم على جرجان وطبرستان . قام بأعباء الملك سنة ٣٦٦ ولقبه الخليفة الطائع لله "شمس المعالى". ولكن فتنة نشأت فى الشرق بين عضد الدولة بن بويه وأخيه فخر الدولة فى السنة الأولى من حكم قابوس كان من نتائجها أن انهزم فخر الدولة ولجأ الى قابوس فأكرمه ورعاه، فأحفظ ذلك عضد الدولة الذى أغار على مملكة قابوس فاستولى عليها سنة ٣٧١ وفر قابوس لاجئا الى خراسان . وبعد سنتين استطاع فخر الدولة أن يعود الى ملكه وكانت بلاد قابوس فى جملته، ففكر قابوس فى الاستفادة من هذا الظرف، ولكنه موطِن لنية كان يخفيها الوزير ابن عباد . فلما توفى فخر الدولة سنة ٣٨٧ أعدّ قابوس حملتين عسكريتين واسترد ملكه سنة ٣٨٨، ولكن عصره كان مملوءا بالقلاقل والاضطرابات فانتهى الأمر بخلعه وتولية ابنه . وكانت له نهاية محزنة نشأت عن ثورة الشعب الذى أكرهه على الفرار الى بسطام حيث قضى نحبه هناك .

٢ – كان قابوس من الملوك الأدباء، وكان للظروف القاسية التى عاناها فى حياته السياسية أثر بليغ فى طبع مواهبه الأدبية بذلك الطابع المحزن الذى يغلب على شعره ونثره . وهو يذكّر بالمعتمد بن عباد الأندلسى، فكلاهما بكى ملكه وحظه ومجده، ولننظر كيف يقول قابوس حين استولى ابن بويه على بلاده وأخرجه منها حائرا كاسف البال :

لئن زال أملاكى وفات ذخائرى　　وأصبح جمعى فى ضمان التفرّق
فقد بقيت لى همة ما وراءها　　منال لراج أو بلوغ لمرتقى
ولى نفس حر تأنف الضيم مركبا　　وتكره ورد المنهل المترنق
فان تلفت نفسى فلله درها　　وإن بلغت ما أرتجيه فأخلق

وله هذه الأبيات التى يحفظها أكثر المتأدبين وقد وصلت الى أغلب الجماهير لعناية المؤلفين باختيارها فى المجموعات الأدبية :

قل للذى بصروف الدهر عيّرنا　　هل حارب الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر تعلو فوقه جيفٌ　　وتستقر بأقصى قاعه الدرر
فان تكن نشبت أيدى الزمان بنا　　ونالنا من تمادى بؤسه الضرر
ففى السماء نجوم ما لها عدد　　وليس يكسف إلا الشمس والقمر

وله أيضا هذه القطعة يعرّض بمن رفعتهم الأيام بعد خفض وأعزتهم بعد هوان :

بالله لا تنهضى يا دولة السفل　　وقصرى فضل ما أرخيت من طِوَل
أسرفت فآقتصدى، جاوزت فآنصرفى　　عن التهوّر، ثم آمشى على مهل
مخدّمون ولم تخدم أوائلهم　　مخوّلون وكانوا أرذل الخول

و بمناسبة شعر قابوس نذكر له هذين البيتين وهما من أروع ما قيل فى التشبيب :

خطرات ذكرك تستثير مودتى　　فأحس منها فى الفؤاد دبيبا
لا عضو لى إلا وفيه صبابة　　فكأن أعضائى خلقن قلوبا

٣ — أما نثر قابوس فأعجوبة من أعاجيب فن الانشاء . هو نثر مصنوع صنعة دقيقة جدا لا يدرك كنهها إلا الفحول . وقد عنى بدراسته من المتقدّمين عبد الرحمن اليزدادى الذى اختار من رسائله ماسماه "كمال البلاغة" ودراسة اليزدادى لنثر قابوس جديرة بأن يعود اليها الأدباء بالنقد والتمحيص، لأنها مكملة لأنواع البديع : فقد استخرج منها أنواعا لم يكن وجدها

قدامة بن جعفر فيما فتش من كلام الفصحاء، ثم تولى تسميتها بما شاكلها من النعوت، وهى أربعة عشر نوعا . منها المجنَّح كقوله :

" صام عن جواب ما نفذ اليه، ونام عما لزمه فى حق الاعتماد عليه " .

وسماه مجنحا لأنه شبهه بشيء له جناحان من قِبَل أن فى أوّله سجعا وفى آخره سجعا وبينهما واسطة . فكلمة (صام) فى أوّل القرينة الأولى تقابل كلمة (نام) فى أوّل القرينة الثانية .

ومنها الممثل كقوله :

" ولا يعجبنى أن يكسو ضوء مكارمه كلف الخمول، ويأذن لطوالع معاليه بالأفول " .

وسماه كذلك لكثرة ما فيه من التمثيلات .

ومنها المجانس كقوله :

" أين الطبع الذى هو للصُّدود صَدود، وللتألف ألوفٌ ودود " .

وسماه كذلك لأن اسمه مشتق من الجنس ولأن بعض الكلام منه جنس لبعض، فالصدود وصدود من جنس واحد، والتألف وألوف من جنس واحد .

ومنها مشابهة الصور كقوله :

" اذا حالف، فأحسبه قد خالف، واذا أعار، فأحسبه قد أغار " .

وسماه كذلك لتشابه صور الكلمات فى الخط : فخالف وخالف فى صورة واحدة، وكذلك أعار وأغار .

واليزدادى مفتون فتنة مطبقة بنثر قابوس، وانظر كيف علَّق على قوله :

" قد خلد ذلك فى بدائع الأخبار، وكتب بسواد الليل على بياض النهار " .

فانه يقول : (هذا كلام لا أعرف فى جودة صنعته وغرابة معناه كلاما : لأنه مثَّل سواد الليل بالمداد، وبياض النهار بالقرطاس، وهما شيئان ليس لهما نظيران فى البقاء، وهذه القرينة الثانية نتيجة طبع كالماء رقيق، وصنع فى تأليف الكلام دقيق، وليس مما يسمح به

طبع الكتاب وتفى به قرائحهم ، فإنى قد أجلت الفكر فى عدّة ألفاظ رائية الأواخر فلم أجد منها ما يقع موقعه فى الوفاق . وكان ما أتى وحضر فى غاية النفور منه والشذوذ عنه ، ولا يعرف ما أقوله إلا من يعالج التسجيع[1] .

وفى مكان آخر يقول :

" وأنا إن رمت العبارة عن بدائع هذه الرسائل عيبت به لإعجازها ، ولأنه كلام مباين ، فى الفصاحه والعذوبة والبدعة والإيجاز ، للكلام المعهود الجارى على ألسنة الناس ... ليس ذا من كلام البشر ، ولا من المعرفة البشرية ، والادراك الطباعى ، بل هو إفاضة القوة العلوية[2] " .

٤ — أما نحن فقد راجعنا هذه الرسائل غير مرة ، ورأيناها حقا من الذخائر النادرة ، ولكننا لا نوافق اليزدادى على تقرير أن هذه الأربعة عشر نوعا من البديع لا توجد فى كلام غير كلام قابوس . فهى فى جملتها ترديد للصنعة التى عرف بها المتقدّمون . وكل ما تمتاز به هو شدّة الأسر ، وأطراد الفن فى جميع أجزائها بحيث يمكن إن يقال إن هذا الرجل كان ينحت الكلام كما ينحت المثّال الصخر ليخلق منه غرائب التماثيل .

٥ — وهنا نقطة يحسن الكلام عليها : هى أن نقاد الغرب اليوم يأخذون على كتاب اللغة العربية أنهم يجمعون بين الصور المختلفة فى الجملة الواحدة بدون أن يلاحظوا مايجب أن يكون بين تلك الصور من الروابط المعنوية . من ذلك مثلا قول الثعالبى فى الزوزنى الكاتب :

" يغرس الدر فى أرض القراطيس ، وينشر عليه أجنحة الطواويس " .

فان هذه أخيلة متنافرة لا جامع بينها ولا رباط . ولو حللت مافيها من استعارة لأعياك الأمر وضاق بك المجال . وهى فى جملتها شعوذة عقلية ، وإن بدت لبعض الناس نهاية فى الحسن والرواء .

وقول الثعالبى أيضا فى أبى الفرج البيغا :

"له كلام ، بل مدام ، بل نظام من الياقوت ، بل حب الغمام" .

(١) ص ٢٦ و ٢٧ من كمال البلاغة . (٢) ص ٣٢

فان الانتقال من هـذه الصور مضلل للخيال . وكل ما عنـد الكاتب أنه عرض ما مرّ بذهنه من مختلف الأشكال .

٦ — ونحن إذا أردنا أن ننقـد رسائل قابوس من هـذه الناحية وجدناه يحلّق أحيانا ويسـفّ حينا . فمن المستجاد له هذه العبارة :

"ولا يعجبنى أن يكسو ضوء مكارمه كلف الخمول ، و يأذن لطوالع معاليه بالأفول" .

فان الصور هنا متقاربة والربط بينها موجود . ولكن آنظر قوله فى وصف نثر ابن العميد :

"ولو كنت عرفت تفاضل الكلام ، وميزت بين المنسم والسنام ، لمـا قابلت بصفيرى زئيره، وما ساجلت ببعيثى جريره[(١)]" .

فان الربط بين هـذه الصور صعب، لأنه قابل بين المنسم والسنام، ثم آنتقل فقابل بين الصفير والزئير، وأبعد من هذا انتقاله فى قوله "وما ساجلت ببعيثى جريره" فان القارئ يحتاج إلى تأمل وتفكير فى تصوّر هـذه القرينة الأخيرة، الى أن يتاح له من يفهمه أنهـا إشارة إلى البعيث وجرير من بين الشعراء .

و يستجاد قوله :

"حتى يثمر ما أزهر من القول، و يمطر ما أنشأ من سحاب الفضل[(٢)]" .

لأن الزهر والثمر والمطر والسحاب مما يغلب الجمع بينه فى عالم الوجود . ولكن آنظر قوله :

"الدنيا شجرة ثمرتها النوائب، و بيضة مضمنها العجائب" .

فان الآنتقال من الشجرة إلى البيضة شطط غير مقبول .

و يستجاد قوله :

"أمن صخر تدمر قلبـه فليس يلينه العتاب، أم من الحديد جانبه فلا يميّله الإعتاب، أم من صفاقة الدهر مجنّ نُبوِّه فقد نبا عنـه غَرب كل حِجاج، أم من قساوته مزاج إبائه فقـد أبى على كل علاج[(٣)]" .

(١) ص ٤٢ (٢) ص ٤٧ (٣) ص ٥٣

فإن الأواصر وثيقة بين هذه التمثيلات، ولكن انظر قوله :

"فأما ذلك المهم فما أحراه بأن يلجم فيه مسرج وعده، وينتج بالنجح ماضمنه نسج يده[١]" .

فان هذه الأخيلة قليلة الائتلاف .

٧ — ومن الحق أن أقرر أنى أجد صعوبة فى البحث عن مَقاتل هذا الكاتب الفنان، فأكثر صوره وأخيلته وتمثيلاته يسود فيها روح التآلف والاتساق . ويعجبنى قوله :

"فمن أين للضباب، صوب السحاب، وللغراب، هُوِىّ العقاب[٢]" .

وقـــوله :

"ولم لا يسترِدّ عازب الرأى فيعلم أنه ما لم يعاود الصلة مأفون، ويستعيد غائب الفكر فيفهم أنه ما دام على الفرقة مغبون، أظنه يقدّر الاستغناء عنى هو الغنى والغَناء، ولا يدرى أن الالتواء علىّ هو البِلى والبلاء، ويخال أنه مكتف بجاهه وعرضه، ولا يشعر أنى كلٌّ لبعضه، وطول فى عرضه، وأن قوة الجناح بالقوادم والخوافى، وعمل الرماح بالأسنة والعوالى[٣]" .

وله أحيانا مبالغات يظهر فيها الغلو والإسراف، ولكن حلاوة أسلوبه تسحب عليها نسمة من القبول . وإليك قوله :

"بل كيف يهوّن من لو شاء عقد الهواء، وجسّم الهباء، وفصّل تراكيب السماء، وألف بين النار والماء، وأكمد ضياء الشمس والقمر، وكفاهما عناء السير والسفر، وسد مناخر الرياح الزعازع، وطبق أجفان البروق اللوامع، وقطع ألسنة الرعود بسيف الوعيد، ونظم صوب الغمام نظم الفريد، ورفع عن الأرض سطوة الزلازل، وقضى بما يراه على القضاء النازل، وعرض الشيطان بمعرض الانسان، وكحل[٤] الحور العين بصور الغيلان، وأنبت العشب على البحار، وألبس الليل ضوء النهار[٥]" .

---

(١) ص ٨١ (٢) ص ٧٧ (٣) ص ٥٦ (٤) لعل الصواب (مثل) بالتشديد .
(٥) ص ٥٥

٨ — وهذه القطعة التى نعدها من المبالغات والتهويلات، ألا تدلنا على شىء؟ إنها لتدلنا على أن الانسان كان يحلم منذ أجيال بالتحكم فى الأرض والسماء، والماء والهواء. إن هذا الكلام الذى نراه مبالغة لو قاله امبراطور ألمانيا بالأمس، أو قاله ملك انجلترا اليوم، لما رأى الناس فيه شيئا من الغلو والاسراف. فقد آستطاع الانسان فى هذا الجيل أن يكمد ضوء الشمس والقمر، وأن يسخر الهواء، وأن يؤلف بين النار والماء، وأن يسد مناخر الرياح، وأن يطبق أجفان البروق، وأن يبدل الطبائع من حال إلى حال. وقد ألبس الليل ضوء النهار، ولم يبق إلا أن ينبت العشب على البحار.

إن دراسة الآداب القديمة تعطينا صورا عجيبة من أحلام الانسانية. فهذا الطيران الذى أصبح قوة القُوَى فى هذا العصر كان حلما يتردد كثيرا فى أخيلة الأقدمين؛ فقد تصوروا لسليمان بساط الريح، وقدروا أن سيكون فى الجنة طيارون، ولم يتمثلوا الملائكة إلا مجنحين، لأنهم كانوا يرون القوة الكاملة فى أن يطير الانسان من أفق إلى أفق، ومن قطر إلى قطر، كلما بعثته الدواعى وأهابت به الظروف.

فما نراه مبالغة فى كلام قابوس بن وشمكير ليس إلا وثبة من وثبات الخيال الانسانى الذى قدَّر ما ينتظر له من البأس والقوة فى عالم الوجود. ولننظر كيف يقول فى نفس الرسالة التى اقتطفنا منها القطعة السالفة:

"كيف يُزهَد فيمن ملك عنان الدهر فهو طوع قياده، وتبع مراده، ينظر أمره ليمتثل، ويرقب نهيه فيعتزل؟ وكيف يُهجَر من تضاءلت الأرض تحت قدمه، وصارت فى الانقياد له كخدمه؟ إذا رأت منه هشاشة أعشبت، وإن أحست منه بجفوة أجدبت؟ وكيف يستغنى عمن خيله العزمات والأوهام، وأنصاره الليالى والأيام، فمن هرب منه أدركه بمكايدها، ومن طلبه وجده فى مراصدها؟ وكيف يُعرَض عمن تُعرِض رفاهة العيش بإعراضه، وتنقبض الأرزاق بآنقباضه، وأضاء نجم الإقبال إذا أقبل، وأهلّ هلال الجد إذا تهلل؟ وكيف يزهى على من تحقر فى عينه الدنيا، ويرى تحته السماء العليا، قد ركب عنق الفلك، وآستوى على

ذات الحبُك، فتبرجت له البروج، وتكوكبت لعبادته الكواكب، واستجارت بعزته المجرة، وأثرت بمآثره أوضاح الثرى"[1].

وإنى لأنتظر أن يحقق الانسان الحاضر جميع الخيالات التى مرت بذهن الانسان الغابر، فقد كان الانسان يضيف إلى الجن جميع القوى التى تعجز عن إدراكها وسائله المادية، ونظرةٌ فى كتاب ألف ليلة وليلة، أو ما شاكله من كتب الخرافات والأساطير، تريناً أن الانسان كان يضيف إلى الجن أعمالا غريبة معقدة هى اليوم أيسر ما يأتى به الانسان فى أعوام الحروب. وستتبدل تبعا لتطورات الاختراع أوضاع كثيرة من مصطلحات البلاغة والبيان، فتصبح أكثر المجازات حقائق، وتمسى أكثر المبالغات تعابير عادية لا شطط فيها ولا جموح. وسينتظر أن يكون للانسان الحاضر أوهام جديدة، وخيالات طريفة، بالقياس إلى ما حققه من أوهام أسلافه الماضين، وستكون الأجيال المقبلة مشغولة بتحقيق الأحلام الجديدة التى يتصورها الإنسان الحديث. ولا يعلم إلا الله ما سيكون من مصير الحلم الأعظم حلم الخلود، فقد تشبث الانسان بهذا الحلم فى جميع أدواره التاريخية، وعز عليه أن تكون أيامه فى هذه الدنيا هى كل ما يملك من حظوظ الحياة، وليس مذهب تناسخ الأرواح الذى تعلق بأهدابه الأقدمون إلا تعزية لهذا الانسان الفانى الذى يزعجه أن يقصر وجوده على سنوات معدودات. وقد راعت جميع الديانات هذه الأمنية الانسانية فقررت فى ثقة مصحوبة بالرفق والعطف أنْ سيكون للانسان حياة أخرى هى أعلى وأبقى من حياته الدنيا، وأنْ سيكون له جنة ونعيم، ورَوح وريحان. ولا أكتم القارئ أننى أعجب كيف يعيش الناس فى بعض أنحاء الصين فى ظلال المعتقدات الجافة التى تندر بأنْ لا حياة بعد الموت، وأنْ لا رجعة للانسان بعد فراق دنياه.

إن الانسان ليسعى للخلود بوسائل شتى، منها هذه الآثار المادية والمعنوية التى يفنى الناس فيها أعمارهم ليكون لهم بعد الموت لون من ألوان الوجود. والذين لا يستطيعون أن يسمعوا

---

(١) ص ٤٥

التاريخ صوتهم ، وأن يفرضوا بقاءهم فى أذهان الأحياء ، يأملون أن يصلوا بطريق الخير والبر الى ملكوت السموات ، علّهم يعيشون خالدين بين المتقين والأبرار .

إنى لأذكر ، وأنا أكتب هـذا ، أن دنونزيو شاعر ايطاليا كاد يمس بالجنون حين رأى لأول مرة طيارة تحلق فى الأجواء ، ولم ذلك؟ لأن الشاعر الذى يحس الحياة ويفهمها ويتذوقها بأكثر مما يتذوقها سائر الناس يدرك القيمة المعنوية لهذه البراعة الانسانية التى حولت الأحلام الى حقائق ، ومكنت الرجال من ناصية السماء . ولا ندرى كيف يكون شعور الانسان حين يكشف له الغطاء عن عالم الأرواح . فهذه هى الأمنية الباقية التى يحلم بتحقيقها الأحياء إن طائفـة من المخترعات التى يتمتع بها الناس والتى صارت مألوفة لا غرابة فيها ، كانت لأول ظهورها من الغرائب والأعاجيب . وان كشف أسرار الكهرباء ليبشر بمستقبل عظيم جدا للانسانية ، فقد يكون ما وصلنا اليه قشوراً من المعارف الأولية فى هذا الباب . فليت شعرى كيف يحيا الناس بعدنا؟ بل ليت شعرى كيف عاش الناس قبلنا ، وكيف كانت علوم الفراعنة يوم بنوا الاهرام ؟ ؟

فى اللحظة التى أكتب فيها هذه الملاحظات أقاسى بعض الألم فى الأمعاء ، ومع هذا الضعف أشعر بوحشة شديدة كلما فكرت فى قَصْر حياتى على طائفة من الأعمال الأدبيـة التى لا تقدم الانسانية إلا بمقدار ضئيل ، وتزيد وحشتى كلما ذكرت أن الإنسان سيحتاج الى أجيال طويلة حتى يبرأ من وحشيته وبداوته ، ويعرف كيف فضل السلام ، وكيف تكون ثمرات العالم أدوات إحياء ، لا قذائف إفناء . وليس أمامى إلا هـذا الأمل الصغير : وهو أنى سأعود الى العالم عن طريق الذكريات ، كما عاد قابوس بن وشمكير فشغلنى به ، وشغل معى جماعة من الأساتذة بجامعة باريس بعد أن فارق العالم بعشرة قرون .

٩ — ونعود بعد هذا فنذكر أن قابوس بن وشمكير يلتزم الصنعة فى أكثر ما يكتب ، حتى فى الموضوعات الفلسفية .

وللقارئ أن يسأل : أكان لهذا الملك الأديب فلسفة يكتب عنها بلغة مثقلة بالسجع والموازنة والجناس ؟ .

نعم ! كان لهذا الرجل فلسفة ، منها رأيه فى العالم، وهو يرى من الممكن أن يغير الله هذا النظام الحاضر الذى يفضى بالانسان الى الفناء، وليس من المستغرب عنده أن يحول الله هذا العالم الفانى الى عالم خلود . وانظر كيف يقول :

"إنا لا نقدر على علم الأشياء الغائبة إلا بما نشاهده من الأشياء الحاضرة ... ... ولو لم يكن لنا هذا التدرب والممارسة للمشاهدات ،ثم القياس بها على المغيبات ،لكنا نأبى قبول قول واصف لحيوان ما على صورة مخالفة لمعهودنا ومعلومنا من جملة الحيوانات التى شاهدناها . ولكنا نعلم بهذا القياس المعمول عليه ان كون ما وصفه جائز، وغير مدفوع ان تأتى القدرة من البارى بحيوان لم نشاهده فى صورته الخاصة به . فجائز على هذا القياس أن تحدث قدرة البارى جل جلاله صنعا آخر زائدا على الصنع الأول فى الشرف والكمال ،فلا توجد فى شىء من أحواله حال تنافى الاستقامة، وتباين الحكمة، فيكون العالم حينئذ عالم الخلود والبقاء، منزها عن الزوال والانقضاء"[1] .

وفى رأى قابوس أن هذا سيكون أظهر لقدرة البارى عز شأنه ،ولا ينبغى أن يقال : لماذا لم يخلق الله العالم كذلك منذ البداية ، لأنه لا يقال لقادر حكيم تظهر منه القدرة بعد القدرة ، والبدعة بعد البدعة ، وكان لكل متأخر منها على متقدم مزية وشرف ، وفضيلة كمال : " هلا فعل ذلك فى الأول ؟ " لأن الفعل كلما كان المستأنف منه أشرف مما سلف، والأخير خيرا مما سبق، كان أدل على قدرة الصانع، وحكمة المبدع .

١٠ — وقد أتاحت لنا هذه الأمانى أن نعود فنتأمل تقلبات العوالم المختلفة منذ نشأتها البعيدة الى وجودها الحاضر . ولكن رويدا ،فأنا أكتب هذا فى غرفة مغلقة النوافذ ،مسدولة

(١) ص ٩٢

الستائر: لا يهدينى فيها غير الكتاب والمصباح، وليس لدىّ من وسائل التحقيق غير الخيال . ومع هذا فليسمع القارئ ان شاء :

إن علماء طبقات الأرض ، علماء الجيولوجيا ، يقولون مثلا : إن جزيرة مدغشقر أكبر من أن تكون جزيرة ، إنما هى قارة، ولكنها مع ذلك ليست مستقلة منذ خلقت، فان هناك دلائل جيولوجية تدل على أنها انفصلت من أفريقا فى عهود ما قبل التاريخ ، فهل يدرى القارئ فى كم مليون من السنين كونت الطبيعة بوغاز موزنبيق؟ وهل يعرف فى كم أمد من الآماد استطاعت الطبيعة أن تكوّن لمدغشقر وجودا خاصا بحيث تفترق فى حيوانها ونباتها عن أفريقا بعض الافتراق ! إن مدغشقر تختص بنوع فذ من أنواع الغربان ، ففيها وحدها يكون الغراب أسود الظهر، أبيض الصدر، كأنه يستعد لحفلة سامرة! ففى كم جيل شاب ذلك الغراب الذى جهل الشاعر وجوده حين قال :

إذا شاب الغراب أتيت أهلى وصار القار كاللبن الحليب

ألا يمكن أن يكون هذا التطوّر البطئ جدا الذى يتناسب بطؤه مع خطورة هذا العالم المترامى الأطراف، ألا يمكن أن يكون سنة مطردة من سنن الطبيعة تتحوّل بها الموجودات من وضع إلى وضع، ومن حال إلى حال، فى مدى مالا نعرف و لا نفرض من طوال الأجيال .

اذن فلنسمح للانسانية أن تحلم بأنْ سيكون من نتائج هذا التطوّر أن تظفر بوضع آخر من أوضاع العالم : هو الخلود، وما ذلك على الله بعزيز .

١١ — وهناك نظرة أخرى فلسفية من نظرات قابوس هى تقديره لنفس الحيوان، فعنده أن قوة الفكر والتمييز كامنة فى جميع الحيوانات، وما من أجناس الحيوان جنس الا وقد أعطى منها قدر ما كفاه فى طلب المعاش، والاحتراز من المضار والآفات . وأشرف الحيوان عنده ما كانت معرفته من ابتداء كونه إلى انتهاء سنه معرفة غريزية ، ولم يكن محتاجا الى إرشاد وهداية ، وتعليم ورياضة، ثم ما كان مكتفيا بحوله وقوته فى دفع المضار عن نفسه وحريمه، ومستغنيا فى تحصيل مطالبه ومآربه عن مشارك ومعين ، ثم ما كان أصدق وفاء وخُلة لما عرفه

وشاهده، وألفه وآعتاده، ثم ما كان بجبلّته وخلقته نظيفا لا يحتاج إلى الآغتسال بالماء، ولا الى التزين بزينة متخذة من خارج ، وانما يغنيه حسن شعره فى مختلف ألوانه، وأنوار ريشه فى صنوف أصباغه، عن الحسن المكتسب والجمال المجلوب ، ثم ما كان من ابتداء مولده إلى منتهى أمده على طبع واحد: لا يتبدّل حالا بحال، ولا يتغير بين غدو وآصال ... وما أبعد نظر قابوس اذ يقول :

"كل هذا الذى ذكرته من الأوصاف الجميلة، والخصال المرضية، فى سائر الحيوان موجود، وفى الانسان — بحمد الله — مفقود . وماذا يضرهم إن فاتهم علم الفلسفة والهندسة ، ومعرفة أفلاطون وأرسطاطاليس ، وفيثاغورس وانبذقليس ، وأرشميدس وبطلميوس ، وهرمس ووليس، فلا العالم به ينال من العمر مزيدا، ولا الشقّ يصير به سعيدا، وكفى شرفا وفضلا بالبهائم ، أن بعر الظباء طب لهذا الحكيم العالم ، وما يتولد فى أحشاء بعضها من الحجر، دواء وشفاء لأدواء البشر ... ولكن الجاهل ظلوم، والإنصاف فى الناس معدوم[1]" .

ولقابوس آراء فى الفلك والنجوم هى صورة لمعارف أهل عصره فى هذا العلم ، يضيق عن نقدها المجال ، وحسبنا أن نذكر أن بعض ما سماه أوهاما من تأثير الكواكب هو اليوم موضع عناية علماء الفلك ، والعلم يمضى بأقدام راسخة فى تحقيق أوهام الأولين ، وفوق كل ذى علم عليم[2] .

---

(١) أنظر ص ٩٧ و ٩٨ (٢) من أغرب ما فى آراء قابوس إنكاره للتكنية : فهى عنده منقصة للآباء . ومن رأيه أن التكنية رسم حدث فى أيام ملوك العجم إذ كانت عندهم رهائن العرب فكان يقال اذا زار أحد الآباء آبنه : جاء أبو فلان وأبو فلان ، أى أن هذا والد فلان وذاك والد فلان (ليعرف ولد كل رجل بأبيه) ، فلا يعترض الاشتباه فيه ؛ فلما دارت الأيام على ذلك ، صارت هذه النسبة رتبة لأولئك) ويضيف قابوس الى هذا أن التكنى "ترتب برتبة أهل الذمة ، واستعمال لرسوم تلك الأمة . وقبيح سمج بالمسلمين ، أن يكونوا بسماتهم متسمين" أنظر ص ١٠٩ و ١١٠ والتكنية — كما يرى قارئ كتابنا هذا — صارت من الأمور الشائعة عند رجال القرن الرابع حتى نكاد نجزم بأن لكل كاتب كنية ، والكنية هى التى ميزت بين الحسن بن عبد الله العسكرى والحسن بن عبد الله العسكرى فهما متساويان فى التسمية وتفرق بينهما الكنية : فأحدهما أبو أحمد ، وثانيهما أبو هلال .

ومن المحتمل أن يكون رأى قابوس صحيحا فى أصل التكنية ، ولكن لا مرية فى أنها صارت عادة عربية . فان الجاحظ يحدثنا أن كل من اسمه على صار يكنى بأبى الحسن وكل من اسمه عمر صار يكنى بأبى حفص (الحيوان ص ١٥٩ ج ١) ويحدثنا ابن النديم أن عبد الله بن المقفع كان قبل إسلامه يكنى أبا عمرو ، فلما أسلم اكتنى بأبى محمد (الفهرست ص ١٧٢) وابن أبى الحديد يخبرنا أن التكنية كانت عند العرب وعند الفرس وأن ملوك بنى ساسان لم يكنها أحد من رعاياها قط ولا سماها فى شعر ولا خطبة و إنما حدث هذا فى ملوك الحيرة وأن جفاة العرب لسوء أدبها وغلظ تركيبها كانوا اذا أتوا النبى صلى الله عليه وآله خاطبوه باسمه وكنيته . (راجع شرح نهج البلاغة ص ٤٢٩ و ٤٣٠ ج ٤) .

والكنية مألوفة فى شعر العرب . قال الفرزدق :

وقد تلتقى الأسماء فى الناس والكنى ... كثيرا ولكن ميزوا فى الخلائق

والظاهر أنها كانت مطردة فيمن ليس له ولد . من ذلك قول أبى صخر الهذلى :

أبى القلب إلا حبها عامرية ... لها كنية عمرو وليس لها عمرو

والكنية من تقاليد الناس فى العصر الحاضر ، وأهل مصر يكنون الرجل أحيانا باسم أبيه لا باسم ابنه فيقال (أبو عبد السلام) لأن الوالد اسمه (عبد السلام) .

وجرت التكنية مجرى التشريف فى مصر : فكان السيد أحمد عبد الخالق السادات رحمه الله يكنى مريديه فى ليلة من ليالى رمضان فى غرفة خاصة تسمى (أم الأفراح) وكان المريدون يفرحون بكناهم أبلغ الفرح ، وهو تقليد يدل على أن التكنية كان لها فى ذلك البيت معنى من معانى التشريف .

فان صح ما ذكره قابوس من أن التكنية كانت رتبة من رتب أهل الذمة فان انتقالها الى الجو الاسلامى فى هذا الوضع الشريف دليل على أن التطور قادر على قلب المعانى فى كل شىء . وما أكثر ما تتلون الألفاظ والأوضاع باختلاف الأجيال !

١٠ – أبو اسحاق الصابى

١ — تلك شخصية جذابة امتُحنت بالحوادث، وعرفت أسرار الناس وصروف الزمان. فقد كان من حظ الصابى أن رأى الأيام فى إقبالها وإدبارها وشهد من ألوان البؤس أضعاف ما شهد من ألوان النعيم : فكان لذلك أثر فى صفاء نفسه، ودقة حسه . والحظ الذى يعطى ثم يأخذ بالشمال ما أعطى باليمين أجدى على الكاتب والشاعر من الحظ المواتى الذى تتواتر ألطافه وعطاياه . وكذلك عرف الصابى صفو الحياة حين تولى الانشاء ببغداد عن الخليفة وعن عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه سنة ٣٤٩ ، ثم واجه بأساء الحياة حين ملك عضد الدولة بغداد واعتقله فى سنة ٣٦٧ وعزم على إلقائه تحت أيدى الفيلة لولا شفاعة الشافعين، وظل يعانى أحداث الأيام الى أن توفى فى شوّال سنة ٣٨٤ ببغداد وعمره ٧١ سنة .

٢ — وأوّل ما يلفت النظر من أخلاق الصابى انه كان رجلا ألوفا حلو الشمائل بليغ التأثير فى أنفس معاصريه . كان صابئيا ، وعرض عليه عز الدولة أن يسلم فآمتنع، وقيل بذل له ألف دينار على أن يأكل الفول فلم يفعل — والصابئون يحرمون الفول والحمّام[1] — ولكن حرصه على دينه لم يحل بينه وبين التحلى بأكرم الخصال فى رعاية الاسلام : فقد كان يصوم رمضان مساعدة وموافقة للمسلمين وحسن عشرة منه لهم، ويحفظ القرآن حفظا يدور على طرف لسانه وسن قلمه[2] . وفى هذا أصدق الدلالة على أن الرجل كان سليم الذوق، كريم الطبع، تجافت نفسه عن معاداة الاسلام وترفّع قلبه عن إضمار البغض للمسلمين . وفى حفظه القرآن كفايةٌ لعصمة روحه من وَضَر الشرك وقبح الزيغ، فان القرآن أقوى ما عرفنا من الآثار الأدبية فى حمل حافظه على الأنس به والخضوع له والتسليم بما يدعو اليه من صدق الايمان . والصداقة الروحية أقوى الصداقات : فقد نجد عند أنصار اللغة العربية من مختلف الديانات

(١) ص ٣٢٤ ج ١ ياقوت . (٢) ص ٣٢٦ ج ١ ياقوت .

روحا إسلاميا عاليا يسمو بلطفه وكرم جوهره عن أرواح كثير ممن وقع إسلامهم فى ظل الأوضاع والتقاليد . وقد يظن أن لا حاجة الى مثل هذه الوقفة عند الكلام عن مجاملة الصابى للمسلمين ، لولا أنى أرى فيها مظهرا كبيرا من نبل النفس ، وعظمة الروح . فليس بالبسير أن يسمو الرجل عن الأحقاد الصغيرة التى يوجبها آختلاف العقائد ، وليس من السهل أن يصل الرجل الى حقيقة العظمة الروحية حين يرى القرآن أجلّ من أن يعادَى ويراه لذلك جديرا بالحفظ والإجلال .

٣ — وقد جوزى الصابى على هذا الرفق أجمل جزاء ، فصحت له صداقة الشريف الرضى إمام الأشراف فى عصره ، وأصدق شاعر أفصح عن نوازع الوجدان . ومهما قدّرنا الظروف التى جمعت بين الشريف الرضى وبين الصابى وآفترضنا ما شئنا من أسباب الوفاق السياسى الذى جعل من الصابى نصيرا للشريف[1] فلن نستطيع أن ننكر أن لوفاء الصابى وكرم نحيزته وطهارة قلبه أكبر الأثر فى التوفيق بين تينك النفسين العاليتين ، ويكفى أن يعرف القارئ أن الشريف الرضى بكى الصابى حين مات بقصيدة تعد من روائع شعره ، قصيدة طويلة بلغت ٨٢ بيتا ، وهى فى طولها محكمة النسج ، جيدة السبك ، تنبئ عن لوعة صادقة وحزن عميق .

ومن الخير أن نشير الى أن الرضى صور فى تلك القصيدة جانبين من أهم الجوانب فى بكاء مثل ذلك الفقيد : الأول حزنه لفقده ، والثانى نكبة الأدب فى ذلك القلم البليغ . ولننظر كيف صوّر حزنه وتفجعه فى قوله :

بُعدًا ليومك فى الزمان فإنه ... أقذى العيون وفتّ فى الأعضادِ
لا ينفد الدمع الذى يبكى به ... ان القلوب له من الأمداد
أعزز علىّ بأن أراك وقد خلت ... من جانبيك مقاعد العواد
أعزز علىّ بأن يفارق ناظرى ... لمعان ذاك الكوكب الوقاد
أعزز علىّ بأن نزلت بمنزل ... متشابه الأنجاد والأوغاد

(١) ص ٣ من مقدمة الديوان .

الى أن يقول :

يا ليت أنى ما ٱقتنيتك صاحبا ... كم قُنية جلبت أسى لفؤادى
برد القلوب لمن تحب بقاءه ... مما يجر حرارة الأكباد
ويقول من لم يدر كنهك إنهم ... نقصوا به عددا من الأعداد
هيهات أدرج بين برديك الردى ... رجل الرجال وأوحد الاحاد

ويقول فى تعليل ما كان بينهما من الود، على بعد ما بينهما من الأصول والأنساب :

الفضل ناسب بيننا ان لم يكن ... شرفى مناسبه ولا ميلادى
ان لم تكن من أسرتى وعشيرتى ... فلأنت أعلقهم يدا بودادى
لو لم يكن عالى الأصول فقد وفى ... شرف الجدود بسؤدد الأجداد

ويقول فى الحنين الى أيامهما الخوالى، وضيق الأرض بالباكى بعد ذهاب الأليف :

ليس التنافث بيننا بمعاود ... أبدا وليس زماننا بمعاد
ضاقت علىّ الأرض بعدك كلها ... وتركتَ أضيقها علىّ بلادى
لك فى الحشا قبر وإن لم تأوه ... ومن الدموع روائح وغوادى
سلّوا من الأبراد جسمك وٱنثنى ... جسمى يسل عليك فى الأبراد
إن الدموع عليك غير بخيلة ... والقلب بالسلوان غير جواد
سوّدت ما بين الفضاء وناظرى ... وغسلت من عينىّ كل سواد
رىّ الخدود من المدامع شاهد ... أن القلوب من الغليل صواد
ما كنت أخشى أن تضن بلفظة ... لتقوم بعدك لى مقام الزاد (١)

وفى هذه القطع التى ٱخترناها بيان لتلك الألفة الوثيقة التى كانت بين ذينك الرجلين، وقد عوتب الشريف على هذه القصيدة (٢)، وٱستكثر الناس عليه فى دينه وجاهه أن يبكى رجلا

(١) تجد بقية القصيدة فى الصفحات ٢٩٤ — ٢٩٨ من ديوان الشريف الرضى ج ١

(٢) ص ٢١ ج ١ ابن خلكان .

صابئا بمثل هذا الشعر الحزين، ولكنه أجاب بأنه إنما بكاه لفضله . وأى فضل هذا الذى ينسى الشريف الرضى منزلته الدينية والاجتماعية ؟ إنه فضل ذلك الرجل المهذب الذى رأى من حسن العشرة أن يصوم رمضان و يحفظ القرآن .

أما القطعة التى وقعت فى هذه القصيدة وصفا لبلاغة الصابى فهى غاية فى الجودة ، وهى شاهد على احترام الشريف لأسلوبه و إعجابه ببراعته، ولننظر كيف يقول :

وصحائف فيها الأراقم كُمَّنٌ مرهوبة الإصدار والايراد
تدمى طوائفها اذا استعرضتها من شدة التحذير والإيعاد
حمر على نظر العدو كأنما بدم يخط بهن لا بمداد
يقدمن إقدام الجيوش و باطل أن ينهزمن هزائم الأجناد
وتكون سوطا للحرون إذا ونى وعنان عنق الجامح المتمادى
ترقى وتلدغ فى القلوب وان يشأ حط النجوم بها من الأبعاد

٤ — ومما يتصل بنبل الصابى وسموه ورغبته فى حسن الأحدوثة ورفعة شأنه بين النابهين من معاصريه ما وقع بينه و بين المتنبى . ذلك انه راسل أبا الطيب فى أن يمدحه بقصيدتين ووسط بينه و بينه رجلا من وجوه التجار، فقال أبو الطيب :

" قل : والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك، ولا أوجب علىّ فى هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبته، وأنا ان مدحتك تنكّر لك الوزير — يعنى المهلبى — وتغير عليك، لأننى لم أمدحه ، فان كنت لا تبالى هذه الحال فأنا أجيبك الى ما التمست ، وما أريد منك منالا، ولا عن شعرى عوضا" .

وكان الصابى عرض عليه خمسة آلاف درهم[1]، فكان المتنبى بذلك أعرف منه بمقتضيات الأحوال . وفى هذا الخبر بيان لمنزلة الصابى فى صدر رجل كالمتنبى و إشارة الى ما كان يسمو إليه من التطلع الى حظوظ الوزراء والملوك الذين ظفروا بمدائح ذلك الشاعر العظيم .

(١) ص ٣٤٦ ج ١ ياقوت .

٥ — وقد نالت الدنيا من الصابى ما نالت، وطمع الصاحب ابن عباد فى استقدامه إليه تشوقا أو تشرفا، ولكن الصابى آحتمل عدوان زمانه وظلم أيامه، ولم يتواضع للاتصال بالصاحب صلة التابع بالمتبوع بعد أن كان من نظرائه فى أيام الإقبال (١).

ومن العجيب أن هذا الإباء لم يغير الصاحب الذى عُرف عنه الطمع المفرط فى استعباد الكتاب والشعراء، فظل يحنو عليه ويبره ويعترف بأنه أحد أربعة من كتاب الدنيا فى عصره. وفى أخبار الصاحب آعتذار رقيق من الصابى عن تخلفه عن حضرة الصاحب (٢).

تلك الجوانب المشرقة من نفس ذلك الكاتب جعلت منه قيثارة إنسانية كثيرة الرجع والحنين. لقد عرف حلو العيش ومره، فكان له بذلك أصدقاء أدناهم منه النعيم وأقصاهم عنه البؤس، وتلك أزمة يعانيها كل رجل كريم النفس عرف بأساء الحياة ولينها ورأى كيف تتغير الأخلاق وتتبدل النفوس. ولننظر كيف يقول فى خطاب بعض الأصدقاء:

"لو حملت نفسى على الآستشفاع والسؤال، لضاق علىّ فيه المرتكض والمجال، لأن الناس عندنا، ما خلا الأعيان الشواذ الذين أنت بحمد الله أولهم، طائفتان: طائفة مجاملة ترى أنها قد وفتك خيرها، إذا كفتك شرها، وأجزلت لك رفدها، إذا أجنبتك كيدها، ومكاشفة تنزو إلى القبيح نزو الجنادب، أو تدب دبيب العقارب، فان عوتبوا حسروا قناع الشقاق، وإن غولطوا تلثموا بلثام النفاق، والفريقان فى ذلك كما قلت منذ أيام:

أيارب كل الناس أبناء علة ... أما تعثر الدنيا لنا بصديق!
وجوهٌ بها من مضمَر الغل شاهدٌ ... ذوات أديم فى التفاق صفيق
إذا اعترضوا عند اللقاء فانهم ... قذى لعيون أو شجا لحلوق
وإن أظهروا برد الوداد وظله ... أسروا من الشحناء حر حريق
اخو وحدة قد آنستنى كأننى ... بها نازل فى معشر ورفيق
فذلك خير للفتى من ثوائه ... بمسبعة من صاحب وصديق (٣)

(١) ص ٧٣٧ ج ١ ياقوت. (٢) ص ٣٣٥ و٣٣٦ ج ٢ (٣) ص ٣٤٠ و٣٤١ ج ١ ياقوت.

٦ — وبمناسبة هذا الشعر نقرر أن الصابى يمتاز بين معاصريه من الكتاب برقة الشعر وعذوبته، ويكاد يمر على أنه شاعر مقل، ولهذا أهميته فى تقدير كفايته النثرية، إذا لاحظنا أن النثر الفنى الذى أُغرم به معاصروه هو نثر شعرى، لا يختلف عن الشعر إلا فى الوزن وفى بعض الأغراض .

ومن جيد شعره قوله فى القد الرشيق يشبَّه بالغصن الرطيب :

إن نحن قسناك بالغصن الرطيب فقد ... خفنا عليك به ظلما وعدوانا

الغصن أحسن ما نلقاه مكتسيا ... وأنت أحسن ما نلقاك عريانا

وقوله فى أثر العناق :

الى الله أشكو ما لقيت من الهوى ... بجارية أمسى بها القلب يلهجُ

اذا امتزجت أنفاسنا بالتزامنا ... توهمت أن الروح بالروح يمزج

كأنى وقد قبلتها بعد هجعة ... ووجدىَ ما بين الجوانح يلعج

أضفت الى النفس التى بين أضلعى ... بأنفاسها نفسا الى الصدر تولج

فان قيل لى اختر أيما شئت منهما ... فإنى الى النفس الجديدة أحوج

وبديع الزمان فى المقامة الجاحظية يدلنا على فهم أهل ذلك العصر للرجل البليغ، فهو عندهم : "من لم يقصر نظمه عن نثره، ولم يزر كلامه بشعره"[1] وكذلك كان الصابى : فهو يجيد فى الصناعتين إجادة لم تتفق لغيره إلا قليلا .

---

(١) راجع المقامة الجاحظية ص ٧٧

١١ - رسائل الصابى

١ — أما نثر الصابى فهو فى الأغلب موضوعىّ، لأنه فى أكثر الأحيان يتكلم عن شئون خاصة بالدولة التى يخدمها، ويندر أن يتحدّث عن نفسه . وهى مهمة دقيقة لا يوفّق الى أدائها على الوجه الأكمل إلا الكتّاب الفحول . وأوّل ما يروعنا من نثر الصابى فناء روحه فى البيئة الاسلامية التى يعيش فيها، فهو مع بعده عن الإسلام يتحدّث بلغته، وتجرى تعابيره وأخيلته وكأنما تستمد وحيها من القرآن، وهو فى هذا الباب مسلم أكثر من المسلمين . وإنه ليصف الله عز شأنه فيقول : "لا تحـده الصفات، ولا تحوزه الجهات، ولا تحصره قرارة مكان، ولا يغـيره مرور زمان، ولا تمثـله العيون بنواظرها، ولا تتخيله القـلوب بخواطرها، فاطر السموات وما تظلّ، وخالق الأرض وما تقلّ، الذى دل بلطيف صنعته، على جليل حكمته، وبين بجلىّ برهانه، عن خفىّ وجدانه، وآستغنى بالقدرة عن الأعوان، وآسـتعلى بالعزة عن الأقران، البعيـد عن كل معادل ومضارع، الممتنـع على كل مطاول ومقارع، الدائم الذى لا يزول ولا يحول، العادل الذى لا يظـلم ولا يجور، الكريم الذى لا يضن ولا يبخل، الحليم الذى لا يعجل ولا يجهل، ذلكم الله ربكم فآدعوه مخلصين له الدين»[1] .

٢ — ولو أننا قارنا هذه العبارات بأمثالها مما تكلم به الشريف الرضى على لسان على بن أبى طالب لرأينا الصابى يسـتقى من نفس المنبع الذى آستقى منه الشريف، ويمكننا بهـذه المناسبة أن نقرر أن كتّاب ذلك العصر كانوا يميلون الى الكلام عن ذات الله وصـفاته وعن رسله وأنبيائه خصوصا فى المواطن التى يخاطبون فيها الجماهير . وفى ذلك دلالة على أن الروح الدينى كان لا يزال حافظا لبعض سحره الأول يوم كان يفعل ما يشاء بألباب الرجال .

---

(١) ص ٨٢ مختار رسائل الصابى . وانظر مثل هذه الفقرة فى ص ٤٣ و ٤٤

٣ — وورود نثر الصابى فى شئون ادارية ومشاكل يومية جعله غير صالح للبقاء، وكذلك نرى أكثر رسائله وعهوده مما تنبو عنه ميول القراء فى العصر الحديث . فان الكتابات التى تعنى بمشاكل اليوم الحاضر وتشغل بالمنازعات اليومية يكون حظها فى الأغلب حظ مقالات الصحف التى تصف الأزمات الوقتية ثم لا تصلح بعد ذلك لأن تكون أثرا فنيا ، وانما يقف نفعها على المشتغلين بالتاريخ . ورسائل الصابى كذلك لا تنفع فى جملتها إلا من يهتمون بتاريخ ذلك العهد من عهود الدولة العباسية . وهى صريحة فى أن الخلفاء كانوا لا يملكون شيئا ، وانما يستبد بالأمر من يملك باسمهم من الأمراء والوزراء . وأى أثر أدل على ضعف الخلفاء من هذه العبارة التى وردت على لسان الخليفة الى أهل البصرة :

"وأمير المؤمنين يعلمكم أن عز الدولة يده التى يبطش بها ، وعدته التى يعول عليها ، ويأمركم بالجهاد معه ، والنصر له ، والكون على كل مخالف عليه ومنازع له . وقد قرن أمير المؤمنين العهد فى ذلك عليكم بعهد البيعة الحاصلة فى أعناقكم ، وجعلكم فى أضيق حرج من التقصير أو التعذير أو المراقبة أو المخاتلة ، وليس لكم صلاة ولا زكاة ولا عقد ولا مناكحة ولا معاملة إلا مع طاعته والاخلاص له سرا وجهرا وقولا وفعلا ، فاعلموا ذلك من رأى أمير المؤمنين وآعملوا عليه واعتمدوه وانتهوا اليه"[1] .

٤ — فاذا تركنا ما تنبئ عنه العهود التى كتبها الصابى على ألسنة الخلفاء من غلبة الديلم واستبدادهم بمصالح الدولة ، وأقبلنا نتلمس الحقائق الباقية من آراء الصابى وجدناها قليلة ، ورأينا شهرة الرجل قائمة على أنه كان آلة ماضية فى يد من كتب لهم من الخلفاء والوزراء ، والظاهر أن تأثيره من هذه الناحية كان قويا جدا ، حتى استباح لنفسه أن يقول :

وقد علم السلطان أنى أمينهُ ... وكاتبه الكافى السديد الموفق
أؤازره فيما عرا وأمده ... برأى يريه الشمس والليل أغسق
يجدد بى نهج العلا وهو دارس ... ويفتح بى باب الهدى وهو مغلق

(١) ص ٢٠٨

فيمناى يمناه ولفظىَ لفظه وعينى له عين بها الدهر يرمق
ولى فِقَر تضحى الملوك فقيرة اليها لدى أحداثها حين تطرق
أرد بها رأس الجموح فينثنى وأجعلها سوط الحرون فيعنق
فإن حاولتْ لطفا فماء مروّق وإن حاولت عنفا فنار تألق (١)

وقد أشار الرضى فى رثائه له الى هذه الناحية من قوته فقال :

من للملوك يحز فى أعدائها بظبىّ من القول البليغ حِداد
من للممالك لا يزال يلمها بسداد أمر ضائع وسداد
من للجحافل يسترل رماحها ويرد رعلتها (٢) بغير جلاد
من للموارق يسترد قلوبها بزلازل الإبراق والإرعاد (٣)

٦ — وفى الحق أننا لا نجد فى رسائل الصابى ما يلفت النفس اليه إلا بعض الفقرات الوصفية التى تمثله لنا رجلا فنانا يحكم القول، ويجيد الوصف، وهذه الفقرات قليلة أيضا، وهى غريقة فى لجج إسهابه وتطويله هنا وهناك، فمن ذلك ما جاء فى رسالته عن المعركة التى دارت فى آمد آخر رمضان سنة ٣٦٢ بين المسلمين وبين الروم :

"وتلوم أصحابنا بها (أى بآمد) يريحون، والكفرة على مسافة يوم منهم مقيمون، مرة تقدم بهم الآجال، ومرة تحجم بهم الأوجال، ثم تدانى الفريقان، والتقت حلقتا البطان (٤) ... فثبت الطغاة اغترارا بوفور عددهم، ومحاماة عن صاحبهم وعظيم كفرهم، وأخذ الأولياء منهم بالمخنق، وصدقوهم القتال فى المعترك الضيق، فلما استعرت الملحمة، وعلت الغمغمة، ودارت رحى الحرب، واستحر الطعن والضرب، واشتجرت سمر الرماح، وتصافحت بيض الصفاح، تداعى الأولياء بشعار أمير المؤمنين المنصور، وتنادى الكفار بالويل والثبور، فنكصوا على أقدامهم مجدين

---

(١) اليتيمة ص ٥٠ ج ٢ (٢) الرعلة : الجيش الكثير . (٣) ص ٢٩٦ ج ١ ديوان الشريف الرضى . (٤) البطان الحزام يجعل تحت بطن البعير، و يقال التقت حلقتا البطان للامر اذا اشتد .

فى الهزيمة، وآعتدّوا الحشاشات لو سلمت لهم من أعظم الغنيمة، وآستلحمتهم السيوف، واحتكمت فيهم الحتوف، وأخذ المسلمون منهم الثار، وعجل الله بأرواحهم الى النار"(١).

٧ — وقد تصفحنا رسائله غير مرة لنرى أثر الحكمة فيها فوجدناه ضئيلا، ولم يستقر رأينا فيه إلا على فكرة واحدة: هى أنه كان خبيرا بنفوس أهل عصره، وكان لذلك موفقا فى الوصول الى مرضاة من يخدمهم من الرؤساء، وإرهاب من يكتب فى زجرهم من العصاة والثائرين، وكان يعرف ما يصح أن يسمى "سياسة القول" يدل على ذلك قوله فيما يجب أن تكون عليه "لغة المنشورات الرسمية" فيما كتب عن المطيع لله الى الوزير المهلبى سنة ٣٥١ :

"واذا عرض من ذلك ما تعلمه الخاصة بوفور ألبابها، وتجهله العامة بقصور أذهانها. وكانت أوامره — يريد أمير المؤمنين — فيه خارجة اليك والى أمثالك من أعيان رجاله وأماثل عماله، والذين يكتفون بالإشارة، ويجتزئون بيسير الإبانة والعبارة، لم يدع أن يبلغ من تلخيص اللفظ وإيضاح المعنى الى الحدّ الذى يلحق المتأخر بالمتقدّم، ويجمع بين العالم والمتعلم، ولا سيما اذا كان ذلك مما يتعلق بعامات الرعية، ومن لا يعرف إلا الظواهر الجلية، دون البواطن الخفية، ولا يسهل عليه الانتقال من العادات المتكررة، الى الرسوم المتغيرة، ليكون القول المشروح لمن برز فى المعرفة مذكّرا، ولمن تأخر فيها مبصّرا، ولأنه ليس فى الحق أن تمنع هذه الطبقة من برد اليقين فى صدورها، ولا أن يقتصر على اللمحة الدالة فى مخاطبة جمهورها، حتى اذا آستوت الاقدام بطوائف الناس فى فهم ما أمروا به، وفقه ما دُعُوا اليه، وصاروا فيه، على كلمة سواء، لا يعترضهم شك الشاكين، ولا آسترابة المستريبين، اطمأنت قلوبهم، وآنشرحت صدورهم، وسقط الخلاف بينهم، وآستمر الاتفاق فيهم، وآستيقنوا أنهم مسوسون على آستقامة فى المنهاج، ومحروسون من جرائر الزيغ والاعوجاج، فكان الانقياد منهم وهم دارون عالمون، لا مقلّدون مسلّمون، وطائعون مختارون، لا مكرهون مجبرون(٢).

(١) ص ٥٠ (٢) ص ٢٠٩ و ٢١٠

٨ — على أن فى الرسائل التى كتبها عن الخلفاء فقرات تنحو منحى الرسائل الاخوانية، وتجرى فيها المعانى طلقة رقيقة كأنفاس العتاب، فقد كتب عن الطائع لله الى عضد الدولة يقول :

"أما بعد فإنك من المنزلة العالية عند أمير المؤمنين بحيث يقتضيه تأهيله إياك لها، وإنافته بك إليها، ألّا يصبر منك على حدوث قطيعة، ولا يغضى لك على اعتراض جفوة، ولكنه يوجب فى الحقوق بينه وبينك، والأواصر الممتهدة عنده لك، أن يجم صفوة الحال عما يشوبها، وينفيها مما يعيبها، ويتأناك الى أن تعود من ذاتك الى ملازمة طبعك السليم، وسننك المستقيم، ويعتقد أنك منه كالعين الناظرة التى تصان عما يقذيها، واليد الباطشة التى تحفظ عما يدويها"(١).

غير أنى ألاحظ أن هذه الفقرة استغلال لقول ابن الرومى فى العتاب :

لا أجازيك من غرورك إيا ى غرورا وقيت سوء الجزاء
بل أرى صدقك الحديث وما ذا ك لبخل عليك بالإغضاء
أنت عينى وليس من حق عينى غض أجفانها على الأقذاء

ومن المعانى الوجدانية قوله على لسان عز الدولة وقد نقلت ابنته المزوّجة بعدة الدولة أبى تغلب إليه بالموصل :

" قد توجه أبو النجم بدر الحرمى وهو الأمين على ما يلحظه، الوفىّ بما يحفظه، نحوك ياسيدى ومولاى أدام الله عزك بالوديعة، وإنما نقلت من وطن الى سكن، ومن مغرس إلى معرس، ومن مأوى برّ وانعطاف، إلى مثوى كرامة وإلطاف، ومن منبت درّت لها نعماؤه، إلى منشأ يجود عليها سماؤه، وهى بضعة منى انفصلت إليك، وثمرة من جَنَى قلبى حصلت لديك، وما بان عنى من وصلتُ حبله بحبلك، وتخيرت له بارع فضلك، وبوأته المنزل الرحب من جميل خلائقك، وأسكنته الكنف الفسيح من كرم شيمك وطرائقك، ولا ضياع على ماتضمه أمانتك، ويشتمل عليه حفظك ورعايتك"(٢).

---

(١) ص ٢٠١ (٢) ص ١٩١ ج ١ يتيمة .

وقد لاحظ مؤلف اليتيمة أن الصابى استمدّ روح هذا الخطاب مما كتبه جعفر بن محمد ابن ثوابة عن المعتضد الى ابن طولون فى ذكر ابنته قطر الندى المنقولة إليه[١].

٩ — ومما لاحظناه على الفقرة السالفة وما لاحظه الثعالبى على الفقرة الأخيرة يظهر بوضوح أن الصابى كان يجتهد فى آستغلال ما ترك الأولون من بديع المنظوم والمنثور بطريقة ساحرة خفى بها على أكثر معاصريه ما أخذه من روائع الأدب القديم .

١٠ — وبالرغم من المؤاخذات التى واجهنا بها نثر الصابى فإننا نعترف بأنه نجح فى ناحيتين :

الأولى — ظهوره بمظهر التفوّق فى لغته الفنية الزاخرة التى وسعت ما وسعت من ضروب التعابير والأخيلة والصور فى الموضوعات الكثيرة التى جرى فيها قلمه ، فاننا لا نكاد نجده يكرر معنى أو يعيد لفظا إلا فى أحوال قليلة تغتفر لكاتب يحمل على القول ويساق الى البيان ، وكتابته مع مافيها من التزام السجع سهلة مقبولة يقل فيها التكلف ويغلب عليها الطبع .

الثانية — سعة حيلته فى التوفيق بين الخلفاء والأمراء والوزراء ، فقد كان عصره عصر اضطراب وفوضى ، وكان من العسير تحديد مايصلح فى التخاطب بين تلك القوى المختلفة التى كانت تتنازع الجاه والسلطان وتعرف كيف تحاك الدسائس وتنصب الأشراك ، وكان يزيد فى حرج الصابى ودقة موقفه أنه كان مسئولا عما يصدر من ديوان الرسائل ، فكان لذلك الحرج وتلك المسئولية أثر قوىّ فى رياضة نفسه وتوجيهها الى حسن التدبير فيما تقضى به تكاليف منصبه الخطير . على أن ذلك الحزم لم يلازمه فى جميع الظروف : فقد وقعت فى إحدى رسائله لفظة عدّها عضد الدولة تعريضا به ، وأسرّها فى نفسه إلى أن ملك العراق فحبسه وآستصفى أمواله[٢] . وقضى لذلك بقية أيامه فى عسر دائم أنساه ما مرّ به من طيبات الحياة .

---

(١) ص ١٩١ و ١٩٢ ج ١ يتيمة . (٢) ص ٣٢٧ ج ١ ياقوت .

١٢ – أبو عامر بن شهيد

آل شهيد — حياة أبي عامر وصبواته — ضجره من المرض — وصاياه المحزنة

١ — "ابن شهيد" اسم يطلق على عدة رجال من أعلام الأندلس، ينتسبون الى شهيد بن عيسى بن شهيد، مولى معاوية بن مروان بن الحكم، وكان من سبي البرابر، وقيل إنه رومي[١]. وأشهر بني شهيد أبو عامر أحمد بن عبد الملك، وهو حفيد ابن شهيد وزير الناصر عبد الرحمن الأموي، وكان ابن شهيد الوزير معروفا بالدهاء وحسن التدبير[٢]، وكان كذلك من أبرع الشعراء، وهو الذي يقول :

ترى البدر منها طالعا فكأنما ... يجول وشاحاها على لؤلؤ رطب

بعيدة مهوى القرط مخطفة الحشى ... ومفعمة الخلخال مقعمة القلب[٣]

من اللائى لم يرحلن فوق رواحل ... ولاسرن يوما فى ركاب ولا ركب

ولا أبرزتهن المدام لنشوة ... وشدو كما تشدو القيان على الشرب[٤]

٢ — ولد أبو عامر سنة ٣٨٢ هـ، وقد ورث عن أجداده الغرام بمظاهر الصبوة والفتوة، والشغف بملاعب الحسن والجمال، ولم يقدر له أن يظفر بما ظفر به أجداده من أسباب الجاه والمال والملك، لأن ثقل سمعه حجبه عن الاتصال بالملوك والوزراء[٥]؛ ولكنه انقاد لشبابه وهواه، وأسلم زمامه لفطرته وطبعه، فجاء شعره ونثره فى أعلى درجات البيان .

---

(١) نفح الطيب ص ٣١ ج ٢ طبع ليدن . (٢) نفح الطيب ص ٢٤٦ ج ١

(٣) القلب بالضم سوار المرأة، والمقعم بالقاف من القعم بالتحريك، وهو كما نص الفيروزابادى ميل وارتفاع فى الأليتين، والمراد هنا وصف السوار بالضيق لامتلاء المعاصم .

(٤) فى هذا البيت إشارة الى أن الحرائر ما كن يجتمعن على الشراب .

(٥) أنظر الذخيرة ص ١٢٣ ج ١

٣ — كان همّ أبي عامر أن "يعيش" ولذلك أجمع من عرضوا لذكره على وصفه بالتهتك[١] .

والعيش في عرف أبي عامر بن شهيد، هو مجموعة من الحسن والخمر والأدب، فالحياة عنده وجه أصبح ، أو كأس مترعة، أو رسالة أنيقة ، أو قصيدة بديعة، فان خلت الدنيا من بعض ذلك فهي لغو وفضول، وعيش الأديب فيها عبء ثقيل .

وماظنّ القارئ برجل يبيت في الكنائس لينعم بما فيها من الخمر العتيق والحسن الطريف، ثم يقول في وصف القسيس والدير والرهبان :

ولرب حانٍ قد شممت بديره ... خمر الصبا مزجت بصرف عصيره
في فتية جعلوا السرور شعارهم ... متصاغرين تخشعًا لكبيره
والقس مما شاء طول مقامنا ... يدعو بعود حولنا بزبوره
يهدى لنا بالراح كل مخفّر[٢] ... كالخشف خفّره التماح خفيره
يتناول الظرفاء فيه وشربهم ... لسلافه والأكل من خنزيره[٣]

أو يتعرض لجارية من أهل قرطبة ذهبت للصلاة (وأمامها طفل لها كأنه غصن آس أو ظبي يمرح في كناس) فتنصرف مروعة خشية أن يفضحها بشعره، فيتبعها ويقول :

وناظرة تحت طيّ القناع ... دعاها إلى الله بالخير داعي
سعت خفية تبتغي منزلا ... لوصل التبتل والانقطاع
فجاءت تهادى كمثل الرءوم[٤] ... تناغي غزالا بروض اليفاع[٥]
وجالت بموضعنا جولة ... فحلّ الربيع بتلك البقاع

---

(١) وصفه صاحب نفح الطيب (بالمنهمك في بطالته) ص ٣١٩ ج ١ وتحدّث عنه صاحب الذخيرة فقال : (أبو عامر ابن شهيد فتى الطرائف ؛ كان بقرطبة في رقته وبراعة ظرفه خليعها المنهمك في بطالته ؛ وأعجب الناس تفاوتا بين قوله وفعله ، وأحطهم في هوى نفسه ، وأهتكهم لعرضه ، وأجرأهم على خالقه) ص ٢٦ ج ١ (٢) المخفر : الممنوع ، والخشف بالتثليث ولد الظبي . (٣) راجع نفح الطيب ص ٣٤٥ ج ١ (٤) الرءوم : الظبية الألوف . (٥) واليفاع ما ارتفع من الأرض .

obeikandi.com

أتتنا تبختر فى مشيها ... فحلت بواد كثير السباع
وريعتْ حذارا على طفلها ... فناديت يا هذه لا تُراعى
غزالك تفرَق منه الليوث ... وتنصاع منه كماة المصاع (١)
فولت وللمسك فى ذيلها ... على الأرض خط كذيل الشجاع (٢)

٤ — وكان مع تهتكه كريم النفس محمود الخلال حتى لتراه أشرف الناس إذ يقول :

إن الكريم إذا نالته مخمصةٌ ... أبدى الى الناس شبعا وهو طيان (٣)
يحنى الضلوع على مثل اللظى حرقا ... والوجه غمرٌ بماء البشر ملآن

أو حين يقول :

ألمتُ بالحب (٤) حتى لو دنا أجلى ... لما وجدت لطعم الموت من ألم
كلا الندى والهوى قدما ولعت به (٥) ... ويلى من الحب أو ويلى من الكرم

وذكر ابن حيان أن أبا عامر (كان من أصح النـاس رأيا لمن آستشاره ، وأضلهم عنه فى ذاته ، وأشدهم جناية على حاله ونصابه ، وكان له فى الكرم والجود آنهماك مع شرب وبطالة حتى شارف الإملاق (٦)) .

ومن العجيب فى تشابه الحظوظ أن النقاد الفرنسيين يصفون (لافونتين) بهذا الوصف ، فيذكرون (أنه كان من أصح الناس رأيا لمن آستشاره ، وأضلهم عنه فى ذاته (٧)) ، وما أكثر ما يتشابه رجال الأدب فى سوء الحال !

---

(١) الكماة جمع كمىّ وهو الشجاع ، والمصاع الضرب بالسيف . (٢) الشجاع : الذكر من الحيات .

(٣) طيان : من الطوى وهو الجوع . وفى رواية أخرى (ريا وهو ظمآن) : أنظر هامش النفح ص ٤١٠ ج ١

(٤) وفى رواية : أخرى « كلفت بالحب » . (٥) وفى رواية أخرى « وذادنى كرمى عمن ولعت به » وهى أفصح من الرواية الثالثة «وعاقنى كرمى» . (٦) الذخيرة ص ٢٩٤ ج ١

(٧) استطاع La Fontaine أن يكون أحكم الناس ، وأن يفرض حكمته فى شعره على الفرنسيين من شباب وكهول ، وأن يظل فى طليعة الحكماء على اختلاف الأجيال ، ولكنه عجز عن الظفر باستقامة الخلق فى حياته الشخصية : فلم يكن لزوجته ولا ولده من رعايته نصيب . وسبحان من تفرّد بالكمال !

٥ — قلت : إن أبا عامر بن شهيد كان يحب الحياة حبا شديدا، وكان يرى العيش كل العيش فى معاقرة الجمال والصهباء ، فلنذكر الآن أنه كان لذلك من أشد الناس إحساسا بكراهة الموت ، وقد بلغ من تفزعه أن شعر معاصروه جميعا بألمه وآمتعاضه وتهالكه على التشبث بأذيال الحياة .

قال آبن بسام : " ولما طال بأبى عامر ألمه ، وتزايد سقمه ، وغلب عليه الفالج الذى عرض له فى مستهل ذى القعدة سنة خمس وعشرين وأربعمائة، لم يعد له حركة ولا تقلب، وكان يمشى الى حاجته على عصا مرة ، وآعتمادا على انسان مرة ، الى قبل وفاته بعشرين يوما فانه صار حجرا لا يبرح ولا يتقلب، ولا يحتمل أن يحرك لعظيم الأوجاع مع ضغط الأنفاس وعدم الصبر حتى هم بقتل نفسه (١) " .

فلنتصور قسوة المرض التى تحمل رجلا كابن شهيد على التفكير فى الانتحار ، ولنقرأ محزونين قوله فى ذلك :

أنوح على نفسى وأندب نبلها ... إذا أنا فى الضراء أزمعت قتلها
رضيت قضاء الله فى كل حالة ... علىّ وأحكاما تيقنت عدلها
أظل قعيد الداء تجنبنى العصا ... على ضعف ساق أوهن السقم رجلها
ألا رب خصم قد كفيت وكربة ... كشفت ودار كنت فى المحل وبلها
ورب قريض كالجريض (٢) بعثته ... الى خطبة لا ينكر الجمع فضلها
فمن مبلغ الفتيان أن أخاهمو ... أخو فتكة شنعاء ما كان شكلها
عليكم سلامٌ من فتى عضه الردى ... فلم ينس عينا ثبّتت فيه نبلها
يبين وكف الموت يخلع نفسه ... وداخلها حب يهوّن ثكلها

ولم يفت ابن شهيد أن يظل على عنف المرض ظريف الحس والروح ، فقد حدث أبو بكر المصحفى قال :

(١) الذخيرة ص ١٦٥ ج ١ (٢) الجريض بالجيم الريق ، وهى فى نسخة الذخيرة بالحاء المهملة .

دخلت يوما على أبى عامر بن شهيد، وقد ابتدأت علته التى مات منها، فأنس بى وجرى الحديث الى أن شكوت له تجنى بعض إخوانى علىّ ونفاره عنى، فقال : سأسعى لإصلاح ذات البين . فاتفق لقائى لذلك المتجنى مع بعض إخوانى وأعزهم علىّ، فلما رآنى موليا عن ذلك الصديق أنكر علىّ وسأل عن السبب الموجب. فأخبره وزادا فى مشيهما حتى لحقانى، وعزم علىّ فى تكليم صاحبى، وتعاتبنا عتابا أرق من الهوى، وأشهى من الماء على الظما، حتى جئنا دار أبى عامر، فلما رآنا جميعا ضحك وقال : من كان تولى إصلاح ما سررنا بفساده؟ قلنا : قد كان ما كان! فاطرق مليا ثم أنشد :

من لا أسمى ولا أبوح به ... أصلح بينى وبين من أهوى
أرسلت من كبدى الهوى فدرى ... كيف تداوى مواضع البلوى
ولى حقوق فى الحب ظاهرة ... لكن إلفى يعدها دعوى (١)

وحدث المصحفى أيضا قال : دخلت عليه يوما فى تلك العلة ومعى غلام وسيم من إخواننا، وكان أبو عامر قبل ذلك يحب ممازحته فينافره، حتى خاطب أبو عامر بعض إخوانه بشعر مسه فيه بطرف لسانه، فقال له ذلك الغلام : هجوتنى يا أبا عامر دون أن تتثبت فى أمرى، ولا تعلم من سرى ما يوجب ذلك، فقال : علىّ تكفيره بما يمحوه من القراطيس والصدور . وكان ذلك إثر صلاة العشاء الأولى، فطفنا بالجامع ثم انصرفنا اليه فأنشدنا :

ألا بأبى زائر فى العتم ... بوجه يجلّى سواد الظُّلم
تكتّم بالليل فى ظله ... وهل يمكن الصبح أن يكتتم
أتى يستجير الينا به ... كما جاور البان رطب العُنم (٢)

وقد أخذ ابن شهيد يخاطب بالشعر أحبابه وأصدقاءه خطاب الوداع فأرسل الى أبى محمد ابن حزم هذه الأبيات :

---

(١) الذخيرة ص ١٦٣ ج ١ (٢) للقصيدة بقية طويلة يجدها القارئ فى الذخيرة ص ١٦٤ ج ١

ولما رأيت العيش ولّى برأسه ... وأيقنت أن الموت لاشك لاحق
تمنيت أنى ساكن فى عباءة ... بأعلى مهب الريح فى رأس شاهق
خليلىّ من ذاق المنية مرة ... فقد ذقتها خمسين قولة صادق
كأنى وقد حان ٱرتحالى ولم أفز ... قديما من الدنيا بلمحة بارق
فمن مبلغٌ عنى ابن حزم وكان لى ... يدا فى ملماتى وعند مضايق
عليك سلام الله إنى مفارق ... وحسبك زادا من حبيب مفارق
فلا تنس تأبينى اذا ما فقدتنى ... وتذكار أيامى وفضل خلائق(١)

٦ — وكان ابن شهيد يشعر أنه أهلٌ لأن يُبكَى حين يموت، ويقول فى ذلك :

سقى الله فتيانا كأن وجوههم ... وجوه مصابيح النجوم الزواهر
اذا ذكرونى والثرى فوق أعظمى ... بكوا بعيون كالسحاب المواطر
يقولون : قد أودى أبو عامر العلى ... أقلّوا فقدما مات أبناء عامر
هو الموت لم يُصرف بأجراس خاطب(٢) ... بليغ ولم يُعطف بأنفاس شاعر
ولم يجتنب للبطش مهجة قادر ... قوىّ ولا للضعف مهجة صابر
يحل عُرى الجبار فى دار ملكه ... ويهفو بنفس الشارب المتساكر
وليس عجيبا أن تدانت منيتى ... يصدق فيها أوّلى أمر آخرى
ولكن عجيب أن بين جوانحى ... هوى كشرار الجمرة المتطاير
يحركنى والموت يحفر همّتى(٣) ... ويهتاجنى والنفس عند حناجرى

وهذا حقًا عجيب، فان ابن شهيد ظل يتلهف فى أيام علته المهلكة الى محبوب له اسمه عمرو، وكان حبه له مشهورا يعرفه القريب والبعيد، ولننظر كيف يتوجع وهو يخاطبه خطاب المفارق المشتاق :

(١) انظر جواب ابن حزم على هذه الابيات فى ص ١٦٦ ج ١ من الذخيرة .
(٢) الخاطب : الخطيب وهى لفظة قليلة الاستعمال وأذكر أنى رأيتها فى كلام الجاحظ، وهى أكثر موازنة لكلمة كاتب وكلمة شاعر .
(٣) يحفر : يقطع .

إقر السلام على الأصحاب أجمعهم وخُصَّ عمرًا بأزكى نور تسليم
وقل له يا أعز الناس كلهم شخصا عليّ وأولاهم بتكريم
الله جارك من ذى منعة ظفرت منه الليالى "بإلف" غير مظلوم
ما كان حبك إلا صوب غادية طيبا وحاشا بحبى فيك للوم
إن شاء صرف الردى تقديم أطوعنا فقد رضيت حماك الله تقديمى
عشنا رفيقين فى بر الهوى زمنا حتى زقا بنوانا طائر الشوم
فشتت نوب الأيام ألفتنا قسرا ولم يغنها طبى وتنجيمى

وحسب القارئ أن يعلم أن آخر شعر قاله ابن شهيد هو هذه الأبيات ، وفيها ودّع إخوانه ومحبوبه آخر وداع :

أستودعُ الله إخوانى وعشرتهم وكل خِرق(١) الى العلياء سبّاق
وفتية كنجوم الغرب نيّرهم يهدى وصاليهمو يردى باحراق
وكوكبًا لىَ منهم كان مغربه قلبى ومشرقه ما بين أطواقى
الله يعلم أنى ما أفارقه إلا وفى الصدر منى حر مشتاق
فان أعش فلعل الدهر يجمعنا وإن أمت فسيسقيه الردى الساقى
لا ضيع الله إلا من يضيعه ومن تخلّق فيه غير أخلاقى!
قد كان بردى إذا ما مسنى كلف لا يثلم الحب آدابى وأعراقى
إنى لأرمقه والموت يضغطنى فأقتضى فرجة ترتد أرماقى

ثم أوصى أن يدفن بجنب صديقه أبى الوليد الزجالى، ويكتب على قبره فى لوح رخام هذه الكلمة :

"بسم الله الرحمن الرحيم. قل هو نبأٌ عظيم أنتم عنه معرضون. هذا قبر أحمد بن عبد الملك ابن شهيد المذنب، مات وهو يشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده

(١) الخرق بالكسر : السخىّ أو الظريف فى سخاوة، والفتى الحسن الكريم الخليقة .

ورسوله ، وأن الجنة حق ، والنار حق ، والبعث حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور . ومات فى شهر كذا من عام كذا " .

ويكتب تحت هذا النثر هذه الأبيات وهو يخاطب بها صديقه المدفون :

يا صاحبى قم فقد أطلنا ... أنحن طول المدى هجود!
فقال لى : لن نقوم منها ... ما دام من فوقنا الصعيد
تذكركم ليلة نعمنا ... فى ظلها والزمان عيد
وكم سرور همى علينا ... سحابهُ ثرةٌ تجود
كلٌّ كأن لم يكن تقضَّى ... وشؤمه حاضرٌ عتيد
حصَّله كاتب حفيظ ... وضمه صادق شهيد
يا ويلتا إن تنكبتنا ... رحمة من بطشه شديد
يارب عفوا فأنت مولًى ... قصَّر فى شكره العبيد

قال ابن بسام : وكان أبو عامر كثيرا ما يخشى صعوبة الموت ، وشدّة السَّوق ، فيسَّر الله عليه ، وما زال يتكلم ويرغب الى الله أن يرفق به ، ويكثر من ذكره ، وقد أيقن بفراق الدنيا ، الى أن ذهبت نفسه رحمه الله يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى سنة ست وعشرين وأربعمائة . ولم يُشهد على قبر أحد ما شُهد على قبره من البكاء والعويل .

١٣ – نثر ابن شهيد

١ – اتفق من ترجموا لابن شهيد على وصفه بالبراعة فى الانشاء، فقال ابن حيان : " كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام . وإذا تأملته ولسنه ، وكيف يجر فى البلاغة رسنه ، قلت عبد الحميد فى أوانه ، والجاحظ فى إبانه ، والعجب منه أنه كان يدعو قريحته لما شاء نظمه ونثره فى بديهته ورويته ، فيقود الكلام كما يريد من غير اقتناء لكتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولا رسوخ فى الأدب ، فانه لم يوجد له – رحمه الله – فيما بلغنى بعد موته – كتابٌ يستعين به على صنعته ، ويشحذ من طبعه إلا ما لا قدر له ، فزاد ذلك فى عجائبه ، وإعجاز بدائعه ، وكان فى تمييق الهزل والنادرة الحادّة أقدر منه على سائر ذلك . وشعره عند أهل النقد تصرف فيه تصرف المطبوعين فلم يقصر عن غايتهم . وله رسائل كثيرة فى فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال ، قصار وطوال ، برز فيها شأوه ، وأبقاها فى الناس خالدة . وكان فى سرعة البديهة وحضور الجواب وحدّته مع رقة حواشى كلامه ، وسهولة ألفاظه ، وبراعة أوصافه ، ونزاهة شمائله وأخلاقه ، آية من آيات خالقه[١] " .

وقال الثعالبى : " فنثره فى غاية الملاحة ، وشعره فى غاية الفصاحة[٢] " .

وقال ابن بسام : " وقد أخرجت أنا من أشعاره الشاردة ، ورسائله الباقية الخالدة ، ونوادره القصار والطوال ، وتعريضاته السائرة الأمثال ، ما يحل له الوقور حُباه ، ويحن معه الكبير إلى صباه[٣] " .

وقال الحناط وهو يهاجمه : " الإسهاب كلفة ، والايجاز حكمة ، وخواطر الألباب سهام يصاب بها أغراض الكلام . وأخونا أبو عامر يسهب نثرا ، ويطيل نظمًا ، شامخا بأنفه ،

(١) الذخيرة ص ٩٤ ج ١ (٢) اليتيمة ص ٣٩٤ ج ١ (٣) الذخيرة ص ٩٤ ج ١

ثانيا من عِطفه، مخيلا أنه أحرز السبق فى الآداب ، وأوتى فصل الخطاب، فهو يستصغر أساتيذ الأدباء، ويستجهل شيوخ العلماء .

وابن اللبون اذا ما لُزَّ فى قَرَن لم يستطع صولة البزل القناعيس[١]"

وهذه الآراء التى نقلناها عن ابن حيان والثعالبى والحناط تمثل رأى جمهور الناقدين فى ابن شهيد، وتدلنا على أنه شغل الناس حينا من الزمان. ولو انتقلنا الى رأيه فى نفسه لرأيناه مفتونا أشنع الفتون بما اعتقده من إجادة النظيم والنثير ، والتفوّق البالغ على كتّاب المشرق والمغرب . وقد آن أن يوزن نثره بمعيار النقد ليعرف مافيه من الزائف والصحيح .

٢ — سئل أبو العلاء المعرى رأيه فى شعر ابن هانىء الأندلسى فأجاب : "رحًى تطحن قرونا" وهو جواب حِذق وذكاء، فضلا عما فيه من روعة التصوير . وأخشى أن يكون الأمر كذلك فى نثر ابن شهيد ، فهو فى الأكثر جعجعة وقعقعة وقلقلة فى غير نفع ولا غَناء . ويسوءنا والله أن يكون ذلك ماراه فى نثر ذلك الرجل الذى نعتقد فيه دقة الفهم، ورقة الطبع، وسلامة الذوق ، ولكن ما الحيلة وقد قلبنا نثره على وجوهه، وراجعنا مابقى منه أكثر من عشرين مرة، فلم نزدد إلا اقتناعا بأنه كان فى إنشائه من المتكلفين .

٣ — وربما كان من أسباب الالتواء الذى نشهده فى نثر ابن شهيد غرام الرجل — كان — بمقارعة كتّاب المشرق ، ومواجهة كتّاب المغرب بألوان من الفنّ كان لها فى زمانه بريق يعشى العيون . وكان النثر فى ذلك العصر قد أخذ ينافس الشعر منافسة جدية، واستطاع ابن شهيد أن يناضل معاصريه برسائل محبرة موشاة ، تؤدّى فى عالم النثر ما كانت تؤدّى النقائض فى عالم الشعر ، فوقع له مع الافليلى والحناط وغيرهما منافرات كان لها فى مجالس المغرب دوىّ شديد . هذا مع أن الرجل كان من فحول الشعراء ، وكان يستطيع أن يقارع خصومه بالشعر، وأن يقيم من المعارك الشعرية ما يعيد به عهد الأخطل والفرزدق وجرير

---

(١) الذخيرة ص ٢٣٢ — والبزل جمع بازل وهو البعير يبلغ تسع سنين ، والقناعيس جمع قنعاس بالكسر وهو العظيم من الإبل ، ومن الرجال الشديد المنيع .

من شعراء الهجاء ، ولكنه أراد أن يحيي فى بلاده معارك نثرية كالمعارك التى كانت تقع فى الشرق بين أمثال الخوارزمى وبديع الزمان . وفى هذا إغناء للنثر وسعىٌ الى إمداده بمختلف المعانى والأغراض، ولكنه انحدار بالنثر الى موضوعات لا يصلح لهـا إلا قليلا، فان الهجاء كما تسيغه الطبيعة العربية لا يؤدَّى إلا بالبيت السائر أو الكلمة الشرود .

٤ — ومع ما فى نثر ابن شهيد من القلق والغموض والاضطراب فانه يغرى القـارئ بالبحث عما فيـه من نتاج الفكر والذكاء ، وهو يشبه بعض التلال التى يوقن المتطلع بأن فيها كنوزا ، فلا يزال يقلب أكداس الخزف والتراب حتى يصل الى بعض ما ينشُد من الذهب الدفين .

ومن أمثـلة ذلك أنه اندفع مرة يشتم نحاة قرطبـة ، ويقرع أبا القاسم الافليلى فلم يقل شيئا ذا بال، ولكنه ختم رسالته بهذه الكلمات الخبيثة فى وصف الافليلى :

" ليست مشيته مشية أديب، ولا وجهه وجه أريب، ولا جلسته جلسة عالم، ولا أنفه أنف كاتب، ولا نغمته نغمة شاعر[1] " .

٥ — غير أن ابن شهيد لا يظل فى جميع أحواله أسير القلق والغموض ، فإن له أحيانا يفصح فيها ويبين ، كقوله يخاطب أحد الأمراء :

" من عز بز، ومن ريش طار ، ومن سارت به الأيام سار، جَدٌّ كبا ، وحسامٌ نبـا ، وآمال تفرقت أيدى سـبا . كلمات أنثرها عليك، وآمال أصرفها إليك . كنا قبل أن ترمى بنا النوى مراميها، وتلقى علينا الخطوب مراسيها ، وتمخضنا الأيام محضا ، وتركض بنـا الليالى ركضا، تربَى صحبة، وحليفَىْ صـبوة، قد تخلينا عن الأنساب، وانتسبنا الى الآداب، والدار إذ ذاك صقب، والملتقى كثب، والزمان غِر، وحواصلنا صُفر، نترنم ترنم الحمـام، على زرق الجمـام[2]، ثم ألقت الأيام علينا بكلكل ... ... فنشرنا بكل فج عميق، وأفق سحيق، ونفحت

(١) الذخيرة ص ١٢٣ ج ١ (٢) الجمام : المياه الكثيرة، والمفرد جم ، وهو فى الأصل الكثير من كل شىء .

عليك رياح السد ، وجادتك المنى من تهامة ونجد ، وامتطيت ظهر الجوزاء، وافترشت لبدة العواء[1]، وكلما دعيت للنزال والعراك ، تترست بالثريا وطعنت بالسِّماك ، فزحمت منكب الدهر، وقضيت أربك منه على قصر ، فكان أول حيصتك عن الوفاء، وحيدتك عن رعاية قديم الإخاء، أن تركت المخاطبة، وأضربت عن المكاتبة، خشية أن يكون كلنا عليك، ورغبتنا فيما لديك، وهيهات! يأبى ذلك كرم محض، وهمة علياء نالها خفض، ثم قلت : الحمل على حسن الظن أجمل، والقضاء بأكرم العهد أقبل، قد يشغل بالرؤساء، ويجاذب العظماء، وعينه مع ذاك راعية ، وأذنه واعية ، وإنما الوصل بالفؤاد ، لا بالمداد، والالتقاء بالحلوم ، لا بالجسوم، فانطويت على ود، وثبتّ على صحة عهد ... ... الخ[2]"

وهذا نثر مقبول، لا يؤخذ عليه إلا شيء من التوعر قليل . وأوضح منه وأفصح قوله يصف إحدى المنافرات :

"لما قدم زهير الصقلبي فتى بني عامر، حضرة قرطبة من المرية، وجه أبو جعفر عباس وزيره عن لمة من أصحابنا منهم ابن برد وأبو بكر المروانى وابن الحناط والطبنى ، فسألهم عنى وقال : وجهوا عنه، فوافانى رسوله مع دابة له بسرج محلّى ثقيل فسرت إليه ودخلت المجلس وأبو جعفر غائب، فتحرك المجلس لدخولى وقاموا جميعا إلىّ، حتى طلع أبو جعفر علينا، ساحبا لذيل لم ير أحد سحبه قبله، وهو يترنم، فسلمت عليه سلام من يعرف حق الرجال، فرد رد الطغيان، فعلمت أن فى أنفه نعرة لا تخرج إلا بسعوط الكلام، ولا تراض إلا بمستحكم النظام، فرأيت أصحابى يصيخون إلى ترنمه ، فسألتهم عن ذلك فقال الحناط — وكان كثير الإنحاء علىّ، جالبا فى المحافل ما يسوء إلىّ — : الوزير حضره قسيم من الشعر، وهو يسألنا عن إجازته، فعلمت أنى المراد، فأنشده، وهو :

مرضُ الجفون ولثغةٌ فى المنطقِ

فأخذت القلم وكتبت بديها :

---

(١) العواء : من منازل القمر .

(٢) الذخيرة ص ١١٥ ج ١

مرض الجفون وانثغة فى المنطق ... شيئان جرا عشق من لم يعشق
من لى بألثغ لا يزال حديثه ... يذكى على الأكباد جمرة محرق
ينبى فينبو فى الكلام لسانه ... فكأنه من خمر عينيه سقى
لا ينعش الألفاظ من عثراتها ... ولو آنها كتبت له فى مُهرق

ثم قمت عنهم فلم ألبث أن وردوا علىّ، وأخبرونى أن أبا جعفر لم يرض بما جئنا به من البديه : وسألونى أن أحمل مكاوى الكلام على اختباره، وذكروا أن إدريس هجاه وأفحش، فلم أستحسن الإفحاش، فقلت فيه معرضا إذ التعريض من محاسن القول[1] .

٦ — وهناك رسائل رضى عنها ابن شهيد، وحدثنا فى " التوابع والزوابع " أنه قرأها على شعراء الجن فاستجادوها، وهى رسالته فى صفة البرد والنار والحطب، ورسالته فى الحلواء، وكلماته فى وصف جارية ، ونعت الماء والثعلب والبرغوث والبعوض . وهذه الرسائل فى جملتها تدل على غنى فى اللغة وبراعة فى الصنعة، ولكنها خالية من الروح . ويظهر أن الجن الذين آستجادوها لم يكونوا من أصحاب الأذواق فى نقد الكلام، مع أنهم كانوا من أقطار مختلفة، وصاحبوا الأفذاذ من شعراء الحجاز والشام والعراق !

وأجود ما وقع له فى تلك الرسائل "المستجادة" قوله فى وصف ماء صاف :

"كأنه عصير صباح، أو ذوب قمر لياح"

وقوله فى وصف البعوض :

" تنقض العزائم وهى منقوضة، وتعجز القوى وهى بعوضة، ليرينا الله عجائب قدرته، وضعفنا عن أضعف خليقته[2] " .

ورسالته فى وصف الحلواء قالها تحقيرا لفقيه ثم لقيه فى المسجد الجامع، فلما طالعوا الحلواء «آضطرب به الألم، وآستخفه الشره، فدار فى ثيابه، وأسال من لعابه، وآزورّ جانبه،

(١) ما سماه ابن شهيد تعريضا هو أيضا إفحاش لم نر روايته لأننا لا نستجيز رواية الهجاء القبيح الذى يجرح الأدب والذوق ، وبقية هذا الحديث فى ص ١٥٤ من الذخيرة ج ١ (٢) اليتيمة ص ٣٩٢ ج ١

obeikandl.com

وخفق شاربه » ثم أخذ يدور حول صنوف الحلوى و يصفها واحدا واحدا : فالفالوذج ”مجاجة الزنابير خالطها لباب الحبة، فجاءت أطيب من ريق الأحبة“ والخبيص ”جليد سماء الرحمة، تمخضت به فأبرزت منه زبد النعمة، تجرحه اللحظة، وتدميه اللفظة“، ثم يقول ابن شهيد بعد كلام : ”فأمرت الغلام بابتياع أرطال تجمع أنواعها التى أنطقته، وتحتوى على ضروبها التى صرعته، فجاء بها فوضعها بين يديه، فلما عاينها انحنى عليها بلَبانه، وألقى عليها بجرانه، وجعل يركل برجليه، و يحاحش بفخذيه، مانعا عنها ومدافعا، فصحت به لا عليك حكمها، فجعل يقطع ويبلع، و يوجر فاه ويدفع، وعيناه تبصان، كأنهما جمرتان، وقد برزتا عن وجهه كأنهما خصيتان . وأنا أقول على رسلك يا فلان ! البطنة تذهب الفطنة ! وهو يقول : أُكلها دائم وظلها، حتى التقم جماهرها، وألحق أولها بآخرها، فهبت منه ريح عقيم، قرن إقبالها بالعذاب الأليم، نثرتنا شذر مذر، وفرقتنا فى كل شعب شغر بغر، فالتحفنا منه الظِّربان، وصدق فيه الخبر العيان“ (١).

وعندى أن ابن شهيد فى رسالة الحلواء عارض بديع الزمان فى المقامة البغدادية، والنكتة فى الرسالتين متشابهة، فهى عند ابن شهيد سخرية من فقيه أكول، وعند بديع الزمان استهزاء بفلاح منهوم، ولكن بديع الزمان كان أكثر إصابة لغرضه من ابن شهيد، ولننظر كيف يقول وقد استدرج سواديا بالكرخ (٢) :

”فقلت : فهلم الى البيت نصب غداء، أو الى السوق نشترى شواء، والسوق أقرب، وطعامه أطيب ، فاستفزته حُمَة القرم، وعطفته عطفة النهم، وطمع، ولم يعلم أنه وقع، ثم أتيت شوّاء يتقاطر شواؤه عرقا، ويتسايل جوذابه مرقا (٣)، فقلت : أبرز لأبى زيد من هذا الشواء، ثم زن له من تلك الحلواء، وآختر من تلك الأطباق، وانضد عليها أوراق الرقاق،

---

(١) وردت رسالة الحلواء فى الذخيرة ص ١٣٦ و١٣٧ ج ١ وفى اليتيمة ص ٣٩٢ و٣٩٣ ج ١، وفى النسختين اختلاف شديد، وفيهما كذلك كثير من التحريف . والفقرات التى اخترناها مأخوذة مما صح لدينا نظمه على اختلاف النسختين . (٢) الكرخ محلة كانت فى الجانب الغربى من بغداد . (٣) الجوذاب : خبز يوضع فى التنور ومعه طائر أو لحم .

وشيئا من ماء السماق(١)، ليأكله أبو زيد هنيئا، فانحى الشواء بساطوره، على زبدة تنوره، فجعلها كالكحل سحقا، وكالطين دقا، ثم جاس وجلست، ولا نبس ولا نبست، حتى استوفيناه وقلت لصاحب الحلواء: زن لأبى زيد من اللوزينج رطلين، فانه أجرى فى الحلوق، وأسرى فى العروق، وليكن ليلى العمر، يومى النشر، رقيق القشر، كثيف الحشو، لؤلؤى الدهن، كوكبى اللون، يذوب كالصمغ، قبل المضغ، ليأكله أبو زيد هنيئا. ثم قعد وقعدت، وجرد وجردت، واستوفيناه. ثم قلت: يا أبا زيد! ما أحوجنا إلى ماء يشعشع بالثلج، ليقمع هذه الصارة(٢)، ويفثأ(٣) هذه اللقم الحارة! إجلس، أبا زيد، حتى آتيك بسقاء، يحيينا بشربة من ماء. ثم خرجت، وجلست بحيث أراه ولايرانى، أنظر ما يصنع به، فلما أبطأت عليه قام السوادى الى حماره، فاعتلق الشواء بإزاره، وقال: أين ثمن ما أكلت؟ فقال: ما أكلته إلا ضيفا. فقال الشواء: هاك وآك، متى دعوناك؟ زن يا أخا القحبة عشرين، وإلا أكلت ثلاثا وتسعين! فجعل السوادى يبكى ويمسح دموعه بأردانه، ويحل عقده بأسنانه، ويقول: كم قلت لذلك القُرَيد، أنا أبو عبيد، وهو يقول: أنت أبو زيد!».

وإنما افترضنا ان ابن شهيد عارض بديع الزمان وحاكاه، لأنه كان مشغوفا بأدبه ومعنيا بمعارضته، فقد حدثنا فى «التوابع والزوابع» أنه قابل بأرض الجنّ (زبدة الحقب) صاحب بديع الزمان، وجرت بينهما مصاولة انتصر فيها ابن شهيد. وهذا يدل على أن رسائل بديع الزمان كانت وصلت كاملة الى الأندلس، وفعلت فعلها فى أنفس الأدباء هناك، وأن ابن شهيد كان بها من المعجبين.

٧ — أما وصف الجارية الذى رضى عنه ابن شهيد، وقدّمه كذلك الى شعراء الجنّ فاستجادوه، فهو رسالة فيها فقرات تنم عن قلب غزِل ونفس طروب، وفيها كذلك كلمات تُليح بمغامز الفتك والمجون، وكانت جاريته «أخت نِعمة، وربيبة نَعمة، كأن شعرها على

(١) السماق: حب أحمر صغير شديد الحموضة شجره يشبه الرمان. (٢) الصارة: العطش.
(٣) يفثأ: يسكن.

غرتها الغراء، غراب يسفد حمامة بيضاء ... تكلمك بألحاظها، وتأسوك بألفاظها، تقابلك من خدها بوردة، ومن عينها بنرجسة، كأنما ثغرها من جوهر، وشفتها خيط حرير أحمر، تقبل عليك بقضيب بان، ثمرته رمانتان، وتنفتل عليك بكفل مائج، كأنه كثيب عالج ... المنظر منظر غلام، والمخبر مخبر فتاة، إن علوتها تدفعت اليك، أو علتك تداركت عليك، وإن أعطشك فراشها سقتك من شراب، ان شئت قلت خمرة أو رضاب، أو أجاعك عراكها أطعمتك من لسان، يصل اليك وصول الإيمان[1]".

٨ — ورسالته عن النار والحطب تمثل فزع أهل الأندلس من البرد، ولكنها، كأكثر ما كتب، مثقلة بالصنعة، خالية من الروح. وهى رسالة مهداة الى صديق نفحه بأحمال من الحطب الجزل — والحطب مما يهدى فى تلك البلاد لما يعانى أهلها من قسوة الشتاء — ولننظر كيف يصور اصطدام النار بالوقود:

"حبستنا اليوم خيل البرد مغيرة ... فجعلتُ مجنّى حطبا دل على نفسه، وتشظى من يبسه، فسلطت عليه صاحب الشرر، ورميته منها ببنات الحديد والحجر، فواقعه قليلا، وعاركه طويلا، فكان لها عجيج، وله من حرها ضجيج، ثم ختزلها صريعا، واستولت عليه صعبا منيعا، فبددت شمله وألفت شملها، واستحالت حية لا نستلذ قتلها، ترمى بألوان، وتتهدد بلسان، فلذعت البرد لذعة، ونكزته على فؤاده نكزة، خرّ لها على جبينه، ومات بها من حينه[2]".

٩ — وبعد فان نثر ابن شهيد — على ما فيه من مآخذ وعيوب — دليل على أن الرجل كان يتناول اللغة بعزائم الفحول، وليس يعيبه أن نراه نحن أقل من شهرته، فانا نحكم على أدبه بأذواق تختلف عن أذواق معاصيره أشد الاختلاف. والنثر الفنى كالشعر، له دقائق قلما يتفق فى تذوقها الناقدون. وكان للرجل فى حياته نجاح مرموق، فقد وصل نثره وشعره الى الشرق على عسر الوصول، وتداوله المؤلفون، وكان لا يزال من الأحياء؛ وفى هذا برهان على أن الرجل أمدّ عصره بروحه واستولى بقوة على عرش البيان.

(١) اليتيمة ص ٣٩٤ ج ١ (٢) اليتيمة ص ٣٩٠ ج ١

ولا ننس أن نثر ابن شهيد لم يصـل الينا منه إلا شيء قليـل، ولم يدوَّن منه إلا الجانب البراق، الذى طرب له كتاب الصنعة فى المشرق والمغرب؛ وللفن البراق أعمار قد تقصر وقد تطول . ولو وصلت الينا جملة صالحة من نثره الذى جرى فيـه على سليقته وفطرته، وانحاز فيه الى فيض عقله و روحه، لرجونا أن يكون لنا فيه رأى غير هذا الرأى، وخاصة اذا لاحظنا أن رسائله فى صناعة النقد والبيان تدل على أنه كان من أصفى الناس ديباجة، وأسدهم رأيا، وأصدقهم فراسة، اذا مضى يشرح مزالق الأفكار ومزلات العقول .

ولا ننس أيضا أن ابن شهيد كان يمتح من قليب فكره ، ولم تكن له مراجع للثقافة الأدبيـة ، إلا ما لا قدر له من الكتب كما حدّث ابن حيان، وذلك كان فى عصر مضطرب أشنع اضطراب ، يقاسى شـعراؤه وكتّابه ومتأدبوه أهوالا من الفتن قل أن يصفو معها فكر أو ينضج بيان .

فلنحمد إذن ما أسداه ابن شهيد، فان جهد المقل غير قليل، ولنذكر أننا ننقد وننقض، فى سلامة وعافية لم يحلم بهما أولئك الأسلاف الذين نازلوا الأقدار، ورفعوا أعلامهم بين أمم الصليب فوق هامات الأسود .

فعلى ذكراهم تحيةٌ وسلام !

١٤ – أبو الفضل الميكالى

١ – أسرة الميكالى أسرة قديمة العهد بالمجد فى المدنية الإسلامية، وكان لهذه الأسرة كرامة وسلطان فى القرن الثالث والرابع والخامس . فقد مدحهم البحترى وخدمهم ابن دريد، وتفيأ ظلالهم أبو بكر الخوارزمى ، وبديع الزمان الهمذانى، وغيرهم من أعيان الكتاب والشعراء .

وأشهر أعلام هذه الأسرة فى الأدب الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى المتوفى سنة ٤٣٦ . وكانت له آثار كثيرة لم يبق منها إلا شذرات متفرقة فى يتيمة الدهر وزهر الاداب وثمار القلوب . وهو يلتزم السجع والازدواج فى رشاقة وعذوبة واتساق . وفيه يقول الثعالبى فى مقدّمة فقه اللغة :

"ومن أراد أن يسمع سر النظم، وسحر النثر، ورقية الدهر ، ويرى صوب العقل ، وذوب الظرف، ونتيجة الفضل، فليستنشد ما أسفر عنه طبع مجده، وأثمره عالى فكره ، من مُلَح تمتزج بأجزاء النفوس لنفاستها، وتشرب القلوب لسلاستها، ... وأيم الله ما من يوم أسعفنى فيه الزمان بمواجهة وجهه، وأسعدنى بالاقتباس من نوره، والاغتراف من بحره، فشاهدت ثمار المجد والسؤدد تنتثر من شمائله ، ورأيت فضائل أفراد الدهر عيالا على فضائله ، وقرأت نسخة الكرم والفضل من ألحاظه، وانتهبت فرائد الفوائد من ألفاظه، إلا تذكرت ما أنشدنيه أدام الله تأييده لابن الرومى :

لولا عجائب صنع الله ما نبتت تلك الفضائل فى لحم ولا عصب

وما أنس لا أنس أيامى عنده بفيروزاباد، سقاها الله ما يحكى أخلاق صاحبها من سَبَل القطر : فانها كانت بطلعته البدرية، وعشرته العطرية، وألفاظه اللؤلؤية، ومحاسن أقواله وأفعاله التى يعيا بها الواصفون، أنموذجات من الجنة التى وعد المتقون، فاذا تذكرتها فى تلك المرابع التى هى مراتع النواظر، والمصانع التى هى مطالع العيش الناضر، والبساتين التى إذا

أخذت بدائع زخارفها، ونشرت طرائف مطارفها، طُوِىَ لها الديباج الخسروانى، ونُفِىَ معها الوشى الصنعانى، فلم تشبَّه إلا بشيمه، وآثار قلمه، وأزهار كلمه، تذكرت سحرا وسيما، وخيرا عميما، وارتياحا مقيما، ورَوْحا وريحانا ونعيما" .

٢ — وأظهر الفنون التى كان يجيدها الميكالى هو فن الإخوانيات، ورسائله إلى أصدقائه مشربة بأنفاس الحنين، حتى لتحسبها رسائل عاشق لا رسائل صديق ...

وإليك قوله من رسالة :

" أيامَ ظلُّ العيش رطب، وكفّ الهوى رحب، وشرب الصبا عذب، وما لشرق الأنس غرب[1]" .

وقوله من رسالة ثانية :

"إنما أشكو اليك زمانا سلب ضعف ما وهب، وبجع بأكثر مما متع، وأوحش فوق ما أنس، وعنف فى نزع ما ألبس، فإنه لم يذقنا حلاوة الاجتماع، حتى جرعنا مرارة الفراق، ولم يمتعنا بأنس التلاق، حتى غادرنا رهن التلهف والاشتياق[2]" .

وليتأمل القارئ رقة الحنين فى قوله من كلمة ثالثة :

"أنا اسأل الله تعالى أن يرد علىّ برد العيش الذى فقدته، وفسحة السرور الذى عهدته، فيقصر من الفراق أمده، ويعلو للقاء حكمه ويده، ويرجع ذلك العيش الذى رقّت غلائله، وصفت من الأقذاء مناهله، فلم أهنأ بعده بأنس مقيم، ولا تعلقت يوما إلا بعيش بهيم .

فان ترجع الأيام بعد الذى مضى بذى الأثل صيفا مثل صيفى ومربعى

شددت بأعناق النوى بعد هذه مرائر إن جاذبتها لم تقطّع

وما على الله بعزيز أن يقرب بعيدا، ويهب طالعا سعيدا، ويسهل عسيرا، ويفك من رق الاشتياق أسيرا[3]" .

---

(١) ص ٢٥١ ج ٤ يتيمة (٢) ص ٩٣ ج ٤ زهر الآداب (٣) ص ٩٣ و ٩٤ ج ٤

ومع أن صلته بأبى منصور الثعالبى كانت صلة الأمير المفضِل بالصاحب الأمين فانا نجده يكتب إليه بأجمل ما يوحى الرفق والحنان فيقول :

" كتابى، وأنا أشكو إليك شـوقا لو عالجه الأعرابىّ لما صبا إلى رمل عالج، أو كابده الحلىّ لانثنى على كبد ذات حرق ولواعج، وأذم زمانا يفرق فلا يحسن جمعا، ويخرق فلا ينوى رقعا، ويوجع القلب بتفريق شمل ذوى الوداد، ثم يخل عليهم بما يشفى الصدور والأكباد، قاسى القلب فلا يلين لاستعطاف، جائر الحكم فلا يميل إلى إنصاف، وكم أستعدى على صروفه وأستنجد، وأتلظى غيظا عليه وأنشد :

متى وعسى يثنى الزمان عنانهُ بعـثرة حال والزمان عَثـورُ
فتدرَك آمالٌ وتقضى مآربٌ وتحدث من بعد الأمور أمورُ

وكلا ! فما على الدهر عتب، ولا له على أهله ذنب، وإنما هى أقدار تجرى كما شاء مجريها، وتنفذ كالسهام إلى مراميها، فهى تدور بالمكروه والمحبوب، على الحكم المقدور المكتوب، لا على شهوات النفوس، وإرادات القلوب، وإذا أراد الله تعالى أذن فى تقريب البعيد النازح، وتسهيل الصعب الجامح، فيعود الأنس للقاء الإخوان كأتمّ مالم يزل معهودا، ويجدّد للمذاكرة والمؤانسة رسوما وعهودا، إنه المليّ به والقادر عليه" (١) .

٣ — وقد كان الميكالى يعيش أطيب العيش بين نعمـة الجاه والمـال ، ولكنه كان يشكو زمانه على غير ما كان يشكو البائسون من الكتّاب والشعراء، فنراه يقول :

" يأبى الدهر إلا ولوعا بشمل وصل يشرّده، ونظام أنس يبدّده، ومخلب ظلم يحدده . ولو انبسطت فيه يدى لكسرت جناحه، وخفضت جماحه، ولكنه الحية الصماء لا تستجيب لراق، والداء العضال لا يشفى منه طبيب ولا واق (٢) " .

ولننظر قوله يتوجع لرفيق عليل :

" لو استطعت لخلعت عليه سلامتى سربالا، وأعرته من جسمى صحة وإقبالا، فلست أتهنأ بالعافية مع سقمه، ولا أتمتع بنضارة عيشى مع شحوب جسمه (٣) " .

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٨٩ (٢) ص ٢٥٥ ج ٤ يتيمة . (٣) ص ٢٥٦ ج ٤ يتيمه .

ولسنا نعرف إلى من كتب العبارات الآتية :

” أنا فى مقاساة حرّ الشوق إليك كما اعتاد محموم بخيبر صالب[(١)]، وتذكر الاجتماع معك كما اهتز من صرف المدامة شارب ، وفى تكلف الصبر عنك كطالب جدوى خُلة لا تواصل وفى القلق لفراقك كطائر جوّ أعلقته الحبائل . كتبت هذه الأحرف وأنا أودّ أن مدادها سواد طرفى، وبياضها جلدة بين عينى وأنفى، وحاملها دون سائر الناس كفى . لولا التعلل باللقاء لتصدّعت أكباد وقلوب، وكانت بينى وبين النوى شئون وخطوب . أنا فى مفارقتك كبنات الماء نضب عنها الغدير، ونبات الأرض أخطأه النوء المطير . لا تفارق نفسى فيك أشواقها، حتى تفارق الحمائم أطواقها “ .

٤ — وٱهتمام الميكالى بهذا النوع من الكتابة غرس فيه الحرص على وصف ما يرد عليه من رسائل إخوانه ، فكان قلمه من أفصح الأقلام فى وصف الكتب يتهاداها الأصدقاء، ومن أمثلة ذلك قوله :

”وصل كتاب مولاى وسيدى أبدع الكتب هوادى وأعجازا، وأبرعها بلاغة وإعجازا، فحسبت ألفاظه در السحاب ، أو أصفى قطرا وديمة، ومعانيه در السخاب، بل أوفى قدرا وقيمة ، وتأملت الأبيات فوجدتها فائقة النظم والرصف ، عبقة النسيم والعَرف، فائزة بقداح الحسن والظَّرف، مالكة لزمام القلب والطرف؛ ولا غرو أن يصدر مثلها عن ذلك الخاطر وهو هدف الفِقر والنوادر ، وصدف الدرر والجواهر . والله يمتعه بما منحه من هذه الغرر والأوضاح، كما أطلق فيها ألسنة الثناء والامتداح “ .

٥ — وبجانب هذه البراعة كان الميكالى كريم الأخلاق، وما ألطف ما يقول الثعالبى فيه :

”وكثيرا ما أحكى للإخوان أنى ٱستغرقت أربعة أشهر بحضرته ، وتوفرت على خدمته، ولازمت فى أكثر أوقاتى عالى مجلسه، وتعطرت بغبار موكبه ، فبالله يمينا كنت غنيا عنها لو خفت إثمها أنى ما أنكرت طرفا من أخلاقه، ولم أشاهد إلا مجدا وشرفا من أحواله، وما رأيته ٱغتاب غائبا، أو سب حاضرا ، أو حرم سائلا، أو خيب آملا، أو أطاع سلطان

(١) صلبت الحمى دامت واشتدت .

الغضب فى الحضر، أو تصلى بنار الضجر فى السفر، أو بطش بطش المتجبر، ولا وجدت المآثر إلا ما يتعطاه، والمآثم إلا ما يتخطاه" .

٦ — ونعود فنذكر أن صلة الميكالى بأصدقائه وألّافه آتتهبت أجزاء نفسه بحيث يمكن رجع أدبه الى المعانى النفسية التى توحى بها الصداقة والألفة والحب ، فأدبه مقسّم بين كتاب شوق، أو رسالة عتب، أو كلمة توجع، أو خطاب آقتضاء، أو مألكة تهنئة، أو نميقة ثناء .

والظاهر من كلام عمر المطوعى فى كتابه عن الشعراء أن الميكالى كان بليغ الأثر فى أنفس معاصريه، وأن فريقا منهم كان يؤلف الكتب بارشاده وفى ضوء فكره . وهذا شبيه بالحق: لأن الميكالى فيما يظهر من شعره ونثره كان قوة عظيمة من القوى الأدبيـة ، ولكن ينبغى الآحتياط فى فهم هـذه الفكرة : فقد كان الميكالى غنيا ، وكان بيته ملجأ الشـعراء والكتاب والمؤلفين، فلا مفر من أن يحسب لمجاملته حساب، وأن يقدر الناقد أنه قد ينسب اليه ما ليس له لمكانه من العلم والغنى والجاه .

٧ — صنعة الميكالى فى شعره أظهر منها فى نثره ، فهو حين ينثر سهل الخليقة، فاذا نظم تكلف، وهو يؤثر الجناس على سائر أنواع البديع، والى القارئ قوله :

شـافهَ كفى رشأٌ بقبـلة ما شفتِ
فقـلت إذ قبّلها ياليت كفى شفتى

وقـوله :

من لى بشـمل الأنس أجمعـهُ بشادن حلَّ فيـه الأنس اجمعـهُ
ما زال يعرض عن وصلى فاخدعه فالآن لى لانَ بعد الصـد أخدعه (١)

وهذا كما نرى تكلف ثقيل ممجوج .

وقد يترك الصنعة و يمضى على سجيته فيجيد، من ذلك قوله :

عمر الفتى ذِكرهُ لا طول مدته وموته خزيه لا يومـه الدانى

(١) الأخدع : شعبة من الوريد ، والجمع أخادع

وقـــوله :

كم والد يحـــرِم أولادهُ وخيره يحظى به الأبعـدُ
كالعين لاتبصر ما حولها ولحظها يدرك ما يبـعد

وجملة القول أن الجيد من نثره أكثر من جيد شعره ، وهو فى كلا الفنين صـناع اليد ذكىّ الجنان .

٨ — وسـلطانه على معاصريه له قيمته على أى حال ، فليس الغنى ولا العـلم مما يكفى لأن يكون للرجل حاشية وأنصار أوفياء . وإنمـا يرجع ذلك الى رقة القلب وقوة العقل وخفة الروح ، وهى المقومات الأساسية لحياة المفكر والأديب . وكذلك آستطاع الميكالى أن يستعبد طائفة من أحرار القـلوب والعقول بمـا كان له من صـفاء الذهن ، وقوة القريحة ، وطهارة الوجدان .

١٥ - بديع الزمان

١ — ولد أبوالفضل أحمد بن الحسين فى همذان نحو سنة ٣٥٨، درس اللغة والأدب وتعمق فيهما تعمقا ظهر أثره فى نثره وشعره . وكان فى صباه جميلا فتانا خفيف الروح، وكان لجماله وحلاوة لسانه أثر كبير فى النصر الذى أحرزه فى حياته الأدبية ، فقد أنتقل الى نيسابور سنة٣٨٢، وكانت يومئذ موطنا لأبى بكر الخوارزمى أعلم أهل عصره باللغة والأدب، وأقربهم مكانة من الملوك والأمراء . فبدا لبديع الزمان أن يناظره علنا عند بعض الأمراء، فقبل الخوارزمى بعد تردد، ثم دارت المناقشة يوما أو بعض يوم فى موضوعات أدبية مختلفة فأستطاع بديع الزمان بسرعة بديهته ونضارة صباه أن يجذب اليه أنظار الحاضرين ، فغُلب الخوارزمى وظهرت عليه دلائل الضعف، وسرى فى الأقطار الاسلامية يومئذ أن بديع الزمان أجمل منه شعرا ، وأحلى نثرا، وأقوى حجة، ثم مرض الخوارزمى حزنا ومات قبل أن ينقضى الحول سنة ٣٨٣

وبموت الخوارزمى خلا الجو لبديع الزمان عند الملوك والأمراء والوزراء، وصار يتنقل فى الحواضر الاسلامية بالشرق الى أن أستقر فى هراة، وصاهر أحد علمائها الأعلام، وحسنت حاله، وأقبلت عليه الدنيا، ولكن المنية عاجلته وهو فى سن الأربعين سنة ٣٩٨ وقد أستيقظ فى قبره بعد الدفن فظل يصرخ ويطلب الغوث ، ولكن الناس لم يتنبهوا اليه الا بعد مدة ففتحوا قبره فوجدوه مضطجعا وقد أمسك لحيته بيده ومزق كفنه، ولكنه مات من الرعب والفزع حين يئس من النجاة .

٢ — اهتم كتاب التراجم بحياة بديع الزمان ، وأجمل ما قرأناه فى ترجمته قول الثعالبى فى يتيمة الدهر: "بديع الزمان، ومعجزة همذان، ونادرة الفلك، وبكر عطارد، وفرد الدهر،

وغرة العصر، ومن لم يلق نظيره فى ذكاء القريحة ، وسرعة الخاطر، وشرف الطبع ، وصفاء الذهن ، وقوة النفس ، ومن لم يدرك قرينه فى ظرف النثر وملحه ، وغرر النظم ونكته ، ومن لم ير ولم يرو أن أحدا بلغ ما بلغه من لب الأدب وسره، وجاء بمثل إعجازه وسحره ، فانه كان صاحب عجائب ، وبدائع وغرائب : فمنها أنه كان ينشد القصيدة التى لم يسمعها قط وهى أكثر من خمسين بيتا فيحفظها كلها ويؤديها من أولها الى آخرها لا يخرم حرفا ولا يخل معنى، وينظر فى الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرةً واحدة خفيفة ثم يهذ بها عن ظهر قلبه هذا، ويسردها سردا ... وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة فى معنى بديع وباب غريب فيفرغ منها فى الوقت والساعة ، والجواب عنها فيها، وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطر منه ثم هلم جرا الى الأول ويخرجه كأحسن شيء وأملحه[1]، ويوشح القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من إنشائه فيقرأ من النظم والنثر، ويروى من النثر والنظم، ويعطى القوافى الكثيرة فيصل بها الأبيات الرشيقة، ويقترح عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله فى أسرع من الطرف، على ريق لا يبلعه، ونفَس لا يقطعه، وكلامه كله عفو الساعة، وفيض البديهة، ومسارقة القلم، ومسابقة اليد، وجمرات الحدّة، وثمرات المدّة، ومجاراة الخاطر للناظر، ومباراة الطبع للسمع . وكان يترجم مايقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعانى الغريبة بالأبيات العربية فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع، الى عجائب كثيرة لا تحصى، ولطائف تطول أن تستقصى. وكان مع هذا كله مقبول الصورة، خفيف الروح، حسن العشرة، ناصع الظرف، عظيم الخلق ، شريف النفس ، كريم العهد، خالص الودّ، حلو الصداقة، مر العداوة . وفارق همذان سنة ٣٨٠ وهو مقتبل الشبيبة، غض الحداثة ، وقد درس على أبى الحسين بن فارس وأخذ عنه جميع ماعنده، وآستنفد علمه، وآستنزف بحره . وورد حضرة الصاحب فتزود من ثمارها، وحسن آثارها. ثم قدم جرجان وأقام بها مدة على مداخلة الاسماعيلية والتعيش فى أكنافهم، والاقتباس

(١) انظر شاهد هذا فيما سنعرض من نص المناظرة (ص ٣٤٨) .

من أنوارهم، وآختص بأبى سعد محمد بن منصور ونفقت بضائعه لديه، وتوفر حظه من عادته المعروفة فى إسداء المعروف والإفضال على الأفاضل. ولما آستقرت عزيمته على قصد نيسابور أعانه على حركته، وأزاح علله فى سفرته، فوافاها فى سنة ٣٨٢ ونشر بها بزّه، وأظهر طرزه، وأملى أربعمائة[1] مقامة نحلها أبا الفتح الاسكندرى فى الكدية وغيرها، وضمنها ما تشتهى الأنفس، وتلذ الأعين، من لفظ أنيق قريب المأخذ، بعيد المرام، وسجع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام، وجِدّ يروق فيملك القلوب، وهزل يشوق فيسحر العقول. ثم شجر بينه وبين أبى بكر الخوارزمى ما كان سببا لهبوب ريح الهمذانى وعلو أمره، وقرب نجحه، وبعد صيته، إذ لم يكن فى الحسبان والحساب أن أحدا من الأدباء والكتّاب والشعراء ينبرى لمباراته، ويجترئ على مجاراته، فلما تصدّى الهمذانى لمساجلته وتعرض للتحكك به وجرت بينهما مكاتبات ومباهلات ومناظرات ومناضلات وأفضى السنان الى العنان، وقرع النبع بالنبع، وغلّب هذا قوم وذاك آخرون، وجرى من الترجيح بينهما ما يجرى بين الخصمين المتحاكمين، والقرنين المتصاولين، طار ذكر الهمذانى فى الآفاق، وآرتفع مقداره عند الملوك والرؤساء، وظهرت أمارات الإقبال على أموره، وأدرّ له أخلاف الرزق وأركبه أكتاف العز. وأجاب الخوارزمى داعى ربه فخلا الجو للهمذانى وتصرفت به أحوال جميلة، وأسفار كثيرة، ولم يبق فى بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلدة الا دخلها، وجنى ثمرتها، وآستفاد خيرها وميرها، ولا ملك ولا أمير ولا وزير ولا رئيس الا آستمطر منه بنوء، وسرى معه فى ضوء، ففاز برغائب النعم، وحصل على غرائب القِسم، وألقى عصاه بهراة وآتخذها دار قراره، ومجمع أسبابه ... وخار الله له فى مصاهرة أبى على الحسين بن محمد الخشنامى ... فانتظمت أحوال أبى الفضل بصهره، وتعرفت القرة فى عينه، والقوة فى ظهره، وآقتنى بمعونته ومشورته ضياعا فاخرة، وعاش عيشة راضية. وحين بلغ أشدّه وأربى على أربعين سنة ناداه الله فلباه، وفارق دنياه فى سنة ٣٩٨ فقامت عليه نوادب الأدب، وآنثلم حد القلم ... الخ[2]».

---

(١) راجع ما حققناه من عدد المقامات فى الجزء الأول ص ٢٠٦ (٢) اليتيمة ج ٤ ص ١٦٧ — ٣٦٩

٣ — وقد نقلنا كلام الثعالبي على طوله لأنه يعطى صورة من طرائق كتاب القرن الرابع فى كتابة التراجم ، ولأن الثعالبي كان من معاصرى البديع ، ولأنه أعطانا فوائد تاريخية على قلة مايفعل ذلك ، فقد عرفنا أن البديع أنشأ المقامات فى نيسابور بعد أن حل بها سنة ٣٨٢ وعرفنا أنه ناظر الخوارزمى فى ذلك الحين ، وهذا يعيّن أن الخوارزمى مات سنة ٣٨٣ لا سنة ٣٩٣ كما توهم بعض من نقل عنهم ابن خلكان[1] .

وتاريخ إنشاء المقامات الذى نص عليه الثعالبي ظاهر الصحة ، لأن البديع يذكر تواريخ سبقت ذلك ، كقوله فى المقالة القزوينية "غزوت الثغر بقزوين ، سنة خمس وسبعين" .

٤ — أما المناظرة التى أشار اليها الثعالبي والتى استفاض ذكرها فى كتب الأدب فقد حررها بديع الزمان بقلمه ، وهى وثيقة أدبية تمثل زهوه وأخلاقه ، وتبين تهافت الناس اذ ذاك على شهود المناظرات ، وكانت من الفنون الظاهرة فى القرن الرابع ، ومن أشهر من اهتم بتدوين مناظرات ذلك العهد أبو حيان التوحيدى ، غير أن التوحيدى كان يهتم بتدوين المناظرات الفلسفية والفقهية .

ابتدأ بديع الزمان فحدثنا أن تقييد تلك المناظرة كان مما اقترح عليه ، وأنه سيسوق صدر حديثه مع الخوارزمى الى العجز ، كما يساق الماء الى الأرض الجُرُز . ثم قال بعد كلام فى الثناء على من وجه اليه الحديث :

" نعود للقصة نسوقها ، وأولها أنا وطئنا خراسان فما آخترنا الا نيسابور دارا ، وإلا جوار السادة جوارا ، لا جرم أنا حططنا بها الرحل ، ومددنا عليها الطنب ، وقديما كنا نسمع بحديث هذا الفاضل فنتشوقه ، ونخبره على المغيب فنتعشقه ، ونقدر أنا لو وطئنا أرضه ، ووردنا بلده ، يخرج لنا فى العشرة ، عن القشرة ، وفى المودة ، عن الجلدة ، فقد كانت لحمة الأدب جمعتنا ، وكلمة الغربة نظمتنا ، وقد قال شاعر العرب غير مدافَع :

أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيبُ

---

(١) انظر وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٥٦

فأخلف ذلك الظن كل الإخلاف، وآختلف ذلك التقدير كل الآختلاف، وقد كان آتفق علينا فى الطريق من العرب آتفاق، لم يوجبه آستحقاق، من بزة بزُّوها، وفضة فضُّوها، وذهب ذهبوا به، ووردنا نيسابور براحة أنقى من الراحة، وكيس أخلى من جوف حمار، وزىّ أوحش من طلعة المعلّم[1] بل آطلاعة الرقيب، فما حللنا إلا قصبة جواره، ولا وطئنا إلا عتبة داره. وهذا بعد رقعة كتبناها، وأحوال أنس نظمناها. فلما أخذنا لحظ عينه سقانا الدردىّ من أوّل دنه، وأجنانا سوء العشرة من باكورة فنه، من طرف نظر بشطره، وقيام دفع فى صدره، وصديق آستهان بقدره، وضيف آستخف بأمره. لكنا أقطعناه جانب أخلاقه، وقاربناه إذ جانب، وواصلناه إذ جاذب، وشربناه على كدورته، ولبسناه على خشونته، ورددنا الأمر فى ذلك الى زىّ آستغثه، ولباس آسترثه، وكاتبناه نستمد وداده، ونسلس قياده، ونستميل فؤاده، ونقيم منآده".

٥ — وخلاصة ما سلف أن بديع الزمان بعد أن أعانه محمد بن منصور وأزاح علله فى سفرته الى نيسابور خرج عليه اللصوص فى الطريق — وهو يسميهم «العرب» — فسلبوا ما كان معه من فضة وذهب ودخل نيسابور على أسوأ حال، وفكر عند وصوله فى الآتصال بأبى بكر الخوارزمى، ولكن الخوارزمى لم يكرم زيارته، وظن بديع الزمان أن تلك الجفوة لم تكن إلا لأنه ورد فى زىّ غث، ولباس رث.

أما المراسلات التى سبقت المناظرة فهى خطاب من البديع وجواب من الخوارزمى.

ولننظر كيف بدأ البديع يغرس بذور الشحناء:

"الأستاذ أبو بكر — والله يطيل بقاءه! — أزرى بضيفه أن وجده يضرب إليه آباط القلة، فى أطمار الغربة، فأعمل فى رتبته أنواع المصارفة، وفى الآهتزاز له أنواع المضايقة، من إيماء بنصف الطرف، وإشارة بشطر الكف، ودفع فى صدر القيام، عن التمام،

(١) يريد أن طلعة المعلم توحش الطفل لأنها تنقله من اللعب الى الدرس، ومعاذ الله أن تكون «طلعة المعلم وحشة» فى جميع الأحوال!!

ومضغ الكلام، وتكلف لرد السلام . وقد قبلت تربيته صعرا، وآحتملته وزرا ، وآحتضنته نكرا، وتأبطته شرا، ولم آله عذرا، فان المرء بالمـال، وثياب الجمال، ولست مع هذه الحال، وفى هذه الأسمـال، أتقزز صـف النعال، فلو صدقته العتاب ، وناقشـته الحساب، لقلت إن بوادينا ثاغية صباح، وراغية رواح، وناسا يحرون المطارف، ولا يمنعون المعارف .

وفيهم مقاماتٌ حسان وجوههم وأنديةٌ ينتابها القول والفـعلُ

ولو طوحتْ بأبى بكر أيده الله طوائح الغربة ، لوجد مغنى البِشر قريبـا ، ومحط الرحل رحيبا ، ووجه المضيف خصيبا . ووجه الأستاذ أبى بكر أيده الله فى الوقوف على هذا العتاب الذى معناه ود، والمر الذى يتلوه شهد، موفقٌ ان شاء الله تعالى " .

فأجاب الخوارزمى :

" وصلت رقعـة سيدى ومولاى ورئيسى أطال الله بقاءه الى آخر السكاج ، وعرفت ما تضمنه من خشن خطابه ، ومؤلم عتابه ، وصرفت ذلك منه الى الضجر الذى لا يخلو منه من مسه عسر، ونبا به دهر، والحمد لله الذى جعلنى موضع أنسه، ومظنة مشتكى ما فى نفسه! أما ماشكاه سيدى ورئيسى من مضايقتى إياه فى القيام فقد وفيته حقه أيده الله سلاما وقياما، على قدر ما قدرت عليه، ووصلت إليه، ولم أرفع عليه الا السيد أبا البركات العلوى أدام الله عزه، وما كنت لأرفع أحدا على من جدّه الرسول، وأمه البتول، وشاهداه التوراة والانجيل، وناصراه التأويل والتنزيل، والبشـير به جبرائيل وميكائيل . فأما القوم الذين صـدر سيدى عنهـم فكما وصف حسن عِشرة ، وسـداد طريقة، وكمال تفصيل وجملة، ولقـد جاورتهم فأحمدت المَراد، ونلت المُراد :

فان كنت قد فارقت نجدا وأهلهُ فـما عهد نجـدٍ عنـدنا بذميم

والله يعلم نيتى للاخوان كافة، ولسيدى من بينهم خاصة، فان أعانى الدهر على ما فى نفسى بلغت إليه ما فى الفكرة، وجاوزت مسافة القدرة ، وإن قطع علىّ طريق عشرتى بالمعارضة، وسوء المؤاخذة، صرفت عنانى عن طريق الاختيار، بيد الاضطرار :

فما النفس إلا نطفة بقرارة اذا لم تكدّر كان صفوا معينها

وبعد فحبذا عتاب سيدى اذا آستوجبنا عتبا، وآقترفنا ذنبا ، فاما أن يسلفنا العربدة فنحن نصونه عن ذلك ونصون أنفسنا عن آحتماله . ولست أسومه أن يقول استغفر لنا إنا كنا خاطئين ، ولكنى أساله أن يقول لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين " .

٦ — وبهذين الخطابين بدأت البغضاء، وآنقطع بديع الزمان عن زيارة الخوارزمى « ومضى على ذلك الأسبوع، ودبت الأيام، ودرجت الليالى، وتطاولت المدة » ومشى الواشون بالسوء ، ودعا ناس الى مناظرة تقوم بين الرجلين، فتردد الخوارزمى وهش بديع الزمان، ثم ركب الخوارزمى فى جمع من أصحابه وتلامذته ، وبعد لحظات ابتدأ النضال، ولنترك البديع يصف ذلك الموقف المشهود .

صورة المناظرة (١)

" ... فتركناه على غلوائه، حتى إذا نفض ما فى راسه، وفرغ جعبة وسواسه ، عطفنا عليه فقلنا : ياعافاك الله ! دعوناك وغرضنا غير المهارشة ، وآستزرناك وقصدنا غير المناوشة ، فلتهدأ ضلوعك ، وليفرخ روعك ، وما آجتمعنا إلا لخير فلتسكن سورتك ، ولتلن فورتك ، ولا ترقص لغير طرب ، ولا تحم لغير سبب ! وإنما ذكرناك لتملأ المجلس فوائد ، وتذكر أبياتا شوارد ، وأمثالا فرائد ، ونباحثك فنسعد بما عندك ، وتسألنا فتسر بما عندنا ، ويقف كل واحد منا موقفه من صاحبه ، وقديما كنت أسمع بحديثك فيعجبنى الالتقاء بك ، والاجتماع معك ، والآن إذ سهل الله ذلك فهلم الى الأدب نتفق يومنا عليه ، والى الجدل نتجاذب طرفيه ،

---

(١) أثبتنا هذا الشاهد على طوله لطرافته ولدلالته على عقلية فريق من كتاب ذلك العهد ، ولنبين كيف آستطاعت اللغة المثقلة بالزخرف والسجع أن تؤدى نوعا من القصص فى تدوين المناظرات . وقد أسقطنا جزءا من صورة هذه الوثيقة الأدبية فرارا من التطويل .

وللقارئ أن يرجع الى رسائل بديع الزمان ص ٢٨ — ٨٣

فاسمع خيرا وأسمعنا مثله، ولتبدأ بالفن الذى ملكت به زمانك، وفُقت به أقرانك، وملكت به عنانك، وأخذت منه مكانك، فطار به آسمك بعد وقوعه، وآرتفع له ذكرك عقب خضوعه، وألحمت به الرجال حتى أذعن العالم، وقلد الجاهل... بخارنا بفرسك، وجُدْ لنا بنفسك.

فقال: وما هو؟

فقلت: الحفظ إن شئت، والنظم إن أردت، والنثر إن آخترت، والبديهة إن نشطت. فهذه أبوابك التى أنت فيها آبن دعواك، تملأ منها فاك.

فأخم عن الحفظ رأسا، ولم يحل فى النثر قِدْحا. وقال:

أبادهك.

فقلت: أنت وذاك!

فمال الى السيد أبى الحسين يسأله بيتا ليجيز. فقلت: يا هذا أنا أكفيك، ثم تناولت جزأ فيه أشعاره وقلت لمن حضر:

هذا شعر أبى بكر الذى كد به طبعه، وأسهر له جفنه، وأجال فيه فكره، وأنفق عليه عمره، وآستنزف فيه يومه، ودوّنه فى صحيفة مآثره، وجعله ترجمان محاسنه، وعبر به عن باطنه، وأخذ مكانه وهو ثلاثون بيتا، وسأقرن كل بيت بوفقه، وأنظم كل معنى الى لِفقه، بحيث أصيب أغراضه، ولا أعيد ألفاظه، وشريطتى أن لا أقطع النفَس، فان تهيأ لواحد، أو أمكن لناقد، ممن حضر، يريد النظر، أن يميز قوله من قولى، ويحكم على البيت أنه له أولى، أو يرجح ما نظمه بنار الروية، على ما أمليته على لسان النفس فله يد السبق، أو يكون غيرها فإعفاء عن هذه المقاومة، ويتنحى لنا عن أرض المماثلة، ويخلى الطريق لمن يبنى المنار به.

فقال أبو بكر: ما الذى يؤمننا من أن تكون نظمت من قبل ما تريد إنشاءه الان؟

فقلت : اقترح لكل بيت قافية لا أسوقه إلا إليها ، ولا أقف به إلا عليها ، ومثال ذلك أن تقول (حشر) فأقول بيتا آخره (حشر) ثم (عشر) فأنظم بيتا قافيته (عشر) ثم هلم جرا الى حيث يتضح الحق ، ويفتضح الزُّرق[1] ، وتستقر الحجة ، وتستقل الشبهة ، وتنطرد فيعرف الحالى من العاطل ، ويفرق بين الحق والباطل .

فأبى أبو بكر أن يشاركنا فى هذا العنان ، ومال الى السيد أبى الحسين يسأله بيتا ليجيز فتبعنا رأيه فيما رآه ، ولم نرض إلا رضاه ، وأعمل كل منا لسانه وفمه ، وأخذ دواته وقلمه ، فأجزنا البيت الذى قاله ، وكلما أجزناه إجازة جارى القلم فيها الطبع ، وبارى اللسان بها السمع ، وسارق الخاطر بها الناظر ، وسابق الجنان بها البنان ، إذ قلنا :

هذا الأديب على تعسف فتكه ... وبروكه عند القريض ببركه[2]
متسرع فى كل ما يعتاده ... من نظمه متباطئ عن تركه
والشعر أبعد مذهبا ومصاعدا ... من أن يكون مطيعه فى فكه
والنظم بحرٌ والخواطر معبرٌ ... فانظر الى بحر القريض وفُلكه
فمتى توانى فى القريض مقصّر ... عرّضت أذن الامتحان بعركه
هذا الشريف على تقدّم بيته ... فى المكرمات ورفعه فى سمكه
قد رام منى أن أقارن مثله ... وأنا القرين السوء إن لم أنكه[3]
واذا نظمت قصمت ظهر مناظرى ... وحطمت جارحة القرين بذكه
ودبغت منه أديمه وتركته ... نهج الأديم بدبغه وبدلكه
أصغو الى الشعر الذى نظّمته ... كالدرّ رصّع فى مجرّة سلكه
فمتى عجزت عن القريض بديهة ... فدمى الحرام له إراقةُ سفكه

وقال أبو بكر أبياتا جهدنا به أن يخرجها من الغلاف ، ويبرزها من اللحاف ، فلم يفعل دون أن طواها وجعل يعركها ويفركها ، فقلت : إن البيت لقائله ، كالولد لناجله ، فما لك

(١) الزرق جمع أزرق ويراد به الأعمى . وفى القرآن (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) أى عميا .
(٢) البرك بفتح فسكون : الصدر . (٣) من النكاية وهى الإهانة .

تعق آبنك وتضيمه ؟ أبرزها للعيون ، وخلصها من الظنون . فكره أبو بكر أيده الله أن تكون الهزة أعقل منه لأنها تحدث فتغطى ، فلم يستجرئ أن يظهر ثم مسح جبينه و بسط يمينه للبديهة نفسا دون أن يكتب . فقلنا : أنت وذاك . وآقترح علينا أن نقول على وزن قول أبى الطيب المتنبى حيث يقول :

أرق على أرق ومثلىَ يأرقُ وجوًى يزيد وعَبرةٌ تترقرقُ

وآبتدر أبو بكر أيده الله الى الإجازة ولم يزل الى الغايات سباقا فقال :

و إذا آبتدهت بديهة يا سيدى فأراك عند بديهتى تتقلقُ
و إذا قرضت الشعر فى ميدانه لا شك أنك يا أخى تتشقق
إنى إذا قلت البديهة قلتها عجلا وطبعك عند طبعى يرتق
مالى أراك ولست مثلى عندها متموّها بالترهات تمخرق
إنى أجيز على البديهة مثل ما تريانه و إذا نطقت أصدق
لو كنت من صخرٍ أصمّ لهاله منى البديهة وآغتدى يتفلق
أو كنت ليثا فى البديهة خادرا لرئيت يا مسكين منى تفرّق
و بديهة قد قلتها متنفسا فعل الذى قد قلت يا ذا الأخرق

ثم وقف يعتذر و يقول : إن هذا كما يجىء لا كما يجب. فقلت : قبل الله عذرك لكنى أراك بين قواف مكروهة وقافات خشنة كل قاف كجبل قاف ، منها تتقلق وتتشقق وتمخرق وتخرق وتطلق وتعلق وتسبرق وتفرق وأحمق وأخرى إلى أشياء لا أكثر بها العدد، نخذ الآن جزاء عن قرضك، وأداء لفرضك، وقلت :

مهلا أبا بكر فزندك أضيق فاخرس فإن أخاك حىٌّ يرزق
دعنى أعرك إذا سكتَ سلامةً فالقول يجد فى ذويك ويعرق
ولفاتك فتكاتُ سوء فيكمُ فدع الستور وراءها لا تخرق
وآنظر لأشنع ما أقول وأدعى ألهُ إلى أعراضكم متسلّق
يا أحمقا وكفاك ذلك خزيةً جربت نار معرتى هل تحرق

فلما أصابه حر الكلام، ومسه لفح هذا النظام، قطع علينا فقال : يا أحمقا لا يجوز فإن أحمق لا ينصرف . فقلنا : ياهذا لا تقطع فإن شعرك إن لم يكن عَيبة عيب فليس بظرف ظرف، ولو شئنا لقطعنا عليك، ولوجد الطعن سبيلا اليك . وأما أحمق فلا يزال يصفعك لتصفعه حتى ينصرف وتنصرف معه ! وعرفناه أن للشاعر أن يردّ ما لا ينصرف الى الصرف، كما أن له رأيه فى القصر والحذف، وأنشدناه حاضر الوقت من أشعار العرب فقال : يجوز للعرب ما لا يجوز لك . فلم يدر كيف يجيب عن هذا الموقف وهذه المواقفة، وكيف يسلم من هذه المصارفة، لكنا قلنا : أخبرنا عن بيتك الأول أمدحت أم قدحت، وزكيت أم جرحت ؟ ففيه شيئان متفاوتان، ومعنيان متباينان، منها أنك بدأت فخاطبت بيا سيدى، والثانية أنك عطفت فقلت تتقلق وهما لا يركضان فى حلبة ولا يخطان فى خطة . ثم قلت له : خذ وزنا من الشعر حتى أسكت عليك فتستوفى من القول حظك وأسكت علينا حتى نستوفى حظنا، ثم إنى أحفظ عليك أنفاسك وأوافقك عليها وأحفظ علىّ أنفاسى ووافقنى عليها فإن عجزتُ عن اختلافها حفظتها لك، فسلنى عنها بعد ذلك . وأخذنا بيت أبى الطيب المتنبى :

أهلا بدارٍ سباك أغيدها أبعدَ ما بان عنك خرّدها

فقلت :

يا نعمة لا تزال تجحدها ومنة لا تزال تكندها

فأخذ بخنق البيت قبل تمامه، ومضيق الشعر قبل نظامه، فقال : ما معنى تكندها ؟ فقلت : يا هذا، كند النعمة كفرها . فرفع يديه ورأسه وقال : معاذ الله بأن يكون كند بمعنى جحد، وإنما الكنود القليل الخير . فأقبلت الجماعة عليه يوسعونه بريا وفريا ويتلون له قول الله تعالى (إن الإنسان لربه لكنود) وقلت له : أليس الشرط أملك؟ والعهد بيننا أن تسكت ونسكت حتى تتم ونتم، ثم نبحث ونفحص؛ فنبذ الأدب وراء ظهره وصار الى السخف يكيلنا بصاعه ومُده، وينفض فيه حُمة جهده، وأفضى الى السفه يغرف علينا غرفا، ويستق من جرفه جرفا . فقلت : يا هذا إن الأدب غير سوء الأدب وللمناظرة حضرنا لا للمنافرة، فان نفضت من هذا السخف يدك، وثنيت عن هذا السفه قصدك، وإلا تركت مكالمتك . ولو كان

فى باب الاستخفاف شيء أعظم من الاحتقار، وإنكار أبلغ من ترك الإنكار، لبلغته منك . فأخذ يمضى على غُلَوائه، ويمعن فى هرائه وهذائه . فاستندت الى المسند، ووضعت اليد على اليد، وقلت استغفر الله من مقالتك ونفضتها قائمة معه . وسكت حتى عرف الناس، وأيقن الجلاس، أنى أملك من نفسى ما لا يملكه، وأسلك من طريق الحلم ما لا يسلكه، ثم عطفت عليه وقلت : يا أبا بكر إن الحاضرين قد عجبوا من حلمى، وتعجبوا من فضلى، وبقى الآن أن يعلموا أن هذا السكوت ليس عن عىّ، وأن تكلفى للسفه أشدّ استمرارا من طبعك، وغَربى فى السخف أمتن عودا من نبعك، وسنقرع باب السخف معك، ونفترع من ظهر السفه مفترعك . فتكلم الآن . فقال لى : أنا قد كسبت بهذا العقل دية أهل همذان مع قلته فما الذى أفدت أنت بعقلك مع غزارته ؟ فقلت أما قولك أهل همذان فما أولانى أن أجيب عنه ولكن هذا الذى تمدح به وتتبجح وتتشرف وتتصلف من أنك شحذت فأخذت ، وسألت فحصلت، وأجتديت فأقتنيت، فهذا عندنا صفة ذم يا عافاك الله ! ولأن يقال للرجل يافاعل يا صانع أحبُّ اليه من أن يقال يا شحاذ و يامكدى ! وقد صدقت، أنت فى هذه الحلبة أسبق، وفى هذه الحرفة أعرق، ولعمرك أنت أشحذ، وفى الكدية أنفذ، وأنا قريب العهد بهذه الصنعة، حديث الورد لهذه الشِّرعة، مرمل اليد فى هذه الرقعة . فأما مالك فعندنا يهودىّ يماثلك فى مذهبه، و يزيدك بذهبه، ومع ذلك لا يطرفنى إلا بعين الرهبة، ولا يمد الىّ إلّا يد الرغبة، ولو كان الغنى حظا لأخطأه مثل هذا العقل، ولو كان المال غُنما لما أُدرِكَ بهذا السعى . ولكن عرفنى هل كنت فيما سلف من زمانك، ونبت من أسنانك، إلا هاربا بذمائك، مضرجا بدمائك، مرتهنا بقولك بين وجنة موشومة، وجوارح مهشومة، ودار مهدومة، وخدود ملطومة . ومتى صفتْ مشارعك، وأخصبت مرابعك، إلا فى هذه الأيام القذرة؟ وستعرف غدك من بعد، وتنكر أمسك، وتعلم قدرك فى غد، وتعرف نفسك . وما أضيع وقتا أنطقته بذكرك، ولسانا دنسته باسمك ! وملت الى القوال فقلت أسمعنا خيرا فدُفع القوال وغنى أبياتا منها :

وشبَّهنا بنفسج عارضيه بقايا اللطم فى الخد الرقيق

فقال أبو بكر : أحسن ما فى الأمر أنى أحفظ هذه القصيدة وهو لا يعرفها، فقلت : يا عافاك الله أعرفها و إن أنشدتكها ساءك مسموعها، ولم يسرك مصنوعها، فقال : أنشد ! فقلت : أنشد ولكن روايتى تخالف هذه الرواية وأنشدت :

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا الوشم فى الوجه الصفيق

فأتته السكتة، وأحجرته النكتة، وآنطفأت تلك الوقدة، وآنحلت تلك العقدة. وأطرق مليا وقال : والله لأضربنك و إن ضُربت، ولأشتمنك و إن شُتمت، ولتعلمن نبأه بعد حين، ولتعلمن أينا الضارب وأينا المضروب ! فقلت : ياأبا بكر مهلا فانك بين ثلاثة فصول لم تخطها من عمرك وثلاث أحوال لم تتعدها فى أمرك، وأنت فى جميع الثلاثة ظالم فى وعيدك، متعد فى تهديدك، لأنك كهل وأنت شاعر، وكنت شابا وأنت مقامر، وكنت صبيا وأنت مؤاجر، فنطاق القدرة فى الفصول الثلاثة ضيقٌ عن هذا الوعيد، لكنا نصفعك الآن وتضربنا فيما بعد، فقد قيل اليوم قصف، وغدًا خسف، وقيل اليوم خمر، وغدًا أمر ! فقال أبو بكر والله لو دخلت الجنة، واتخذت السندس والإستبرق جُنة، لصفعت ! فقلت : والله لو أن قفاك غدا فى درج فى خرج فى برج لأخذك من النعال ما قدم وما حدث، وشملك من الصفع ماطاب وخبث، وأنشدت قول آبن الرومى :

إن كان شيخا سفيها يفوق كل سفيهِ
فقد أصاب شبيها له وفوق الشبيهِ

ثم لما آبت نفس العقل وزال سكر الغيظ تمثلت بقول القائل :

وأنزلنى طول النوى دار غربة إذا شئت لاقيت آمرءا لا أشاكله
أحامقه حتى يقال سجية ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

ودُفع القوال فبدأ بأبيات، ولحن بأصوات، وجعل النعاس يثنى الرؤوس، ويمنع الجلوس، فقمنا عن الليل وهو بحره مائل الذقن الى ما وُطِّئ من مضجع، ومُهِّد من مهجع، ولم يكن النوم ملء الجفون، ولا شغل العيون، حتى أقبل وفد الصباح، وحيعل المؤذن بالفلاح،

وندب الى النهوض، بالمفروض، فأجبنا . فلما قضينا الفرض، فارقنا الأرض، فأوى الى أم مثواه وأويت الى الحجرة وظنى أن هذا الفاضل يأكل يده ندما، ويبكى على ماجرى دمعا ودما، فانه إذا سمع بحديث همذان قال : الهاء هم والميم موت، والذال ذل ، والألف آفة، والنون ندامة، وأنه إذا نام هاله منا طَيف، وإذا آنتبه راعه منا سيف، وأخذ الناس يترامزون بما جرى و يتغامزون، وراب هذا الفاضل غمزاتهم مثل ماراب المريض تغامز العواد فجعل يحلف للناس بالعتق، وتحرير الرق، والمكتوب فى الرَّق، إنه أخذ قصب السبق، و إنه ينطق عن الحق، والناس أكياس لا يقنعهم عن المدعى يمين دون شاهدين! وسعوا بيننا بالصلح يحكمون قواعده ومعاقده، وعرفنا له فضل السن فقصدناه معتذرين اليه فأومأ إيماءة مهيضة، وآهتز آهتزازة مغيضة، وأشار إشارة مريضة، بكف سحبها على الهواء سحبا، و بسطها فى الجوّ بسطا، وعلمنا أن للقمور أن يستخف و يستهين، وللقامر أن يحتمل و يلين، فقلنا إن بعد الكدر صفوا ، كما أن عقب المطر صحوا، فهل لك فى أخلاق فى العشرة نستأنفها، وطرق فى الخلطة نسلكها، فان ثمرة الخلاف ماقد بلوتها؟ فقال ظهر الوفاق لفظا كما ذكرت، والجميل أجمل كما علمت، وسنشترك هذا العنان. وعرض علينا الإقامة عنده سحابة ذلك اليوم، فاعتللنا بالصوم، فلم يقبل العذر وألح فقلت : أنت وذاك فطعمنا عنده، وأخذنا دندانُ مزده ، وخرجنا والنية على الجميل موفورة، وبقعة الود معمورة، وصرنا لا نتعلل إلا بمدحه، ولا نتنقل إلا بذكره، ولا نعتد إلا بوده، لا بل ملأنا البلد شكرا، والأسماع نشرا، و بتنا نحن من الحال فى أعذبها شِرعة ، ومن الثقة فى أطيبها جرعة ، ومن الظنون فى أملحها فرعة، ومن المودة فى أعزها بقعة، وأوسعها رقعة، حتى طرأ علينا رسولان متحملان لمقالته، مؤدّيان لرسالته، ذا كان أن أبا بكر يقول قد تواترت الأخبار، وتظاهرت الآثار، فى أنك قَهرت وأنى قُهرت ولا شك أن ذلك التواتر عنك صدرت أوائله . والخبر إذا تواتر به النقل، قبله العقل. ولا بد أن نجتمع فى مجلس بعض الرؤساء فنتناظر بمشهد الخاصة والعامة، فانك متى لم تفعل ذلك لم آمن عليك تلامذتى أو تقر بعجزك وقصورك عن بلوغك أمدى وما أبدى . فعجبت كل العجب مما سمعت، وأجبته فقلت: أما قولك قد تواتر الخبر بأنك قُهرت وأن ذلك عن

جهتى صدر ومن لسانى سمع فبالله ما أتمدح بقهرك، ولا أتبجح بقسرك . و إن لنفسك عندك لشأنا إن ظننتنى أقف هـذا الموقف، أنا ان شاء الله تعالى أبعـد مرتق همة ومصعد نفس أسأل الله سترا يمتد ووجها لا يسودّ! فأما التواتر من الناس والتظاهر على أنى قهرتك فلو قدرت على الناس لخطتُ أفواهم، ولقبضت شفاههم ، فما الحيلة وهل الى ذلك سبيل فأتوسل ، أم ذريعة فأتوصل؟ ثم هذا التواتر، ثمرة ذلك التناظر، مع ذلك التساتر، فان كان قد ساءك فأحرى أن يسوءك عند مجتمع الناس ومحتفل أولى الفضل، ولأن يترك الأمر مختلفا فيه خيرٌ لك من أن يُتفق عليه . و إن أحببت أن تطير هذا الواقع وتهيج هذا الساكن فرأيك موفقا. فأما هذا الوعيد فقد عرضته على جوانحى أجمع وجوارحى كلها فلم تنشد الا بيت القائل :

وعيدٌ تخرج الآرام منهُ ... وتكره نيـة الغنم الذئابُ

فكم تتكوكب تلامذتك ويتعسكرون، و يتجيش أصحابك ويتجمعون، ولست أراك إلا بين ثنتين : إحداهما تروح الى أنثى وتغـدو الى طفل ، والأخرى تجيب دعوة المضطر إذا دعاك بمسلفات . فان كان الله قد قضى أن القتل بأخس السلاح، فلا مفرّ من القدر المتاح، رزقنا الله عقلا به نعيش ! ونعوذ بالله من راى بنا بطيش! وقلنا من بعد إن رسالتك هذه وردت موردا لم نحتسبه، ووصلت موقفا لم نرتقبه ، فلذلك خرج الجواب عن البصل ثوما، وعن البخل لوما . فلما ورد الجواب عليه وسع من الغيظ فوق ملئه ،وحمل من الحقد فوق عبئه ، وقال : قد بلغ السيل الزبا، وعلت الوهاد الربا، فى أمرك . وستُرى فى يومك ، وتُعرَف فى قومك ! ثم مضت على ذلك أيام ونحن منتظرون لفاضل ينشط لهذا الفصل، وينظر بيننا بالعـدل ، فاتفقت الآراء على أن يعقد هذا المجلس فى دار الشيخ أبى القاسم الوزير وآستدعيت فسرحت الطرف من ذلك السيد فى عالمٍ أُفرغ فى عالمٍ وملك فى درع ملك ورجل نظم الى التنبل تبذلا والى الترفع تواضعا، ونطق فودت الأعضاء لو أنهـا أسماع مصغية وآستمع فتمنت الجوارح لو أنها ألسن ناطقة فقلت : الحمد لله أن عقد هذا المجلس فى دار من يفرق بين من يُحق ومن يزرِّق(١) وكنت أول من حضر وآنتظرت مليا حضور من ينظر وقدوم من يناظر، وطلع الإمام

(١) من زرق الطائر اذا أخرج ما فى أمعائه .

أبو الطيب وأخذ من المجلس موضعه، والامام أبو الطيب بنفسه أمة ووحده عالَم . ثم حضر السيد أبو الحسين وهو ابن الرسالة والإمامة ، وعامر أرض الوحى والمحتبى بفناء النبوّة والضارب فى الأدب بعرقه ، وفى النطق بحذقه، وفى الإنصاف بحسن خلقه، فجشم الى المجلس قَدَم سيفه وجعل يضرب عن هذا الفاضل بسيفين لأمر كان قد موّه عليه، وحديث كان شبّه لديه ، وفطنت لذلك فقلت : أيها السيد أنا إذا سار غيرى فى التشيع برجلين ، طرت بجناحين ، وإذا متّ سواى فى موالاة أهل البيت بلمحة دالة توسلت بغُرة لائحة ، فإن كنت أبلغت غير الواجب فلا يحملنك على ترك الواجب . ثم إن لى فى آل الرسول صلى الله عليه وسلم قصائد قد نظمت حاشيتى البر والبحر، وركبت الأفواه، ووردت المياه، وسارت فى البلاد، ولم تسرِ بزاد ، وطارت فى الآفاق، ولم تسر على ساق ، ولكنى أتسوّق بها لديكم ولا أتنفق بها عليكم، وللآخرة قلتها لا للحاضرة، وللدين آدخرتها لا للدنيا . فقال أنشدنى بعضها فقلت :

يا لمةً ضرب الزما ... ن على مُعرَّسها خيامهْ
لله درك من خُزا ... مَى روضة عادت ثَغامه
لرزية قامت بها ... للدين أشراط القيامه
لمضرَّج بدم النبو ... ة ضارب بيد الإمامه
متقسم بظبا السيو ... ف مجرَّع منها حمامه
مُنِع الورودَ وماؤهُ ... منه على طَرَف الثمامه
نصب آبن هند رأسهُ ... فوق الورى نصب العلامه
ومقبَّل كان النبىُّ ... بلثمه يشفى غرامه
قرع آبن هند بالقضيب ... عِذابه فرط آستضامه
وشدا بنغمته عليـ ... ـه وصبَّ بالفضلات جامه
والدين أبلج ساطع ... والعدل ذو خال وشامه
يا ويح من ولَّى الكتا ... ب قفاه والدنيا أمامه
ليضرسنّ يد الندا ... مة حين لا تغنى الندامه

openkandali.com

وليدركنّ على الغـــرا مة سوء عاقبـــه الغـرامه
وحمى أباح بنـــو أمي ـة من طوائلهـــم حرامه
حتى آشـتفوا من يوم بد رٍ وآســـتبدوا بالزعامـه
لعنـــوا أمـــير المؤمنيـ ـن بمثـــل إعلان الإقامه
لم لا تخـــرّى يا سما ءُ ولم تصـــبي يا غمـامه
لم لا تـــزولى يا جبا ل ولم تشـولى يا نعـامه
يا لعنـــةً صـارت على أعناقهـم طوق الحمـامه
إن العـــمامة لم تكن للئـــيم ما تحت العمامـه
من سـبط هنـد وآبنهـا دون البتول ولا كـرامه
يا عين جـودى للبقـ ـيع وزرّعى بدم رغامـــه
جـودى بمذخور الدمو ع وأرسـلى بَددًا نظامه
جـودى بمكنون الدمو ع أجُدْ بما جاد آبن مامه

فلما أنشدت ما أنشدت، وسردت ما سردت. وكشفت له الحال فيما آعتقدت، انحلت له العقدة وصار سلما يوسعنا حلما. وحضر بعد ذلك الشيخ أبو عمر البسطامى وناهيك من حاكم يفصل، وناظر يعدل، يسمع فيفهم، ويقول فيعلم. ثم حضر بعد ذلك القاضى أبو نصر والأدب أدنى فضائله، وأيسر فواضله، والعدل شيمة من شيمه، والصدق مقتضى همه. وحضر بعده الشيخ أبو سعيد محمد بن ارمك أيده الله وهو الرجل الذى يحميه لألأوه ولوذعيته من أن يذال بمن أو ممن الرجل، وهو الفاضل الذى يحطب فى حبل الكتابة ما شاء، ويركض فى حلبة العلم ما أراد. وحضر بعده أبو القاسم بن حبيب وله فى الأدب عينه وفراره، وفى العلم شعلته وناره. وحضره بعده الفقيه أبو الهيثم ورائد الفضل يقدمه، وقائد العقل يخدمه. وحضر بعده الشيخ أبو نصر بن المرزبان والفضـل منه بدأ واليه يعود. وحضر بعده أصحاب الإمام أبى الطيب الأستاذ أيده الله.

" وما منهم إلا أغر نجيبُ " .

وحضر بعدهم أصحاب الأستاذ الفاضل أبى الحسن الماسرجسى :

" وكلٌّ إذا عدّ الرجال مقدّمُ "

وحضر بعدهم أصحاب الأستاذ أبى عمر البسطامى وهم فى الفضل كأسنان المشط ومنه بأعلى مناط العقد . وحضر بعدهم الشيخ أبو سعيد الهمذانى وله فى الفضل قدحه المعلى، وفى الأدب حظه الأعلى . وحضر بعد الجماعة أصحاب الأسبلة المسبلة، والأسوكة المرسلة، رجال يلعن بعضهم بعضا فصاروا الى قلب المجلس وصدره حتى رد كيدهم فى نحرهم وأقيموا بالنعال الى صف النعال، فقلت لمن حضر : من هؤلاء؟ فقالوا : أصحاب الخوارزمى، فلما أخذ المجلس زخرفه ممن حضر، وانتُظر أبو بكر فتأخر، اقترحوا علىّ قوافى أثبتوها واقتراحات كانوا بيتوها، فما ظنك بالحلفاء أدنيت لها النار من لفظ الى المعنى نسقته ، و بيت الى القافية سقته ، على ريق لم أبلعه، ونفَس لم أقطعه، وصار الحاضرون بين إعجاب بما أوردت، وتعجب مما أنشدت . وقال أحدهم بل أوحدهم وهو الإمام أبو الطيب لن نؤمن لك حتى نقترح القوافى ونعيّن المعانى وننص على بحر فإن قلت حينئذ على الروى الذى أسومه، وذكرت المعنى الذى أرومه ، فأنت حىّ القلب كما عهدناك ، منشرح الصدر كما شاهدناك ، شجاع الطبع كما وجدناك، وشهدنا أنك قد أحسنت، وأن لا فتى إلا أنت . فما خرجت من عهدة هذا التكليف حتى ارتفعت الأصوات بالهيللة من جانب والحوقلة من آخر وتعجبوا إذ أرتهم الأيام، ما لم ترهم الأحلام، وجادهم العيان بما بخل به السماع، وأنجزهم الفهم ما أخلفهم الوهم ثم التفتّ فوجدت الأعناق تلتفت وما شعرت إلا بهذا الفاضل وقد طلع فى شملته وهبّ بجملته، بأوداج ما يسعها الزران، وعينين فى رأسه تزران، ومشى الى فوق أعناق الناس وجعل يدس نفسه بين الصدور يريد الصدر وقد أخذ المجلس أهله فقلت : يا أبا بكر تزحزح عن الصدر قليلا الى مقابلة أخيك . فقال : لست برب الدار، فتأمر على الزوار ! فقلت : يا عافاك الله حضرت لتناظرنى والمناظرة اشتقت إما من النظر أو من النظير، فإن كان

اشتقاقها من النظر فمن حسن النظر أن يكون مقعدنا واحدا حتى يتبين الفاضل من المفضول ثم يتطاول السابق و يتقاصر المسبوق . فقضت الجماعة بما قضيت ، وغض هذا الفاضل من تلك الحكمة ، وانحط عن تلك العظمة ، وقابلني بوجهه فقلت : أراك أيها الفاضل حريصا على اللقاء ، سريعا الى الهجاء .

" ولو زبنتك الحرب لم تترمرم " .

ففى أى علم تريد أن نتناظر؟ فأومأ الى النحو ، فقلت : هذا إن اليوم قد متع ، والنهار قد ارتفع ، والظهر قد أزف ، ولئن قرعنا باب النحو أضعنا اليوم فيه ، فما ذا يخرج الناس ، فملا هتاف الناس أيهما رد الجواب هنالك ما يدرى المجيب . فإن شئت أن أناظرك فى النحو فسلم الآن لى ماكنت تدعيه من سرعة فى البديهة وجودة فى الروية ، وقدرة على الحفظ ونفاذ فى الترسل . ثم أنا أجاريك فى هذا ، فقال : لا أسلم ذلك ولا أناظر فى غير هذا ، وارتفعت المضاجة واستمرت الملاحاة حتى بلغ الأستاذ الفاضل أبو عمر اليه فقال : أيها الأستاذ انت أديب خراسان وشيخ هذه الديار وبهذه الأبواب التى قد عدها هذا الشاب ، كنا نعتقد لك السبق والحذق ، وتثاقلك عن مجاراته فيها مما يتهم و يوهم ، واضطرد الى منازلة أو نزول عنها ومقارة فيها أو إقرار بها . فقال : سلمت الحفظ ، فأنشدت قول القائل :

ومستلئم كشفت بالرمح ذيله ... أقمت بعضب ذى شقاشق ميله
فجعت به فى ملتقى الحى خيله ... تركت عتاق الطير تحجل حوله

وقلت : يا أبا بكر خفف الله عنا فى الحفظ فقد كفيتنا مؤونة الامتحان ، ولم نضع وقتا من الزمان ، فلو تفضلت وسلمت البديهة أيضا مع الترسل حتى نفرغ للنحو الذى أنت عليه أكبر واللغة التى أنت بها أعرف والعروض الذى أنت عليه أجرأ ، والأمثال التى لك فيها السبق والقدم والأشعار التى أنت فيها تقدم ، فقال : ما كنت لأسلم الترسل ولا سلمت الحفظ ، فقلت : الراجع فى شيئه ، كالراجع فى قيئه ، لكنا نقيلك عن ذلك السماح فهات أنشدنا خمسين بيتا من قبلك مرتين حتى أنشدك عشرين بيتا من قبلى عشرين مرة ، فعلم أن دون ذلك خرط القتاد

تهاب شوكتها اليد فسلمه ثانيا، كما سلمه باديا، وصرنا الى البديهة، فقال أحد الحاضرين هاتوا على شعر أبي الشيص فى قوله :

أبقى الزمان به ندوب عِضاضِ ورمى سـواد قرونه ببياضِ

فأخذ أبو بكر يخضد، ويحصد، مقدِّرا أنا نغفل عن أنفاسه، أو نوليه جانب وسواسه، ولم يعلم أنا نحفظ عليه الكلم ثم نوافقه عليها، فقال :

يا قاضيا ما مثلُهُ من قاضِ أنا بالذى تقضى علينا راض
فلقد لبست ضفية ملمومة من نسج ذاك البارق الفضفاض
لا تغضبنّ إذا نظمت تنفسا إن الغضا فى مثل ذاك تغاض
فلقد بليت بشاعر متقادر ولقد بليت بناب ذئب غاض
ولقد قرضت الشعر فاسمع واستمع لنشيد شعر طائعا وقِراض
فلأغلبنّ بديهة ببديهتى ولأرمينّ سواده ببياض

فقلت : يا أبا بكر ما معنى قولك ضفية ملمومة وما الذى أردت بالبارق الفضفاض فأنكر أن يكون قاله قافية، فواقفه على ذلك أهل المجلس وقالوا : قد قلت! ثم قلتُ : فما معنى قولك ذئب غاض؟ فقال : هو الذى يأكل الغضا، فقلت : استنوق الجمل يا أبا بكر وانقلبت القوس ركوة وصار الذئب جملا يأكل الغضا، فما معنى قولك إن الغضا فى مثل ذاك تغاض فإن الغضا لا أعرفه بمعنى الإغضاء، فقال : لم أقل الغضا، فقلت : ما قلت ؟ فأنكر البيت جملة، فقلت : ياويحك ما أغناك عن بيت تهرب منه وهو يتبعك، وتتبرأ منه وهو يلحق بك فقل لى : ما معنى قراض فلم أسمعه مصدرا من قرضت الشعر ولكن هلا قلت كما قلت وسقت الحشو الى القافية كما سقته؟ فقال : هذه طريقة لم تسلكها العرب فلا أسلكها . ثم دخل الرئيس أبو جعفر والقاضى أبو بكر الحربى والشيخ أبو زكريا الحيرى وطبقة من الأفاضل مع عدة من الأراذل فيهم أبو رشيدة، فقلت : ما أحوج هذه الجماعة الى واحد يصرف عنهم عين

الكمال[1]! وأخذ الرئيس مكانه من الصدر والدست وله فى الفضل قَدم وقِدم وفى الأدب هم وهمم وفى العلم قديم وحديث فتم المجلس وظهر الحق بنظره وقال : قد أدعيت عليه أبياتا أنكرها فدعونى من البديهة على النفس وآكتبوا ما تقولون وقولوا على هذه، فقلت :

برز الربيع لنا برونق مائه ... فانظر لروعة أرضه وسمائه
فالترب بين ممسك ومعنبر ... من نوره بل مائه وروائه
والماء بين مصندل ومكفَّر ... فى حسن كدرته ولون صفائه
والطير مثل المحصنات صوادح ... مثل المغنى شاديا بغنائه
والورد ليس بممسك رياه إذ ... يهدى لنا نفحاته من مائه
زمن الربيع جلبت أزكى متجر ... وجلوت للرائين خير جلائه
فكأنه هذا الرئيس إذا بدا ... فى خلقه وصفائه وعطائه
بحمى أعز محجَّر وندى أغر ... محجل فى خلقه ووفائه
يعشو اليه المحتوى والمجتدى ... والمجتوى هو هارب بذمائه
ما البحر فى تزخاره والغيث فى ... إمطاره والجو فى أنوائه
بأجل منه مواهبا ورغائبا ... لا زال هذا المجد حالف فنائه
والسادة الباقون سادة عصرهم ... متمدحون بمدحه وثنائه

فقال أبو بكر تسعة أبيات قد غابت عن حفظنا لكنه جمع فيها بين إقواء وإكفاء، وإيطاء، فرددنا عليه بعد ذلك عشرين ردا ونقدنا عليه فيها كذا نقدا، ثم قلت لمن حضر من وزير ورئيس وفقيه وأديب : أرأيتم لو أن رجلا حالف بالطلاق الثلاث لا أنشد شعرا قط ثم أنشد هذه الأبيات فقط هل كنتم تطلقون آمرأته عليه ؟ ! فقالت الجماعة : لا يقع بهذا طلاق ! ثم قلت : آنقدْ علىّ فيما نظمت، وآحكم عليه كما حكمت . فأخذ الأبيات وقال : لا يقال نظرت لكذا وإنما يقال : نظرت اليه، فكفتنى الجماعة إجابته، ثم قال : شبهت الطير

(١) تهكم يذكر بقول الشاعر :

ما كان أحوج ذا الكمال الى ... عيب يوقيه من العين

بالمحصنات وأى شبه بينهما؟ فقلت : يا رقيع ، إذا جاء الربيع ، كانت شوادى الأطيار ، تحت ورق الأشجار ، فيكنّ كأنهنّ المخدرات تحت الأستار . ثم قال لى : لم قلت مثل المحصنات مثل المغنى ، فقلت : هن فى الخدر كالمحصنات وكالمغنى فى ترجيع الأصوات . ثم قال : لم قلت زمن الربيع جلبت أزكى متجر وهلا قلت أربح متجر؟ فقلت : ليس الربيع بتاجر يجلب البضائع المربحة . ثم قال : ما معنى قولك الغيث فى إمطاره والغيث هو المطر نفسه فكيف يكون له مطر؟ فقلت : لا سقى الله الغيث أديبا لا يعرف الغيث ! وقلت له : إن الغيث هو المطر وهو السحاب كما أن السماء هو المطر وهو السحاب . وقال الجماعة : قد علمنا أى الرجلين أشعر ، وأى الخصمين أقدر ، وأى البديهتين أسرع ، وأى الرويتين أصنع . فقال أبو بكر : فاسقونى على الظفر . فقالوا : كفاك ما سقاك ! ثم ملنا الى الترسل ، فقلت : اقترح علىّ غاية ما فى طوقك ، ونهاية ما فى وسعك ، وآختر ما تبلغه بذرعك حتى أقترح عليك أربعمائة صنف فى الترسل فان سرت فيها برجلين ولم أطر بجناحين ، بل إن أحسنت القيام بواحد من هذه الأصناف ولم تخلف كل الإخلاف فلك يد السبق وقصبه ومثال ذلك أن قول لك : اكتب كتابا يقرأ منه جوابه هل يمكنك أن تكتب؟ أو أقول لك : اكتب كتابا على المعنى الذى أقترح لك وآنظم شعرا فى المعنى الذى أقترح وآفرغ منهما فراغا واحدا ، هل كنت تمد له ساعدا؟ أو أقول لك اكتب كتابا فى المعنى الذى أقول وأنص عليه ، وأنشد من القصائد ما أريده من غير تثاقل ولا تغافل حتى إذا كتبت ذلك قرئ من آخره الى أوله وآنتظمت معانيه إذا قرئ من أسفله ، هل كنت تفوق لهذا الغرض سهما ، أو تجيل قِدحا ، أو تصيب نجحا؟ أو قلت لك : اكتب كتابا إذا قرئ من أوله الى آخره كان كتابا ، فان عكست سطوره مخالفة كان جوابا . هل كنت فى هذا العمل وارى الزند ، قاصد القصد ؟ أو قلت لك : اكتب كتابا فى المعنى الذى يقترح ولا يوجد فيه حرف منفصل من راء يتقدم الكلمة أو دال ينفصل عن الكلمة بديهة ولا يجمّ فيها قلمك ، هل كنت تفعل ؟ أو قلت لك : اكتب كتابا خاليا من الألف واللام تصبّ معانيه على قالب ألفاظه ولا تخرجه عن جهة أغراضه ، هل كنت تقف من ذلك موقفا ممدوحا أو يبعثك ربك مقاما محمودا؟ أو قلت لك : اكتب كتابا يخلو من الحروف العواطل ،

هل كنت تحظى منه بطائل، أو تبل لهاتك بناطل؟ أو قلت لك : اكتب كتابا أوائل سطوره كلها ميم وآخرها جيم، على المعنى الذى يقترح، هل كنت تغلو فى قوسه غلوة ، أو تخطو فى أرضه خطوة؟ أو أقول لك : اكتب كتابا إذا قرئ معرَّجا وسرد معوَّجا كان شعرا هل كنت تقطّع فى ذلك شعرا؟ بلى والله تصيب ولكن من بدنك، وتقطّع ولكن من ذقنك! أو أقول لك : اكتب كتابا إذا فسر على وجه كان مدحا و إذا فسر على وجه كان قدحا. هل كنت تخرج من هذه العهدة؟ أو قلت لك : اكتب كتابا إذا كتبته تكون قد حفظته، من دون أن لحظته ، هل كنت تثق من نفسك به الى مالا أطاولك بعده، بل أست البائن أعلم ؟! فقال أبو بكر هذه الأبواب شعبذة ، فقلت : وهذا القول طِرمذة! فما الذى تحسن أنت من الكتابة وفنونها، حتى أباحثك على مكنونها ، وأكاثرك بمخزونها، وأشبر فيها قلمك، وأسبر فيها لسانك وفمك، فقال : الكتابة التى يتعاطاها أهل الزمان المتعارفة بين الناس ، فقلت أليس لا تحسن من الكتابة إلا هذه الطريقة الساذجة وهذا النوع الواحد المتداول لكل قلم، المتناول بكل يد وفم، ولا تحسن هذه الشعبذة ؟ فقال نعم . فقلت : هات الآن حتى أطاولك بهذا الحبل وأناضلك بهذا النبل، ثم تقاس ألفاظى بألفاظك، و يعارض إنشائى بإنشائك. وأقترح كتاب يكتب فى النقود وفسادها والتجارات ووقوفها والبضاعات وانقطاعها والأسعار وغلائها .

فكتب أبو بكر بما نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم

" الدرهم والدينار ثمن الدنيا والآخرة، بهما يتوصل الى جنات النعيم، ويخلد فى نار الجحيم، قال الله تبارك وتعالى: خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم . وقد بلغنا من فساد النقود ما أكبرناه أشد الإكبار، وأنكرناه أعظم الإنكار، لما نراه من الصلاح للعباد، وننويه من الخير للبلاد، وتعرفنا فى ذلك ما يربح للناس فى الزرع والضرع، و يعود اليه أمر الضر والنفع".

الى كلمات لم تعلق بحفظنا .

فقلت : إن الإكبار والإنكار والعباد والبلاد وجنات النعيم ونار الجحيم والزرع والضرع أسجاع قد نبتت فى المعد ، ولم تزل فى اليد ، وقد كتبت وكتبت ، ولا أطالبك بمثل ما أنشأت فاقرأ ولك اليد . وناولته الرقعة فبق و بقيت الجماعة و بهت وبهتت الكافة وقالوا لى : اقرأه ، فجعلت أقرؤه منكوسا وأسرده معكوسا والعيون تزرق وتحار وكانت نسخة ما أنشأناه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الله شاء إن المحاضر، صدور بها وتملأ المنابر، ظهور لها وتفرع الدفاتر، وجوه بها وتمشق المحابر، بطون لها ترشق، آثارا كانت فيه آمالنا مقتضى على أياديه، فى تأييده الله أدام الأمير جرى فإذا المسلمين ظهور عن الثقل، هذا و يرفع الدين، أهل عن الكل، هذا يحط أن فى اليه نتضرع ونحن واقفة، والتجارب زائفة، والنقود صيارفة، أجمع الناس صار فقد كريما نظرا لينظر شيمه، مصاب وانتجعنا كرمه، بارقة وشمناهممه على آمالنا رقاب وعلقنا أموالنا ، وجوه له وكشفنا آمالنا وفود اليه بعثنا فقد نظره بجميل يتداركنا أن ونعماه تأبيده وأدام بقاءه الله أطال الجليل الأمير رأى إن وصلى الله على محمد وآله الأخيار[1] .

فلما فرغت من قراءتها انقطع ظهر أحد الخصمين وقال الناس قد عرفنا الترسل أيضا فملنا الى اللغة ، فقلت : يا أبا بكر هذه اللغة التى هددتنا بها وحدثتنا عنها وهذى كتبها وتلك مؤلفاتها نحذ غريب المصنف إن شئت و إصلاح المنطق إن أردت وألفاظ ابن السكيت ان نشطت ومجمل اللغة إن اخترت فهو ألف و رقة وأدب الكاتب إن أردت ، واقترح علىّ أى

(١) هذا الخطاب فى ظاهره مغلق ، ولكنه يقرأ من عكسه بسهولة فيقال :

« إن رأى الأمير أطال الله بقاءه ، وأدام تأييده ونعماه ، أن يتداركنا بجميل نظره ، فقد بعثنا إليه وفود آمالنا ، وكشفنا له وجوه أحوالنا ، وعلقنا رقاب آمالنا على همه ، وشمنا بارقة كرمه ، وانتجعنا مصاب شيمه ، لينظر نظرا كريما ، فقد صار الناس أجمع صيارفة ، والنقود زائفة ، والتجارات واقفة ، ونحن نتضرع اليه فى أن يحط هذا الكل عن أهل الدين و يرفع هذا الثقل عن ظهور المسلمين ، فاذا جرى الأمير أدام الله تأييده فى أياديه ، على مقتضى آمالنا فيه ، كانت آثارا ترشق لها بطون المحابر ، وتمشق بها وجوه الدفاتر ، وتفرع لها ظهور المنابر ، وتملا بها صدور المحاضر ان شاء الله

باب شئت من هـذه الكتب حتى أجعله لك نقدا، وأسرده عليك سردا ، فقال : اقرأ من غريب المصنف رجل ماس، خفيف على مثال مال وما أمساه! فاندفعت فى الباب حتى قرأته فلم أتردد فيه، وأتيت على الباب الذى يليه ثم قلت أقترح غيره، فقالوا : كفى ذلك فقلت له : اقرأ الآن باب المصادر من أخبار فصيح الكلام ولا أطالبك بسواه ولا أسألك عما عداه، فوقف حماره، وخمدت ناره ، وقال الناس اللغة مسلمة لك أيضا فهاتوا غيره ، فقلت : يا أبا بكر هات العروض فهو أحد أبواب الأدب وسردت منه خمسة أبحر بألقابها وأبياتها وعللها وزحافها، فقلت : هات الآن فاسرده كما سردته فلما برد ضجر الناس وقاموا عن المجلس يفدوننى بالأمهات والأب، ويشيعونه باللعن والسب، وقام أبو بكر فغشى عليه وقمت اليه فقلت :

يعز علىّ فى الميدان أنى قتلت مناسبى جلدا وقهرا
ولكن رمت شيئا لم يرمهُ سواك فلم أطق ياليث صبرا

وقبلت عينيه ومسحت وجهه وقلت : أشهد أن الغلبة له فهلا يا أبا بكر جئتنا من باب الخلطة وفى باب العشرة؟ وتفرق الناس وحبسنا للطعام، مع أفاضل ذلك المقام، ولما حلقنا على الخوان ، كرعت فى الجفان، وأسرعت الى الرغفان ، وأمعنت فى الألوان ، وجعل هذا الفاضل يتناول الطعام بأطراف الأظفار، فلا يأكل إلا قضما، ولا ينال إلا شما ، وهو مع ذلك ينطق عن كبد حرّى ويفيض عن نفس ملا ى ، فقلت : يا أبا بكر بقيت لك مُنة وفيك مسكة :

يا قوم انى أرى الأموات قد نشروا والأرض تلفظ موتاكم إذا قبروا

فأخبرنى يا أبا بكر لم غُشّى عليك؟ فقال : لحمى الطبع وحمى الفرو، فقلت : أين أنت من السجع، هلا قلت حمى الطبع وحمى الصفع! وقال السيد أبو القاسم : أيها الأستاذ أنت مع الجد والهزل تغلبه ، فقلت : لا تظلموه ولا تطعموه طعاما يصير فى بطنه مغصا، وفى عينه رمصا، وفى جلده برصا، وفى حلقه غصصا ! فقال أبو بكر : هذه أسجاع كنت حفظتها فقل كما أقوله : يصير فى عينك قذى، وفى حلقك أذى، وفى صدرك شجى! فقلت : يا أبا بكر على

الألف تريد؟ خذ الآن : بفيك البرا ، وعلى هامك الثرى ، ولا أطعمك الخ ... إلا من ورا ، كما ترى فقال : أيها الأستاذ السكوت أولى بك ومالوا الىّ وقالوا : ملكت فأسجح ! فأبى أبو بكر أن يبقى لنفسه حمة لم ينفضها ، أو يدخر علينا كلمة لم يعرضها ، فقال : والله لأتركنك بين الميمات ، فقلت : ما معنى الميمات ؟ فقال : بين مهزوم ومهـذوم ومهشوم ومغموم ومحموم ومرجوم ، فقلت ، وأتركك بين الميمات أيضا بين الهيام والصدام والجذام والحمام والزكام والسام والبرسام والهام والسقام و بين السينات فقد علمتنا طريقـة بين منحوس منخوس منكوس معكوس متعوس محسوس معروس و بين الخاآت فقـد فتحت علينا بابا بين مطبوخ مشدوخ منسوخ ممسوخ مفسوخ و بين الباآت فقـد علمتنى الطعن وكنت ناسيا بين مغلوب ومسـلوب ومرعوب ومصلوب ومركوب ومنكوب ومنهوب ومغضوب . و إن شئنا كلنا بهذا الصاع ، وطاولنا بهذا الذراع ، وعرضنا عليك من هـذا المتاع ، وكاثرناك بهذه الأنواع ، ثم خرجت واحتجر فقد كان اجتمع الناس وغلث الكروش ، ولما خرجت لم يلقونى إلا بالشفاه تقبيلا ، و بالأفواه تبجيلا ، وانتظروا خروجه الى أن غابت الشمس ولم يظهر أبو بكر حتى حضره الليل بجنوده وخلع الظلام عليه فروته .

فهذا ما علقناه عن المجلس وأديناه ، والسيد أطال الله بقاءه يقف عليه إن شاء الله .

١٦ - نثر بديع الزمان

١ — أول ميزة لبديع الزمان أنه يشعرك بفهمه للحياة ، فهو يتحدث عن أشجان وأغراض هي في صميمها ألوان للنفوس الانسانية . واذا كان هناك كتّاب يخاطبونك بما لا تفهم لأنهم يتحدثون عن نفس بعيدة عن نفسك ، وقلب أجنبيّ عن قلبك ، فان بديع الزمان يطالعك بطائفة من الأزمات النفسية والروحية هي أزماتك أنت لو درست نفسك وتطلعت الى وجدانك ، وهذا هو السر في أن بديع الزمان لا يزال أدبه حيا ، ولا تزال آراؤه وأفكاره قريبة منا على بعد العهد وتعاقب الأجيال . ومن العجب أننا نتقبل منه الزهو والخيلاء لأننا نشعر أنه في زهوه وخيلائه لايكذب ولا يمين . ولننظر كيف يقول :

" فانى و إن كنت فى مقتبل السن والعمر، قد حلبت شطرى الدهر، وركبت ظهرى البر والبحر ، ولقيت وفدى الخير والشر ، وصافحت يدى النفع والضر ، وضربت إبطى العسر واليسر ، و بلوت طعمى الحلو والمر، و رضعت ضرعى العرف والنكر، فما تكاد الأيام تريني من أفعالها غريبا، أو تسمعنى من أحوالها عجيبا . ولقيت الأفراد، وطرحت الآحاد، فما رأيت أحدا الا ملأت حاقتى سمعه و بصره، وشغلت حيزى فكره ونظره "(١) .

٢ — وهذه الفقرة تمثل شعوره بأرزاء الدهر ونكبات الحياة ، وتمثل حرصه على أن يشغل البارزين من معاصريه . وقد كانت لبديع الزمان غضبات تظهر فيها فورات نفسه وهى مضطرمة متأججة ، فنرى فى كتاباته صورة نفسه وهى تتوثب كما تتوثب ألسنة الجحيم ، كقوله فى خليفة أبى نصر الميكالى بهراة :

«وحدثت عن هذا الخليفة، بل الجيفة، أنه قال : قضيت لفلان خمسين حاجة منذ و رد، هـذا البلد ، وليس يقنع، فما أصنع ؟ فقلت يا أحمق إن استطعت أن ترانى محتاجا فاستطع

---

(١) ص ١٠١ ، ١٠٢ رسائل بديع الزمان .

أن أراك محتاجا اليك، أف لقولك وفعلك، ولدهر أحوج لمثلك[1] ! » وليتأمل القارئ « ان استطعت أن ترانى محتاجا فاستطع أن أراك محتاجا اليك » فانه غاية فى التهكم اللذاع[2].

وفى مثل هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

« هذا الخليفة يزعم أنى طعام، فلا والله إن لحمى حرام، وفيه عروق وعظام، ولو كنت طعاما لكنت الأكلة التى تمنع الأكلات ... ومن شتمنى من خلف، فجزاؤه مائة ألف، واذا انتهت الدعوة الىّ فقد عزل عزرائيل، ولم يبق فى ولايته إلا قليل، والله مايصلح لحمى للقديد، ولا يحسن فوق الثريد، وإنه ليأبى فى المضغ، وينشب فى الحلق، ويقلق فى البطن، ولا يخرج من المعى إلا مع الأمعاء. وكانوا لا يصيدون ابن آوى، وان كانوا شهاوى[3] » .

٣ — وكان بديع الزمان شديد الحقد على أبى بكر الخوارزمى، وكان لذلك مغرما بالنيل منه والوقوع فيه. ومرض الخوارزمى، فكتب أحد أصدقاء بديع الزمان يهنئه بمرض عدوه فغضب لذلك ورأى فى هذه التهنئة لؤما لا يرضى عنه كرمه، ولا يغفر مثله نبله، وقذف صديقه ذاك بالكلمة الآتية :

«الحر، أطال الله بقاك، لا سيما اذا عرف الدهر معرفتى، ووصف أحواله صفتى، اذا نظر علم أن نعم الدهر ما دامت معدومة فهى أمانى، فان وجدت فهى عوارى، وأن محن الزمان وإن مطلت فستفد، وان لم تصب فكأن قد، فكيف يشمت بالمحنة من لا يأمنها فى نفسه، ولا يعدمها فى جنسه؟ والشامت إن أفلت فليس يفوت، وإن لم يمت فسيموت، وما أقبح الشماتة، بمن أمن الإماتة، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة، وعقب كل لفظة. والدهر غرثان طعمه الخيار، وظمآن شربه الأحرار، فهل يشمت المرء بأنياب آكله، أم يسر العاقل بسلاح قاتله ؟ وهذا الفاضل شفاه الله وان ظاهرناه بالعداوة قليلا، فقد باطناه ودا جميلا، والحر عند الحمية لايصطاد، ولكنه عند الكرم ينقاد، وعند الشدائد تذهب

---

(١) ص ٥٤ (٢) ص ٣٣٩ رسائل. (٣) ص ٣٣٩

الأحقاد، فلا تتصور حالى إلا بصورتها من التوجع لعلته، والتحزن لمرضته، وقاه الله المكروه، ووقانى سماع السوء فيه، بحوله ولطفه» .

وهذه الرسالة من أعلى الرسائل فى أسلوبها، وموضوعها، وله رسالة تشبهها كتبها الى أبى عامر الضبى يعزيه فى بعض أقاربه وفيها يقول :

" أحسن ما فى الدهر عمومه بالنوائب، وخصوصه بالرغائب، فهو يدعو الجفلى اذا ساء، ويختص بالنعمة اذا شاء، فلينظر الشامت فان كان أفلت ، فله أن يشمت، ولينظر الانسان فى الدهر وصروفه، والموت وصنوفه، من فاتحة أمره، الى خاتمة عمره، هل يجد لنفسه، أثرا فى نفسه، أم لتدبيره، عونا على تصويره، أم لعمله تقديما لأمله، أم لحيله، تأخيرا لأجله ؟ كلا بل هو العبد لم يكن شيئا مذكورا، خلق مقهورا، ورزق مقدورا، فهو يحيا جبرا، ويهلك صبرا . وليتأمل المرء كيف كان قبلا، فان كان العدم أصلا، والوجود فضلا ، فليعلم الموت عدلا . والعاقل من رفع من حوائل الدهر ماساء ليذهب ماضر بما نفع، و إن أحب أن لا يحزن فلينظر يمنة، هل يرى إلا محنة، ثم ليعطف يسرة، هل يرى إلا حسرة؟ ومثل الشيخ الرئيس من تفطن لهذه الأسرار، وعرف هذه الدار، فأعد لنعيمها صدرا لايملؤه فرحا، ولبؤسها قلبا لايطيره جزعا ، وصحب الدهر برأى من يعلم أن للمتعة حدا، وللعارية ردا . ولقد نعى الىّ أبو قبيصة قدس الله روحه، و برد ضريحه، فعرضت علىّ آمالى قعودا، وأمانىّ سودا، و بكيت والسخى بما يملك، وضحكت وشر الشدائد ما يضحك، وعضضت الإصبع حتى أدميته، وذممت الموت حتى تمنيته، والموت خطب قد عظم حتى هان، وأمر قد خشن حتى لان، ونكر قد عم حتى عاد عرفا، والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها، وجنت حتى صار أصغر ذنوبها وأضرت حتى صار أيسر غيوبها، وأبهمت حتى صار أظهر عيوبها . الخ " .

٤ — وهـذه الرسالة تعطينا صورة من نفس ذلك الرجل الحساس . فهو هنا يدرس قيمـة الانسان وينتهى بالدرس الى أنه أثر ضئيل بين آثار الوجود ، فقـد خلق من حيث لا يريد، ورزق من حيث لا يحتسب . فهو بهذا ألعوبة صغيرة فى يد القدر يرفعها حين يشاء، ويرمى بها فى الفناء حين يشاء .

ولا يقف بديع الزمان عند هذا الحد، وانما يمضى فيدعوك الى سياسة نفسك، فيحدثك بأن من العقل أن تجسم حسنات الدهر لتضؤل بجانبها سيئاته، ويروضك على أن تنظر حواليك لترى أن لكل إنسان نصيبه من بأساء الحياة، ويدعوك الى أن تعد لنعم الدنيا صدرا لا يملؤه الفرح، وقلبا لا يطيره الجزع، وتلك هى السياسة الرشيدة عند من يفقهون .

وقد أعطانا البديع فى هـذه الرسالة أجمل صورة للجزع عنـد فقد الأعزاء، فقد أضحكه الحزن وأبكاه، وحدثنا بأنه بكى لأن البكاء غاية ما يملك الحر فى رد العزيز المفقود، وأنه ضحك لأن الشدائد المرة ترمى المحزون بقهقهة المجانين . وقد وصل البديع الى قرار الحكمة حين حدّثنا بأن الموت خطب قد عظم حتى هان، ووصل الى أسمى غايات الخيال حين حدثنا بأن الدنيا أبهمت حتى صار الموت أظهر مافيها من العيوب . وهو بهـذا ينظر الى الوجود وكأنه عدو فاجر لا ينتهى ما لديه من الشؤم المبيَّت والشر المستطير .

٥ — لكن هـذه السماحة النفسية ليست سمة غالبـة فى بديع الزمان، فهو فى أكثر الأحوال رجل ماكر خبيث، ومقاماته تنتهى الى فلسفة واحدة هى السخرية من العالم وٱقتناص ما يملكون بشتى الحيل والمداورات من غير تورع ولا ٱستحياء . ففى المقامة الأصفهانية يحتال أبو الفتح الاسكندرى فيحتجز المصلين فى المسجد ولا يزال بهـم حتى يملأ جيبـه ثم يقول فى السخر من أولئك المتصدقين :

النـاس حُمْـرٌ بجـوِّز ... وٱبرز عليهـم وبرز
حـتى اذا نلت منهـم ... ما تشـتهيه ففـروز

وفى المقامة المكفوفية ينشد أبو الفتح بعد أن يصل الى بغيته وقد تعامى طلبا للمـال :

أنا أبـو قلمون(١) ... فى كل لون أكونُ
إختر من الكسب دونا ... فان دهرك دون
زجّ الزمان بحمـق ... إن الزمان زبون(٢)

(١) أبو قلمون ثوب رومى من الأبريسم يظهر للعين فى ألوان مختلفة بصناعته . (٢) الزبون : الناقة التى تدفع بثفنات رجلها عند الحلب .

obeikandi.com

لا تكذبن بعقـــل ما العقـــل إلا جنـون

وفى المقامة القزوينية يعترف أبو الفتح بأن النسبة صورة من صور المنافع و يقول :

أنا حالى من الزما ن كحـالى من النسب
نسبى فى يد الزما ن اذا سامـــه انقلب
أنا أمسى من النبيـ ـط وأضحى من العرب

وفى المقامة الساسانية يقول :

هـــذا الزمان مشوم كما تراه غشـــومُ
الحمـق فيـــه مليـــحٌ والعقـــل عيب ولُومُ
والمـال طيف ولكن حول اللئـام يحـــوم

وهذه الأبيات تمثل حقده على الأغنياء، ورميه الى أن كل غنى لئيم ، ومثل هـذا قوله فى المقامة البصرية :

الفقر فى زمن اللئـا م لكل ذى كرم علامـهْ
رغب الكرام الى اللئـا م وتلك أشراط القيامـهْ[1]

٦ — والذى يتصفح رسائل بديع الزمان ومقاماته يراه فى أكثرها يحارب معاصريه من الكتاب والرؤساء، ولا يقع نظره على الجوانب الطيبة من حياة الناس إلا قليلا . ولايمكن أن تكون لبـديع الزمان سياسة نفسية غير تلك الخطة الصاخبة التى ألفها فى حياته وهى العنف المطبق فى البحث عن أسـباب الغنى والجـاه . ومن دلائل حقده وبغيـه أن واليـا عزل وكتب اليه بعد عزله يستميل فؤاده، فكتب اليه البديع يؤنبه ويصوره بصورة المعشوق الذى انقضت أيام حسنه ولم تبق منه بقية يحتمل معها الدلال . فمن تلك الرسالة قوله :

(١) وقد تهكم بديع الزمان بالأدب وأهله غيرمرة . راجع ص ٣٩٦ حيث ترى أنه يرى الأدب واللغة والتفسير ضروبا من الحمـق «لا يبيع بها ذو عقل باقة بقل» وفى ص ٢٢٢ يرى أنه لا قرابة بين الأدب والذهب وأن الأدب لا يمكن ثرده فى قصعة ، ولا صرفه فى ثمن سلعة ، الخ .

"تناسيت أيامك إذ تكلمنا نزرا، وتلحظنا شزرا، وتجالس من حضر، ونسترق اليك النظر، ونهتز لكلامك، ونهش لسلامك . فأقصد الآن فانه سوق كسد، ومتاع فسد، ودوله عرضت، وأيام انقضت :

وعهد نفاق مضى وخطب كساد نزل
وخدٌّ كأن لم يكن وخطٌّ كأن لم يزل

ويوم صار أمس، وحسرة بقيت فى النفس، وثغر فاض ماؤه فلا يرشف، وريق خدع فلا ينشف، وتمايل لا يعجب، وتثن لا يطرب، ومقلة لا تجرح ألحاظها، وشفة لا تفتن ألفاظها! وقد بلغنى الان ما أنت متعاطيه من تمويه يجوز بعد الفلق، فى الغسق... وإفنانك لتلك الشعرات حفا وحصا . وسيكفينا الدهر مؤونة الانكار عليك، بما يزف من بنات الشعر وأمهاته اليك .

ما يفعل الله باليهود ولا بعاد ولا ثمود
ولا بفرعون إذ عصاه مايعقل الشعر بالجدود[1]

وهى رسالة طويلة اكتفينا منها بهذه الفقرات، وقد تأثر بهذه الرسالة وحاكاها فى أسلوبها وموضوعها جماعة من الكتاب أشهرهم فى المتقدمين أبو المغيرة الوزير عبد الرحمن بن حزم الأندلسى[2] وأشهرهم فى المتاخرين المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش .

٧ — ولو كان لبديع الزمان غرض يرمى اليه فى مجموع كتاباته لوصل الى أبعد حدّ من حدود النجاح لأنه أبرع من حمل القلم بين أهل عصره، ولا نعرف كاتبا التزم السجع ووفق الى الدقة والرشاقة والعذوبة كما وفق بديع الزمان . والقاعدة التى اختارها أساسا لفلسفته وهى سوء الظن بالناس تلاشى أثرها فى مقاماته لأنه أعطى لبطل تلك المقامات صورة مشوهة هى صورة الاستجداء، ثم التزم منهجا واحدا لا يختلف إلا قليلا بحيث لا يبدأ القارئ إلا وهو يعلم ما ستنتهى اليه المقامة .

ومهما يكن من شىء فلن يمكن نكران ما وفق اليه بديع الزمان من نقد طائفة كبيرة من خصال اللؤم والنفاق والضعة والإسفاف، وما الى ذلك من الهنات التى يوصم بها من تساعدهم الظروف على التغلب والاستعلاء، ثم لا يكونون فى أنفسهم وفى سلوكهم إلا برهانا على فساد الحياة ونقص الأحياء .

(١) (٨٤ — ٨٨) . (٢) الذخيرة ج ١ ص ٦٦

١٧ - عبد العزيز بن يوسف

١ — كان أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف كما وصفه الثعالبي «أحد صدور المشرق، وفرسان المنطق»[(١)] وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه معدودا فى وزرائه، وخواص ندمائه، وتقلد الوزارة بعده لأبنائه[(٢)]. وكان الصاحب بن عباد يقول: كتاب الدنيا أربعة: الأستاذ ابن العميد وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف وأبو إسحاق الصابى، ولو شئت لذكرت الرابع[(٣)]، يعنى نفسه.

وجملة أخباره تدل على أنه كان فى زمانه من أعلام الكتاب.

٢ — ويظهر مما أثر من أخلاقه أنه كان رجلا كريم النفس. وقد شفع لأبى إسحاق الصابى عند عضد الدولة فى ساعة غضب، وتفصيل ذلك أن قوما سعوا لإخراج الصابى من السجن فقال عضد الدولة «قد سوغته نفسه: فان عمل كتابا فى مآثرنا وتاريخنا أطلقته» فشرع الصابى فى محبسه فى تأليف كتاب فى أخبار بنى بويه، وقيل إن بعض أصدقائه دخل عليه الحبس وهو فى تبييض الكتاب وتسويده فسأله عما يعمله فقال: أباطيل أنمقها، وأكاذيب ألفقها» فخرج الرجل وأنهى ذلك الى عضد الدولة — ودسائس الأصدقاء كثيرة يعانيها الأحرار فى جميع الأزمان! — فأمر عضد الدولة بإلقاء الصابى تحت أرجل الفيلة، فأكب أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ونصر بن هارون على الأرض يقبلانها ويشفعون اليه فى أمره حتى أمر بآستحيائه[(٤)].

٣ — والظاهر أن صلته بالصاحب والصابى كانت صلة وداد، ورسائله الى الصاحب كثيرة[(٥)]، ولكن تغلب عليها صفة التودد المشوب بالتملق. أما رسائله الى الصابى فتفيض بالعطف والحنان.

---

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٧٦ (٢) اليتيمة ج ٢ ص ٨٧ (٣) ياقوت ج ١ ص ٣٢٨ (٤) ياقوت ج ١ ص ٣٢٥ (٥) راجع هذه الرسائل فى اليتيمة ج ٢ ص ٩٢ — ٩٤

وانظر هذه الرسالة :

« وصل كتاب مولاى بما قرب الىّ جناه، وبعد علىّ مداه ، من محاسن لفظه ونظمه ، ومباره التى ما يزال يؤثرنى فيها بالرغائب، ويصفينى منها بالعقائل . فوقفت منه بين آعتبار واقتباس ، وآعتذار وآغتباط ، وآستبصار فى موضع الفضيلة ، وشكر لما جمع الله لى فى وده من المنح الجزيلة ، ووجدت خطابه مفتتحا بشكوى الأيام فى انحرافها ، ومكاره أحداثها ، فاستوحشت منها لاستيحاشه ، وآستعديت عليها لاستعدائه . وشايعت المهجنين لاثارها ، والزارين على أحكامها ، لاعتراضها دون آماله ، وقدحها فى أحواله ، ولم يستبق الجمال لنفسه والفضل لأهله ، دهرٌ أناخ على مولاى بصرفه ، وآختزله دون واجب حقه»[١] .

٤ — وتمتاز رسائله فى الاخوانيات بترصيعها بحبات شعره ، فقد آبتدأ إحدى رسائله الى الصاحب بهذه الأبيات :

كتابٌ لو آن الليل يرمى بمثلهِ | لألقت يدا فى حجرتيه ذُكاءُ
تهادى بأبكار المعانى وعُونها | وأعيان لفظ ما لهن كفاء
شواهد لولا أنهن أوالف | ضرائر إلا أنهن سواء
لبسنا بها نعمى وألبست الربا | خمائل روض جادهن سماء
بنان آبن عباد تعلين نوءه | وما صوبه إلا حَيًّا وحِباء

وثلاث[٢] كتب تناظرت فى الحسن والاحسان ، وتقابلت فى البر والإنعام ، لا زالت أياديه قلائد الأعناق ، ومراميه مضامير السباق ، ولا آنفكت عين الله حامية له ، وكافلة به[٣] .

ويظهر أن الصابى كان كذلك يرصع رسائله بالشعر بدليل قول أبى القاسم من رسالة ثانية :

«وقفت على الأبيات التى أتحفنى بها سيدى ، وتكلفت لجوابها على ظلع فى خاطرى لطول السفار ، وآتصال حالى بالحل والترحال . ومولاى يأخذ العفو ويرضى بالميسور ، ويعذر

---

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٩٤ (٢) معطوف على (حيا وحباء) وبذلك يتبين القارئ مهارة الكاتب فى وصل الشعر بالنثر فى سياق واحد . (٣) اليتيمة ج ٢ ص ٩١

مستأنفا على التقصير فى جواب ما يأتينى من أمثاله ، مادمنا فى ملكة الهواجر، وتعب البُكر والأصائل»[1] .

٥ — ومن الفنون البارزة عند أبى القاسم وصف الرسائل الاخوانية، كقوله فى وصف رسالة للصابى :

«عرفت كيف تنتظم فرق البلاغة ، وتلتقى طرف الخطابة، وتتراءى أشخاص البيان ، وتتمايل أعطاف الحسن والاحسان، وقرأت لفظا جليا، حوى معنى خفيا، وكلاما قريبا ، رمى غرضا بعيدا، وفصولا متباينة كساها الائتلاف صور المشاكلة ، ومنحها الامتزاج صيغة المضارعة، ولحمة الموافقة، فصارت لدلالة الأوّل منها على الثانى، وتعلق العجز فيها بالهادى، أولاد أرحام مبرورة، وذوات قربى موصولة، تتعاطف عيونها، وتتناصف أبكاها وعُونها[2]» .

٦ — وعند تأمل رسائله نجده يحسن الوصف . كقوله من كتاب له الى الصاحب فى فتح عمان وإبادة الزنوج بها وما وصل الى عضد الدولة من المغانم :

« ... وكانت لأولئك الكفرة عادة اشتهرت منهم فى استباحة الناس وأكل لحومهم ، وبلغ من كلَبهم على ذلك أنهم كانوا يتنقلون بينهم اذا شربوا بأكف الناس ، وسأل مولاى عن هذا النقل الغريب فحكى لى عنهم أنه لا شىء فى الانسان ألذ من كفه وبنانه ، وكان فى ذلك اليوم الذى شارف فيه طلائع العسكر المنصور باب عمان ثار من بعض المكامن طوائف من أولئك الكلاب فكبا ببعض الغلمان دابته فاختلسوه واقتسموه بينهم وأكلوه فى الوقت ، وتعجب الناس من ضراوتهم وقساوتهم ، وقد أبادهم الله تعالى جده ، وطهر البر والبحر من عبثهم ومعرتهم ، فانقاد أهل جبال عمان باخعين بالطاعة ، معتصمين بذمة الجماعة ، وتمت نعمة الله على مولانا فى هذا الفتح ، وكملت له مغانم الأجر ، ووصل أمس غنائم تلك الناحية وفيها فيل صغير بقدّ الفرس ما عرف ألطف ولا أظرف منه ، وفى الغنائم كل ما تشتهى

(١) ص ٩٢ (٢) ص ٩٣

الأنفس وتلذ الأعين . والله تعالى يجنى مولانا ثمار الأرض برا و بحرا، وسهلا وجبلا، بمنه وكرمه . آمين ".

٧ — وكانت له بحكم منصبه جولات فى الرسائل السلطانية، نذكر منها قوله من كتاب عن الطائع لله الى ركن الدولة لما ورد عضد الدولة العراق :

"فأنت وعضد الدولة — كلأ كما الله ! — يدا امير المؤمنين فيما يأخذ ويذر، وناظراه فيما يقرب ويبعد، بكما آفترش مهاد الملك بعد إقضاضه، ورفع منار الدين بعد آنخفاضه، فأبشرا من الله تعالى بالحسنى، إن الله لا يضيع أجر المحسنين" (١) .

ومن كتاب عن عضد الدولة فى عود الطائع الى بغداد والتقائه معه :

"ولما ورد أمير المؤمنين بالنهروان أنعم بالاذن لنا فى تلقيه على الماء، فآمتثلناه وتقبلناه وتلقانا من عوائد كرمه، ونفحات شيمه، والمخائل الواعدة بجيل آرائه، وعواطف أنحائه، ورعاية ما كنفنا يمنه، وشايعنا عزه، الى أن وصلنا الى حضرته البهية، فى الجديدية، التى استقبلت منه بسليل الملك، وقعيد الخلافة، وسيد الأنام، والمستنزل بوجهه در الغمام، فتكفأت علينا ظلال نوره وبشره، وغزتنا جهات تفضله وفضله، وقرب علنا سنن خدمته، وأنالنا شرف القعود بين يديه، على كرسى أمر بنصبه لنا عن يمينه، وأمام دسته، وأوسعنا من جميل لقياه، وكريم نجواه، ما يسم بالعز أغفال النعم، و يضمن الشرف فى النفس والعقب، ويكفل من الفوز فى الدين والدنيا بغايات الأمل . وكان لنا فى الوصول اليه، والقعود بين يديه، فى مواقع ألحاظه، وموارد ألفاظه، مراتبُ لم يعطها أحد فيما سلف، ولم تجُد الأيام بمثلها لمن تقدّم" (٢) .

٨ — وليس بين أيدينا من أخباره ورسائله ما يعطينا صورة صحيحة من نفسه وأخلاقه، والذى يمكن الجزم به أنه كان دقيق العبارة رصين الأسلوب، والى القارئ هذه الكلمات مقتبسةً من رسائله القليلة التى أعفاها الزمان من الضياع .

---

(١) ص ٨٧ (٢) ص ٨٨

obeikandl.com

"وأجنهم الليل فادرعوه مقتادين بخزائم أنوفهم، الى مصارع حتوفهم" .

"سار الى سدّة دار الخلافة والسعود تشايعه، والميامن تواكبه، وطلائع الآمال تشرف عليه، وثغر الاسلام يبتسم اليه" .

"وقد كان الغضنفر بن حمدان حين نفضته المذاهب، ولفظته المهارب، وأقلقته عن مجاثمه المكايد والكتائب، تطوع الى بلاد الشام يتنقل بين مصارع يحسبها مراتع، ومجاهل يعدها معالم، يروم آنتعاشا والجد خاذله، ويبغى آنتياشا والبغى طالبه" .

"ولما ضاق عن هذا المخذول حلمنا باتساع غوايته، ووعر الطريق الى آستبقائه، استخرنا الله تعالى فى آسترجاع ما ألبسناه من النعم" .

" إن الله سائلك عن الخَطرة والخَطفة، واللحظة واللفظة " .

" ادّرعْ من ثوب عفافك، ما يشمل كافة أطرافك " .

" احذروا أن ينقلكم الله بأقدامكم، الى مصارع حمامكم " .

" التقوى هى العدّة الوافية، والجُنة الواقية، والتجارة الرابحة، والسعادة السانحة، والجلاء للشبهة، والضياء للغمة " .

" سيعيض الله من حَرّ الهواجر بَرد الظلال، ومن قلق الركاب، نجح الإياب " .

" أيقظوا قلوبكم من سِنة الخواطر، وآحبسوا ألحاظكم عن محظور المناظر " .